ملامح

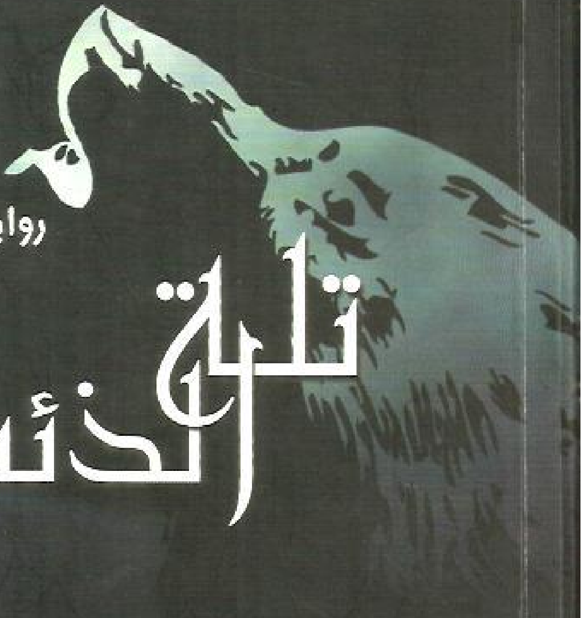

رواية

تل الذئب

سامي سعد

fb/mashro3pdf

تلة الذئب

(رواية)

fb/mashro3pdf

سامي سعد

تلة الذئب

(رواية)

الطبعة الأولى سبتمبر 2008
رقم الإيداع: 2008/17703
I.S.B.N: 978-977-6262-30.0

تصميم الغلاف: ريهام ناجي

دار ملامح للنشر

٢ ش الديوان –جاردن سيتي - القاهرة
تليفون: ٠٠٢٠١١٢٧٧١٥٢٢ - ٠٠٢٠٢٢٧٩٤٩٨٨٥
E-mail : info@malamih.com
Website: www.malamih.com
المدير التنفيذي: محمد الشرقاوى
قسم النشر: أحمد ناجي

جميع الحقوق محفوظة لدار ملامح للنشر ©2008

fb/mashro3pdf

تلة الذئب

(رواية)

سامي سعد

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إهداء

إليـــها: «ريف»، وديعتي المقدسة.

إليهمـا: رحماتي النائية.

إليــهـم: كريم / أدهم / شادي، أجمل قصائدي.

إلـــيـه: الذنب نفسه، شبيهي و أخي.

إليـكـم: إن أحسنت فلا تشكروني، و إن اسأت فلا شيء لكم عندي.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الرؤيا

fb/mashro3pdf

-١-

كانت القهوة مرة جداً، ولكنها طيبة. خمس سنوات مرت، هذا وقت كاف لسؤال غريب.

قلت: لا تسأل عن المكان، من أين جاء السؤال؟ كان مذاق ثمرة الحبهان يغوص في الرأس.

في يوم ملائم سأرتب مفكرتي وأفكاري، ستدفعني طاقة عاتية إلى جواب حاسم. ماذا سيبقي حين تعرف كل شئ؟

قال لي: هل كنت تعرف؟ بعد حيرة قليلة أجبت: أتذكر أني بكيت فجأة، كان السلام يرفرف فوق الكلمات، وهي أيضاً كانت مارقة في الجمال، تتلكأ لحظات من البؤس، لكنها الحياة.

واصل ربما دون كلمات: نعم. أتذكر أني بكيت وهي قالت لي والله يشهد على ذلك: لا تفعل هذا أمامي، كان الطريق يمضي بسرعة البرق، نعم. ما هو السؤال بالضبط؟

سأجيبك بطريقة جديدة، سأقص عليك الأشياء كما وقعت، أسئلة وأجوبة، كلام مرسل.

أنت تعرف أنني أبحث عن إجابة مثلك. كنت لما أزل في كامل طاقتي غير أن ما حدث قد حدث بالفعل

لكن أشياء صغيرة لا أعرف من أين جاءت، من أين جاء السؤال عنها، من حملها إليّ؟ ما معني هذا؟

كيف لا أعرف الجواب عن أشياء صغيرة؟

هل كنت هناك حقاً؟ بلي، كنت هناك، وإذا كان الأمر كذلك فما

fb/mashro3pdf

معني سؤالي؟ لا. لم أكن مريضاً ولا مسافراً، هذا يقين، وهي قالت لي: لا بأس.

كانت مارقة في الجمال، والوقت أشبه بقيامة، غير أن ما حدث قد حدث بالفعل. أتذكر الوجوه التي تحملت طاقة أعماقها. حتى مقولة الخالة أتذكرها: يا رب هذا إختبار فوق طاقتنا. أتذكر الأم التي استوت على مجامع قلبها وصرخت ملتاعة «يا أمي»، الأب الذي توزع في مجاهل الذهول. قلت لك: لقد كنت هناك. كان رأسي يدور أسرع من الفكرة، أقمار بلا حصر كانت تتهاوي، ترتيبات تمر على الذهن المصقول كماسة.

قال لي أحدهم: تماسك يا بني. صرخت فيه بمرارة واسعة: وماذا أفعل الآن إذن!

ثم دخلت في مدار غربي جديد، كانت طيور كثيرة أشرت لها بالانصراف، فغادروا من الأبواب والنوافذ.

كنت هناك. لقد مكثت أنا والبحر ساعة. ربما تقول: أي بحر؟ أقول لك: هو البحر الذي استسلم تماماً بين يديّ لحظتها.

fb/mashro3pdf

أنا خائف ومضطرب. انه يهدم كل الأشياء. الموت يا أخي ليس مشكلة الموتى. ثم الزمن: آفتي المرعبة. كان الوقت عشاء. لا. قبل ذلك بقليل. لحظة الغوص، زمان انسحاب النهار، ودخول الأسود في المجال. كنت هناك. قبل كل شئ لا أعدك بشيء مما تظن، وعلى هذا فكل النتائج هي أنا. لقد عرفت العجز منذ ولدت، حلقت مرات قليلة في فضاءات متقنة، غير أنني دائماً كنت أعود. لا سبيل إلى الفرار من الجاذبية. تذكر أنني خائف ومضطرب. ما قيمة كل الأوصاف؟ جبان، ضعيف.... الخ. من قبل شاهدت المشهد مرات كثيرة. هذه المرة كان المشهد هو: هو. غير أنه ثقيل وحاد. ما الذي تغير إذن؟ هل لامس النصل مكاناً أكثر هشاشة؟ فوجئت بالحدقة الشاسعة! خمس سنوات مرت على تلك اللحظة.

تُرى أين تذهب التفاصيل؟

هناك مساحة من الزمن لا أعثر عليها الآن. متى ألقاها؟ آه تذكرت. كم حقنة فورتاكورتين وضعت في المحلول لتحرك الحياة درجة واحدة. قيل أن (ألف سم) لتر كامل يارب دون أن يتحرك النبض ولو قليلاً. لم نكن نحارب في الهواء، وكانت شاحبة ومشعة. فكرت: ماذا سأفعل؟ وأجبت على نفسي بالبكاء. قبل الوصول بكيت، قبل الهبوط بكيت. حتى قبل طلوع السؤال، قبل بلوغ المدى. ثلاث مرات في ليلة واحدة. على الطريق المنحدر ذهبت وحدي، عاينت التربة جيداً، اخترت المكان على الربوة، قرأت كل التفاصيل.

fb/mashro3pdf

وحدي في لحظة أخرى. لا أعرف الوقت متى كان تحديداً، غير أنني حفظت اللوحة جيداً، تمددت على ذات السرير البني. وحدي كنت. يممت وجهي للحائط المغطى بالستائر البيضاء، وجهي فقط، تخيل أنت هذا. ينام وجهك في مكان، ثم لا تعرف أين يذهب باقي جسدك. لكن وجهي يستدير للناحية الأخرى، هل تصدقني؟ حتى إن لم تفعل. ماذا يهمني؟ ورأيت ما رأيت. مرة، ثم مرة أخرى، ثم مرة ثالثة وأخيرة. الآن فقط يرتد وجهي إلى باقي جسدي وإلا كيف وجدتني واقفاً على الأرض، لابد من قدمين، وتحركت مسرعاً، كنت لاهثاً ومختنقاً، لم أتلفت ورائي، ولم أكن أستطع. هاهو الباب. سحبته بعنف يليق بخائف ومضطرب. خرجت. خرجت، هل تصدقني؟ حتى وإن لم تفعل. ماذا يهمني؟.

fb/mashro3pdf

-٣-

كل شئ كان واضحاً كأنه يجري في وضح النهار، فيما كان الليل هو الذي يلون أرجاء اللحظة. وجهة الغريب. أتريد أوصافاً؟ لحظة خاطفة، غير أنها كانت كافية وساحقة. تري من أي بياض خارق كان ذلك الوجه؟ الوجه الأملس المستدير، الجاف، الحاد، الراسخ. بارد ومصقول. منحوت من ماذا بالضبط؟ عينان صفراوان في حدقه شديدة الاستدارة.لا رموش هناك ولا أهداب، لا تحيد النظرة ولا تفتر. كأنها لوحة من حجر. ماذا تقول النظرة؟ لا شئ. لا شئ محدد، أو كل شئ. كيف لي أن أعرف؟ المتعبون ينامون. الخائفون لا. أغمضت عيني، فتحتها مرة أخرى. ليس الحلم بأقل ضراوة من الواقع. أنابيب من دم أسود لزج كالقار. لو كان معي عود ثقاب واحد، لو كان العالم كومة قش أمامي. لما ترددت لحظة. المجموع راحة عند الهول. الغطاء لن يحمي قلبك. أقرر. سأحدق مرة أخرى، وأراه. أقرر. هذا كابوس. ليس الرعب ما يمنعني من إضاءة نور الغرفة. كانت مضاءة بالفعل، وكان هو يضئ كل شئ. يعتم كل شئ. أكاد أمد يدي وألمس مكوناته. برودته، ملاسته. لو تمتد يداي إلى عينيه. أي رسالة يحمل هذا اللغز؟ إن كنت أنا المعني بالزيارة فماذا ينتظر؟ وإن كان أحداً سواي. أي أحد. فلماذا هو في غرفتي الآن؟ لقد فرض سطوته على المكان والزمان، كان يلم الحياة المبعثرة حولي. من الغرفة. من الحوائط. من قلبي المرتجف. كأنه يعرف أنني لن أعود قط، لا إلى البيت، ولا لتلك

fb/mashro3pdf

الحوائط، ولا لهذا السرير البني، ولا لأي جهة كانت. وجهه الجامد، ربما كان من الحسرة، ربما كان من الدهشة لوجودي هاهنا. كان الهاتف يصرخ ساعتها. كانت تئن على طول الأسلاك الرفيعة: لماذا أنت هناك؟. آه لماذا حقاً أنا هنا؟ هذا جزء من السؤال. كيف كنت هنا وكيف كنت هناك؟ متى انشطرت، ولم اعرف؟ ومتى تجمعت مرة أخرى (ناقصاً بعض الأجزاء). أعرف ماذا ستقولون: تنهد الصافي طويلاً. الصبر. الصبر. الله يعطي. الله يأخذ. الله يفعل ما يشاء. كن رجلاً يا أخي. قال الصافي: كاذبون. لا معني لهذه الكلمات. لن أكون شيئاً قط. ما نفع أن أكون أو لا أكون؟

fb/mashro3pdf

-٤-

الحلم: لحظة استسلام الجسد لغياب مؤقت. أنا أكره الأحلام، فروحي غير مرحة. إذ أنها حين تغادر أسوار جسدي وتذهب إلى حيث لا أعرف تعود لي ببشائر الحياة سريعاً.

أخي على الهاتف يقول أن والدنا قد اتصل به حالاً. كان مجتمعاً هو والأخوة جميعاً ويبحثون عني. سألت: لماذا؟ قال أخي أنه موضوع قارب على الانتهاء. كان يريد حضوري ذاك الاجتماع. شعرت بالغضب. ليس هناك حاجز يفصل بيني وبين أبي. والأخوة؟ أي أخوة يقصد؟ نحن نتلامس كالكواكب السيارة كل ألف عام مرة. ثم إن أبي لم يحدثني عن أية موضوعات. أعرف أن أبي يحبني. ذلك ظاهر للجميع. الحب في زمان بعيد لا يبقي هو الحب دائماً. الحب كائن يطرأ عليه ما يطرأ على الكائنات. حين أسرعت إلى المنزل الريفي الذي يقطن فيه أبي. ركضاً على قدميّ، لم ألتفت إلى معالم الطريق، كنت أحفظه جيداً. فقط آلمني الدخان الكثيف في رئتي. هل كان هناك حريق في الجوار؟ هل كانت السجائر القديمة؟ لم أعرف. حين أزداد الدخان كثافة وجدتني مضطراً للسعال. يا الله. كان جافاً وكذلك كان حلقي. عندها فقط صحوت. كأنني كنت نائماً أو ما يشبه ذلك. كان جسدي متألماً. وخز في واجهة الصدر، وأعلى الأكتاف، في هذه اللحظة. شاهدتها ـ روحي ـ كانت شاحبة ومجهدة، كأنها قادمة من سفر طويل. آني لي أن أعرف أو حتى أخمن أين كانت تجول؟ وماذا كانت تفعل؟

fb/mashro3pdf

كانت تطرق أبوابها للدخول إلى البيت. ربما هذا هو سبب الألم الذي أشعره في جسدي. دائماً هاهنا. وخز في الصدر، وأعلى الأكتاف. حيث اعتادت أن تخرج أو تعود.

اعتدلت في مكاني ببطء. وجدتني في ذات المكان الذي كان ينام فيه أبي. بالضبط نفس الليل الأسود. نفس الأحلام التي تأتي وتذهب لكل البشر، نفس الصمت المراوغ، والمحمل بمعان وظنون لا تحصي.

بعد الرشفة الأولى من كوب الماء. تذكرت. هذا الهاتف لا يعمل أصلاً، وإذن كيف اتصل بي أخي؟ مع أنني رأيته بالأمس مصادفة ولم يجر الحديث بيننا عن أبي أو عن أي شئ أخر ـ كالعادة ـ ثم كيف لا تعرفون ما أعرفه؟ ما أعرفه يقيناً تاماً لا ترقي إليه أدنى درجات الشك. كيف لا تعرفون بالله عليكم أن أبي مات منذ أربعة أعوام كاملة؟

fb/mashro3pdf

على أحد ما أن يتحملني. فلقد احتملت كثيراً دون أسباب. لذا سأغوص في الحلم مرة أخرى. الليلة تظاهرت بالنوم. أطفأت الأنوار ثم تمددت على الأريكة الطويلة. شددت عليّ الغطاء. أغمضت عيني لمدة كافية حتى قاربت على النوم بالفعل. توسلت لجسدي أن يصبر على هذه الرقدة. سأراقب ما يجري بوعي يقظ. فجأة أحسست ببرودة أطرافي، دققت حواسي جميعاً. قلت: إنها هي. تبدأ العمل الآن.تشد نفسها كخيط طويل ونحيل (لكم تشبهني) متحجرة وصامتة. نظرت إليّ باستقامة وشفقة. أحسست بنظراتها تهبط على وجهي باردة وخفيفة. أغمضت عيني مرة أخرى. أكاد أشعر أنها تبدأ الآن في الابتسام. حين انتصبت واقفة قبالة الباب الشرقي توقفت لبرهة من زمن. بدونها أشعر بثقل في الحركة، بالخواء. غير أنها لم تغادر بالكلية بعد. مازالت في المجال. لذا أتحرك. أري، أشعر، يخيل لي أن الأرواح بلا متاع قط. فيما بقيت أنا كمخزن مهجور لأشياء غير مرتبة. بدونها ترتبك الأشياء. في لحظة سريعة وباترة قررت أن أتبع هجرة روحي. هذا شئ سهل. فطالما بقيت في مجال حركتها أستطيع أن أفعل ما تفعله. الشيء الهام ألا أخرج خارج حدود تأثيرها. تماماً كالظل وراء الخطوة. هكذا نعرف أن ظلالنا تعرف كل أسرارنا. غير أنها بلا لسان لحسن الحظ. لحظتها. كنت على هيئة غريبة من الملابس. لم أهتم كثيراً، فلن يراني أحد، ولسوف أبصر كل شئ، الغريب في الأمر

fb/mashro3pdf

أنها سلكت الشوارع التي أسلكها في العادة وهي معي. حين وصلنا إلى شارع البحر بدأت الحيرة تأخذني، ماذا ستفعل هنا؟ لي أصدقاء كثيرون في هذه الناحية. أمام منزل من طابقين توقفت. كادت أنفاسي أيضاً أن تتوقف. هاهنا؟ ماذا تريد من هذا المنزل بالضبط؟ كيف عرفت ما لم أصرح به لأحد أبداً؟ وإذا كانت المرأة داخل المنزل، بجوار زوجها وأطفالها. ما العمل في هذه الحالة؟ دلفت إلى الداخل بيسر غريب وفي أقل من لمحة كنت في أثرها. مرقت من البهو الواسع إلى ممر صغير يفضي إلى غرفة بيضاء كبيرة. كانت الغرفة بدون مزلاج ونصف مفتوحة. بدون أن أتوقع تصرفاً غريباً، تراجعت هي للخلف قليلاً. كادت تدهسني فتراجعت مسرعاً حتى كاد الجدار يسحقني، تفحصت الصور الكبيرة المعلقة على الحوائط بثقة فادحة. عاودت السير تجاه الغرفة البيضاء الكبيرة، كأن ريحاً خفيفة دفعت الباب فانفتح بهدوء وسلاسة، بعد خطوتين، وقفت شامخة تتأمل أرجاء المكان، أما أنا فكان العرق قد استبد بي. خفت أن يفضحني صوت لهاثي، فوضعت يدي على فمي، وأنا غارق في الذهول، كان السرير الأبيض يتوسط الغرفة، واسعاً وشبه ملتصق بالأرض، منضدة صغيرة بجوار الركن الأيسر منه، كوب ماء نصف ممتلئ يعتلي المنضدة إلى جوار ساعة تنبيه زرقاء، بينما يرقد هاتف رمادي على الركن المقابل، سجادة خضراء تحتل المساحة بين الباب وواجهة السرير، بعض ملابس متناثرة هنا وفوق المشجب الطويل، دارت حول السرير دورة

fb/mashro3pdf

سريعة، ثم جلست على حافة الجانب الأيمن منه. ماذا ستفعل هذه الروح العابثة بالوجه السابح في ملكوت السبات العميق؟ كانت لولا بقميص أسود شفاف في منتصف سريرها بدون غطاء، تحتضن أكثر من وسادة بين ذراعيها وقدميها. إذن هي وحيدة هذه الليلة. يا لحظ الأرواح. عارية إلى حد الوجع، شعرها المرسل فوق ظهرها وجانب وجهها، يرقد نهداها باستكانة تامة على وسادة قطنية صغيرة.

الوجه الغارق في السكون. شهقات الأنفاس البطيئة. فيما تمتد ساقاها الطويلتان واحدة فوق الأخرى، وبينهما وسادة أكثر طولاً من الأخريات. أحدق في الجسد الرابض في سكون السبات، أحدق في شهوة الروح وعبثها. أشعر بالدم الحار يخترق أجزائي، تتصلب عيناي على انحدار مرمر أبيض في نهاية ظهر تكاد تبين فقراته. لو كنت فارساً نبيلاً لشددت الغطاء الأزرق الخفيف من عند أصابع القدمين ماراً به فوق ربلة الساق الملساء، واستدارة الركبة الناعمة. لتوقفت قليلاً عند الأسود الصغير والذي كان يسطع في أعصابي حريقاً وبلاءاً مقيماً، لأغمضت عينيّ واستعذت من الشيطان، وأكملت ما بدأت في سحب الغطاء على الصدر العاري. كانت المرأة قد استدارت على ظهرها، نائمة لا تدري أو هي أيضاً تواصل حلماً لا علاقة لنا به من قريب أو بعيد، غير أنني أصبحت في مواجهة الأمر من جميع نواحيه، بدأت العواصف في الزئير، تميل القدم اليمنى قليلاً لتهب اللفحات ساخنة ومتخمة. تزداد لولا

fb/mashro3pdf

في الانحناء متقوسة على وسادتها، أشعر أني أسقط في هاوية بلا قرار فيشتد رسوخي الأغبر، من يفعل هذا الآن؟ من يوقف هذا الشطط؟ وقد قارب البحر على ابتلاع شاطئه الغافل، قليلاً قليلاً يستحكم الأمر، ينفتح المدار وينغلق، ويتم الأمر دفعة واحدة، الأمر الذي قامت عليه كل الحياة، ولمَّا تزل قائمة. عريانا أنشد ثوبي المهجور، خجلاً من افتضاض نائمة في براءة الليل. غير أنني موقن ببراءتي. هي التي فعلت ما فعلت. ليس أنا. ها هي تعاود السير من حيث جاءت، وها أنا في أثرها. مبتلاً بنشوتي. لا يعكرني غير اللحظة التي أتيقن فيها أن ماء الصباح شديد البرودة.

fb/mashro3pdf

الخوف

fb/mashro3pdf

-١-

هذه السيدة تخاف. طفلة لم تزل ترعبها الأشياء الغريبة، ولكونها طفلة واظبت على السؤال: كيف لا يخاف الناس من النوم في غرف مظلمة؟

قالت للأم: أنا أخاف لأنني لا أعرف، وظلت تمارس الحياة فيما بعد سؤالاً وجواباً. عسي أن خوفها يجد له ميناء سلام. في البيت الطيني ذو الممرات الطويلة والغرف الواسعة، والأسقف المرتفعة ذات الألواح الخشبية جاءت للحياة. قالت: ولدت مع بداية الحرب الأولى، وربما شربت الخوف من حليب ثدي أمي. تتذكر الضحكات والكلمات الغريبة في طفولة نائية ومبتسرة. تحكي عن سنوات الدراسة الأولى: أنا أمقت الحساب وأحفظ التاريخ.

لا تعرف هي كيف عرفت أن أبويها عالمين مستقلين تماماً. مرتبطين تماماً، وعلى هذا انقسم ولاءها بالعدل لكليهما. تلتصق بالأم برباط يفوق طاقة الفهم: آه كل الناس يحبون أمهاتهم، أنا أكثر من الناس. فيما كان حنانها لأبيها شاملاً غرابة أطواره وأفكاره. رجل يترك الحياة تمضي على هواها، شريطة أن تتركه يمضي على هواه. كانت الثروة والفقر معيارين شديدي الوضوح للعينين الضيقتين اللامعتين.

ثراء أهل الأم من ناحية، وفقر أهل الأب من ناحية أخرى. تتحدث عن فرعها الثري بفخر واعتزاز. حب يتتبع في منبعه حب الأم الراسخ لذويها. فيما كان ولعها بالفرع الآخر يبدو جلياً حين

fb/mashro3pdf

يلامس أحد ما ولو بالنية الحسنة موضع وجع الفقراء. الكرامة. أبداً لم تكف هذه السيدة عن الخوف، ولأنها أكبر الأبناء، فلقد حملت منذ كانت طفلة قلب أم صغيرة للجميع.

في الليل الرحيم الواسع، الخالي من الأنباء السيئة، تجلس أمام لوح زجاج مكسور ـ كان مرايا في عهد قديم ـ ترص أشقاءها أمامها جلوساً على الأرض، ثم تبدأ في قراءة نشرة الأخبار. تدخل الأم فجأة: خالدة. تبدين مذيعة سيئة، ولكنني أحببت أن أعمل كمذيعة.

خالدة معني لاسم؟ أو اسم لمعني؟ هكذا كان أسمها. فيما يكون لمعناها سنوات وسنوات.

fb/mashro3pdf

أنها لآلية عجيبة تلك التي يعمل بها هذا القدر. يوماً ما سيعرف «الصافي» مثلاً: أن بمقدور أحد من البشر أن يلقي حظه ولا يراه. في أغسطس / آب. بعد ست سنوات كاملة على حرب حزيران، صار للصافي واحد وعشرون عاماً. أمضي تلك السنوات الست الأخيرة في المهجر وحيداً يكمل دراسته. هذه طاقة قدر يا الله. سيكون بمقدوره لأول مرة أن يعود في زيارة سريعة للأهل والأرض عن طريق الصليب الأحمر الدولي. ست سنوات كاملة. كل شئ يتغير. شاهد الشيخ ولده أزداد طولاً ونحافة. صمتاً أكثر من المعتاد. يلتف حواليه الأهل والجيران، يسألون ماذا يحدث في المدينة الكبيرة؟ كيف يحيا الناس هناك؟ لم تزل العريش على حالها القديم. ذات صباح يميل إلى الحمرة الرمادية. ربما بتأثير لون بيجاما النوم التي كان يرتديها -ربما لون الحائط الجديد- أيقظته الأم من نومه العميق.

اه يا ولدي. عندنا ضيوف. قم وسلم على أهلك وزوارك.

نهض متباطئاً وخرج للباب الذي يفضي إلي الممر الطويل أمام الحجرات. كان الزائرون يفترشون الوسائد على أرض البهو الأسمنتي، سيدة كبيرة تلتف بملاءتها السوداء وإلى جوارها فتاة وادعة وجميلة.

قالت الأم: سلم يا ولدي. ناول يده للضيوف وأكمل سيرة إلى حيث أراد في نهاية الممر الطويل. عاد بعد أن أغتسل، كانوا على

fb/mashro3pdf

مكانهم. بنظرة فاحصة تيقن أنهم يتفحصونه بدقة وفجاجة. لم يبال بالأمر، لا يخلو المنزل دائماً من ضيوف، وعلى قدوم المساء عاد الشيخ فتهيأ الجميع للقاءه.

بادره الشيخ سائلاً: هه يا ولدي، ما رأيك؟ أجاب: في ماذا يا أبي؟ أمتد صوت الشيخ إلى الأم متسائلاً: ألم يحضروا بعد؟ أجابت بحسم: بل جاءوا وسلم عليهم أيضاً.فكر في نفسه: وماذا بعد أن سلم عليهم؟ قال الشيخ بحنان حازم: أسمع مني جيداً. تعرف كم أحبك، هه؟ أتريد رضاي وراحتي؟ تدخلت الأم: وماذا بعد أن رأي. ليس هناك إلا البطر، البنت في الجامعة مثله تماماً، وأهلها يباركون. بدا الأمر بالنسبة للصافي كمهزلة. جاء للزيارة لا للزواج. فإذا بالأمر كأنه مكيدة، وبدا الخروج من هذا الأمر كالخروج من نفق محترق، قال متعجباً: ولكنني لا أريد، لم أفكر في هذا قط، مازلت في دراستي والغيب عجيب. قاطعه الشيخ: أريدك أن تتزوج صغيراً، أريد أن أري أبناءك قبل موتي، ثم لن تخسر شيئاً قط. سأرتب لك الأمر كله. أسمع مني هذه المرة ولن تندم أبداً. صمت طويلاً، فكر في اللاشئ المحض فيما كانت الزغاريد تملأ المكان، وتقود الخطوات إلى حيث لا يعلم أحد. في مساء اليوم التالي كانت قراءة الفاتحة، وفي الحفل الذي أقيم بمنزل العروس، جلس مرتفعاً بجوار الفتاة التي سعدت بهذا الترتيب الجميل.

كان شهر أغسطس ساخناً كالعادة، وكانت العروس قد أحاطت وجهها بالمزيد من ألوان التجميل كعادة البنات في مناسبة كهذه،

fb/mashro3pdf

بدا له أن الكحل الأسود قد بدأ في الذوبان من شدة الحرارة، مد يده وجفف الأسود قبل أن يختلط بباقي الألوان. يا للجسارة:قالت بنات البلدة. تعجب: أهذا الأمر يرضي الشيخ إلى هذا الحد؟ من هذه؟: قال للعروس؟ كانت فتاة صغيرة ترتدي بنطالاً من الجينز الأزرق، وبلوزة بيضاء نظيفة، وجهها لا يفتر عن الابتسام، فرحة كطفلة، ترقص وتحدق باندهاش، حين دارت بعيونها اللامعة كان ينتظرها من مكانه المرتفع. بادلها الابتسام فعاودت الدوران حول نفسها. ذلك المساء، شاهد شاباً صغيراً يجذبها من يدها ليوقف ذلك الرقص، غادرت المكان بصحبه الفتي الغاضب، وهو لم يعاود السؤال حتى عن أسمها، قال صامتاً: أي وجه يغوص بعيداً دون أن يعرف له أسماً؟

fb/mashro3pdf

-٣-

الاغتراب شعور لا يمكن أن يكون إلا حاداً كنصل سكين. سيترك هذا الشعور أثراً في كل شئ. في ملامح الوجه، في عنصر التكوين. في الأماكن التي لا تخصك تكون أنت أكثر من نفسك. تكون مطالباً بأكثر من وعي، أكثر من طاقة، أكثر من كونك عابراً فوق جسر، وإذ يحدث هذا وأنت صغير فأنت بحاجة إلى أن تتعلم من أي أحد، ومن أي شئ. في البلاد الواسعة الكبيرة عليك أن تقود جهلك الكبير. هنا يا سيدي. العين الصغيرة الوحيدة قادرة على التقاط أدني ذرات الحياة. آه. قال الصافي فجأة: إن لم أهتم بنفسي فإلى أين أذهب؟ لا تكف الفتاة عن الحب. عروسه الصغيرة أم حلم أبيه؟ ها قد أمضيا ثلاث سنوات من الرباط الذي لا يحمل معني. أمعنت الفتاة في التفاني إلي درجة الغيظ. متى تكف هذه الرسائل الزرقاء عن إزعاجي؟ماذا تقول؟ بماذا ستجيب أنت؟ كان يعرف أنه لا فائدة. ثلاث سنوات من العبث، من محاولة إشعال النار في قلب من الثلج. كانت طيبة وجميلة، هذا كل شئ، وكان الحب كما تعرفه درباً لا يمكن أن يصل إلى ذلك الغريب الشارد.

قال الصافي للبحر: حتى بعد مائة عام من هذا الشيء لن يكون شيئاً، لماذا لم يصدقني أبي؟

fb/mashro3pdf

-٤-

لولا: سراب من جسد الحقيقة. كل يوم ستمطر حلماً جديداً. ثمانية عشر ربيعاً هي كل ما تملك. لا أحد يعرف لماذا يولد فقيراً أو غنياً. لا أحد. للفقر ذاكرة قوية. لا مجال للمكابرة. ساطعة وذات سحر.هي عرفت هذا مبكراً. حين أنهت دراستها المتوسطة تقدم لخطبتها كثيرون. كانوا من ذات الفصيلة، ولم تكن في عجلة من أمرها. بحثت عن عمل مناسب. حتى قادتها الخطوات أو الحظ (لا تدري) إلى مكتب حمدان الشهري. رجل يحظي بالعراقة والمال. لا تتذكر التفاصيل حين التحقت بأعمال السكرتارية في مكتب الشهري.

في مدينة صغيرة كهذه تستطيع أن تعرف التفاصيل، كل التفاصيل في جلسة واحدة على كوب شاي مع أي شخص كان. لا توجد هناك أسرار غائبة. للرجل مشاغل كثيرة وأعمال متناثرة هنا وحتى خارج حدود الوطن. ودود ومرح. هل كانت فطرة الحياة؟ أم تجارب الستين عاماً؟ حين لاحظها مرات قليلة بادلها كلمات الإطراء والمجاملة، فتحت عيونها المترعة بالخضرة والتوق على أخر طاقة لحدقاتها. في مرة تالية. سألها تلك الأسئلة المعتادة: من أين؟ أين تسكنين؟ أعملت الحاسوب الدقيق وأجابت بالطريقة التي لابد وأن تترك أثراً. قال: لابد لي من استقرار في هذه البلدة. بحث في عجل عن واحدة مناسبة، كانت النتائج غير مشجعة. حين استدار ذات صباح في بهو المكتب كانت لما تزل تنفث من عيونها ذاك

fb/mashro3pdf

البريق. قال: لم لا؟ قالوا له: صغيرة يا حمدان! قال: وأنا لست كبيراً جداً. في حسم وعزم كان في مساء قريب مع واحد من معاونيه في زيارة لمنزل لولا. المنزل الذي يليق بساكنيه. لكن الفقر لا يمنع أن ينجب جمالاً وسحراً. ارتشف قهوته ببطء وانشراح. مرت من أمامه في دلال وحياء. قال في إحدى المزحات: لو كنت أصلح للزواج لتزوجتك فوراً. أجابت الأم من مقعدها الخفيض وهي تحيك الغزل والأمر معاً. ماذا تقول؟ بل أنت أفضل من ألف شاب من جيل هذه الأيام. واصل الهبوط في الأرض اللينة. هذا رأيك: قال، لكن ماذا تقول لولا؟ فتر فمها عن ابتسامة فيما غابت في صمت مدجج بالرغبة والعزم. هذا المساء تحركت رمال ناعمة كثيرة. لم يغادر حمدان الشهري منزل الفتاة تلك الليلة إلا بعد أن وضع يده في يد عريضة يابسة وقد قرأ فاتحة العروس الصغيرة. كان بمفرده وليس معه من أحد غير واحد من معاونيه، وكان أهل العروس هم كل العائلة والشهود. عمل قطبان متنافران كل ما بوسعهما أن يفعلاه. وحين أتفقا عاد كل قطب إلى دائرته، سيتدفق موج من بحار مختلفة، ستكون تفاصيل بلا حصر، ستلعب الريح في طول المسافة وعرضها.صار الشهري عاشقاً منذ اللحظة الأولى، يحلم بارتشاف جرعة طازجة، فيما كانت العروس نجمة تتفتح في سماء أخذة في الذبول. أحمق من قال هذا. أحمق. لا. لا تصدقهم، وستري.لم تكن لديها أسباب للرفض أو حتى التردد هذه بداية طريق الخلاص. كانت النظرات تؤلمه قليلاً في البداية.

fb/mashro3pdf

ولكنها حياتي: كان جوابه الدائم على كل اعتراض أو تأنيب. قال لها: احتملي قليلاً. أجابت: بل حتى نهاية المدى. حاصرته عيناها بنعيم جديد وحلو. دخل بها دون حفل كبير. لا يهم. ستأتي الأفراح فيما بعد. غرز الرايات في أعماق لدنة ومتفجرة. غاص أكثر وأكثر. تذوق ما كان يظن أنه لن يراه أبداً مرة ثانية. قال: هكذا الحياة تكون. أسلم قياده لروح وثابة، وعاد للعمل. بدأ يصعد الدرجات وفي يده هدية السماء. تتعلم الآن قواعد الحياة الهانئة. ترتدي فاخر الثياب. صار في المنزل خادمات، حملت وأنجبت الأطفال. ماذا يريد أكثر؟ ما أسرع ما ينسى الناس.

بعد سنوات رغدة يداخلها السأم من الجلوس في المنزل الشاهق، قالت لحمدان: جاءني إخطار التعيين. أعمل لفترة قصيرة وأحتفظ بحقي في وظيفة ثابتة، لا أحد يضمن الظروف. لا يعرف الشهرى أن يقول لا. ذات صباح رافقها إلى مقر العمل. التقي أصدقاء وأحباء. أنهى دورة الإجراءات بسرعة تليق بمكانته.قال حمدان: لا تحتاج إلى توصية على هذه البنت، والله لا أعرف لماذا تريد العمل.

أجاب الصافي: بل نحن الذين في حاجة إلى توصية. رفعت عينيها محدقة في وجه المتحدث. مسحت الكائن بنظرة فاحصة، وأجابت بابتسامة غارقة في الغموض. لم يكن لتلك الابتسامة أي معنى. أي خطر كان يفوح في الصمت؟ هذه نذر وليمة فادحة، وانصرفا.

fb/mashro3pdf

الكائن

fb/mashro3pdf

-١-

مم يتكون؟ سيقولون ما عرفوه في الأصل من المقدس. ملايين النسخ المكررة، منذ الأب الكبير إلى أخر طفل سيتم الدفع به إلى المحرقة. غير أن الأمر يبدو شائكاً حين تتفرد هذه الكائنات كل بخصائصه. من أين تأتي هذه الخصائص؟ من الإرث؟ التعلم؟ ملايين الأسباب الأخرى؟ لا يثبت في الذاكرة الكبيرة (ذاكرة البشرية) إلا القليل، ولا يبقي في الذاكرة الأصغر (ذاكرة الفرد) إلا الأقل. لماذا يبقي ما يبقي؟ ربما فرادة المادة (وهي واحدة)، كثافة الحبر المصنوع للدوام، الموهبة التي تسجل في الكتاب، أم ماذا بالضبط؟

حين أنهي الصافي دراسته الجامعية ظن أن الحياة هناك تنتظره خلف أسوار الجامعة. غير أنها لم تكن. كان يعاني التمزق الكبير بين السماء والأرض، السؤال والجواب، المعلن والمسكوت عنه، بين فكرته وطاقته. بين الواجب والرغبة، قال: الوقت دائماً ضيق، وكذلك المكان. سماوات أكثر جفافاً من طين الأرض، لابد من رحيل. إلى أين ترحل؟ ليس مهماً. أريد أن أرحل وحسب. كان رحيله الأول قسرياً. لكن لا بأس، فهذه نتيجة أول رحيل. عندما يعجز عن تحريك قدميه عن موضعيهما، كان لا يكف أيضاً عن الرحيل. في الكتاب. في نفسه، في الآخرين. لم يكف يوماً واحداً عن الحركة في اتجاه الرحيل. حتى وإن ظلت المسافة ثابتة لا تغادر قدميه. هو أمام الكافة نصف مؤمن. ردد طويلاً: الإيمان يعني أن تظل

fb/mashro3pdf

محدوداً. هذا إيمانهم. خالف جميع الآراء واتفق مع نفسه في بادئ الأمر، لكنه أدرك أنه لا يحيا إلا في قلب المجموع.هذا سبب كاف لأن تتعلم الكذب، المراوغة، مره بعد أخرى تتقن حرفة الغواية، استبدال الأقنعة، حياة هذه أم تمثيلية؟ آمن أكثر بكونه حصاه، أينما تلقي وفي أي ماء كان، فسوف تثير الزوابع، آمن أكثر أن لا شيء سيدركه. فهو راحل ولا عتاب على الراحلين. انقسمت الذرة إلى مجرات من التناقض، همس الصافي مذهولاً: كيف اتسق؟ من أي حانوت تباع هذه السلعة الغامضة؟

fb/mashro3pdf

-٢-

في عالم كهذا لابد لك من قاعدة إيمان. إيمان طويل عميق، حتى وإن كان هذا الإيمان نفياً لجميع الحقائق. يُحكى أن بيت الله الحرام، حين شرع النبي إبراهيم في بناءه بأوامر من الله، وبمعاونة ولده النبي إسماعيل، ظل ركن في حاجة إلى حجر ليكتمل البناء، أمر النبي إبراهيم ولده بالبحث عن حجر في الأرجاء القريبة من المكان. طاف كثيراً وعاد بلا شيء. حين عاد وجد أبيه وقد أكمل بناءه، والحجر قائم في مكانه الصحيح. لم يسأل أبيه من أين جاء بالحجر، فهو نبي ولابد أن يعرف. هذه إشارة لا يموت فيها المعني أبداً. ذلك الحجر هو حجر الله.

وبما أن الكائن (هو صُنع الله أيضاً) فلسوف يبقي دائماً في تكوينه حجراً لا أحد يعلم أين يكون أو ماذا تم تدوينه في هذا الحجر. قدره الذي لا فكاك منه، ولا حيلة له فيه. فيما تظل حرية المرء واسعة في اختيار ملابسه، نوع طعامه وثيابه، كتابه المفضل، هذه القائمة من الأشياء التي لا تؤخر ولا تقدم كثيراً من الأصل.

في الشارع المعتم ذو الأشجار الكثيفة، كان يجلس في غرفة الانتظار. مضت ساعتان منذ قدومه للمبني الغائص في العتمة والظلال، في سنوات الجامعة التي بالكاد أنهاها تواً زار هذا المكان كثيراً. مرة للسؤال كمتهم، ومرة كشاهد على متهمين آخرين، ومرات لمجرد اثبات أنه لم يزل في حيازة المكان ومالكيه. من هنا جاءته حالة السكينة والوقار، وهو جالس ينتظر. من رشح القدر

fb/mashro3pdf

الصلب، جذور الإيمان بعدم الجدوى. بغتة جاءه الفرج.

جاءه جندي بملابس مدنيه ليصحبه للقاء المسئول. نهض خفيفاً كمن زال عنه هم. نفس الطقس المعتاد. صعب أن تتغير الأحجار المقدسة، نحن في بلاد يتقدس فيها الحجر منذ الأزل. ظل واقفاً حين دلف إلى الغرفة أمام مكتب السيد المسئول، يعرف أنه الضابط جلال. لكن لا أحد يناديه هنا باسمه أبداً. الرجل الجالس خلف المكتب يتشاغل بتقليب الأوراق ونقل ملفات من يمين المكتب إلى يساره، منهمك في العمل. لم يرفع عينيه ليري القادم. حين يمر الوقت المحسوب (الذي يقرره ويحسبه الضابط) ينطق بصوت هادئ ورزين دون أن يرفع حتى عيناً: ثم ماذا بعد؟ يلتزم الصافي صمتاً أضافياً. فيعاود الرجل الحديث:

ماذا تظن نفسك يا ابن الكلب؟ لم تتعلم شيء. جامعة للقمامة التي منحتك شهادة التخرج. هة؟ زنديق وابن كلب، نعرف. نعرف حتى قائمة المومسات التي تسكن رأسك، حانات البحر بأسرها تشهد أنك لا تعرف الله. زملاءك أكدوا هذا، أخر المطاف صرت خطيباً في الزوايا. تخطب من فوق المنابر وتتحدث عن الجهاد، أي جهاد تقصد يا ابن الداعرة؟ هه؟ حدثني يا صاحب الفضيلة عن الجهاد.

أجاب الصافي بوقار بعيد: لم أخطب في الزوايا. دخلت لأداء الصلاة مع. قاطعه الرجل بعنف. صلاة! تريد أن تحرق دمي يا حشرة، تدخل الزاوية مع سائح لأداء الصلاة؟ ماذا تظنني؟ صلاة. بماذا توضأت؟ بيرة من حانة أم هالة؟. رد الصافي: لم أتحدث عن شيء.

fb/mashro3pdf

سأل الرجل بعد أن عاد للجلوس على مكتبه: إذن ماذا قلت؟ وعندي شهود وراء هذا الستار. قال الصافي: قلت أن الحياة باهظة والاستمرار على هذا النحو جهاد إن لم يكن أكثر. قلت أن الخطباء الرسميون يزورون المعني. أشار الضابط بيده أن يكف عن الحديث فتوقف الصافي، فيما نهض الرجل واستدار خلفه ثم وضع راحة يده على كتفه الأيسر ثم هزه قائلاً:

اسمع، لا وقت عندي لأمثالك. مللتك ومللت الكلمات التي تحفظونها. أغبياء ولا تعرفون شيئاً. ثم ماذا تريد أنت بالضبط؟ لم ينتظر جواباً ولم يكن بحاجة إليه، وواصل الحديث: أنت تعرف ماذا بوسعي أن أفعل. هز الصافي رأسه بالإيجاب. رد هامساً: لن أصلي ثانية، ولن أتحدث قط. لا: قال الضابط. بل ستوقع اقراراً نهائياً بأنك خارج عن نطاق هذه الأوكار، وأنه لو عدت مرة ثانية إلى هذا المكان فلن تر وجه الشارع أبداً. لن يكون لك على أرض هذه البلاد شبر تأوي إليه. وقع الصافي على الإقرار بسكينه واستدار للخروج. من قديم وهو لا يكف عن الحديث مع نفسه. قال: ربما المرة القادمة يتحقق الحلم وأرحل. لم يشعر بحزن أو غضب، كان شيء كبير يذهب في الظلال البعيدة، نجم يخبو في قاع بلا قرار. كان الحجر المقدس له فعل السحر في الموقف العارض. حين لاقي هواء الشارع يلفح وجهه تنفس بارتياح. لن أري الشارع ثانية؟ حتى الشوارع يا أخي. يمم بخطواته تجاه البحر القريب. نظر إليه ملياً وأبتسم: أظنك أخر من تبقي يحفظ السر ولا يبوح. سار طويلاً حتى وصل إلى الكرسي

fb/mashro3pdf

العتيق الأزرق. كانت أم هاله نائمة فيما باب الحانة نصف مغلق. جلس بعض الوقت. أمامه ساعة من السير الهادئ حتى يصل إلى سريرة المهجور في شارع بركات. في واحدة من نوبات صحوها. قالت أم هاله: عدت متأخراً. أجاب: ليس ذنبي. قالت: أنت لا تذنب أبداً. عاود النظر إلى البحر: هل تعرفين يا أم هاله. هذا البحر نفسه يصل إلى أبي وأمي وأخوتي! قالت: تريد أن تشرب أم سترحل. جذب خطواته إلى الدرب.وقال: سلام.

fb/mashro3pdf

-٣-

البرقية: حروف قليلة تخفي وراءها جبال من القول. نملة تحمل فيلاً. غمام رقيق يستر الجفاف القاحل. عام النهايات هذا؟ نهاية الرسائل الزرقاء، ونهاية القصة بأسرها. قبالة بعضهما البعض،ورمل الشاطئ ينغرس في الأصابع المبتلة. فجأة رنت بالأهداب السوداء إليه: صافي. لماذا لا تحبني؟ أجاب صامتاً. فواصلت: فعلت من أجلك ما لم تفعله امرأة ولن تفعله. ماذا ينقصني؟ قل لي مرة واحدة صريحة بماذا تحس تجاهي؟ يوماً ما سيكافئك الله على ما فعلت معي. ثلاث سنوات يا أخي. ماذا تبقي كي أقدمه أليك فترضي؟ كذاب ومراوغ. لماذا لم تقل «لا» منذ أول الطريق؟ حتى أسماء أطفالنا تحدثنا عنهم. ماذا؟ واحدة أخرى في حياتك؟ من هي؟أقسم لك سأنتحر، وأظل كابوساً يطاردك بقية حياتك. اكتفي بالإنصات الطويل، تبسم قليلاً، فر إلى المثلج ووجبة العشاء. كانت قد أنهت دراستها ورأت أن الأمر لا يمكن الوقوف أمامه دون خطوة للأمام. لم يكن مستعداً ولا راغباً. قال:فيما بعد، وهي قالت: الآن أو لا. لم تجد وسيلة أنجح للضغط عليه سوي إرسال خطاب طويل لأبيه لتنفيذ ما رأته ضرورياً في هذه المرحلة. أسابيع مرت من انتظارها للعون العاجل، وهو لاهِ يستعد لخطوة حياة مجهولة.

من بريد (عمان) جاء الجواب. برقية صغيرة وبسيطة،

كم كلفت يا تـرى؟ غير أن الأمر كان يستحق، تسلم البرقية في صمت جميل، وهي كانت تنتظر التأثير المعجزة. لم يبد

fb/mashro3pdf

حراكاً فتدخلت لفض حاجز الصمت. ماذا يريد أبوك: سألت. لا شيء: أجاب. كيف لا شيء. لماذا أرسلها أذن؟ أمعن في الشطط: يريدني أن أكون بخير، وأن أرعي نفسي جيداً. كان صبرها ينفد، قالت:أرني إذن. في برود القاتل ناولها الورقة الصغيرة. قرأتها بثقة وأضافت: قلت لك. ما تفعله لن يرضي أحداً. ماذا سيقول الناس؟ أجاب بهدوء: الناس دائماً يقولون ما يحلو لهم؟. وأنا؟: سألت. أنت ذاهبة إلى الأهل والأسرة، لا يضيع المرء في قلب أهله. وإذن؟ ماذا ستجيب أبيك؟ قال: لن أجيب على أحد. لا أريد أن أكون فظاً. هذا يكفي. غير أنه سيجيب، لأول مرة سيقول ما يريد قوله، حين تمتد الأغلال إلى الروح ماذا يمنع من صرخة؟ في وجه الرسائل الزرقاء، في وجه أبيه، في وجه العالم قاطبة. ماذا سيخسر؟ هو المتأنق يعرف أن كسوة الحقيقة الموجعة بوبر من حرير لستر عورتها لن يفيد. سيجيب على البرقية:لا أريد زواجاً، ولا أهلاً، لا ميراثاً ولا حتى عودة. حتى العودة لا أريدها. لا. هذا ليس الحب. ورسائلك الزرقاء لا أريدها. بكت وهي تغادر المدينة، وفي طريق الإياب يشعر بالخفة والرضا، قال متنهداً: أما من صديق يارب؟ في الليل على شاطئ البحر وحيداً. في ذات مكان الأمس حين كانا سوياً. سيشرب الليلة بمفرده، وليكن. من صدره أطلق طيوراً مأسورة. لماذا أندم؟ لم يكن هناك شئ. قال: لو كان أسمها موجوداً في الحجر المقدس، غير أنه لم يكن. هذا يقين. لماذا الشوارع ودودة هذه الليلة؟ الناس طيبون على غير العادة! الليل

fb/mashro3pdf

رحيم ودافئ. يسري الشراب إلى أبعد الذرات فيحيل الجسد إلي آلة نشوانة. يمضي إلى أين؟إلى أين؟ سؤال غريب يدفعه للضحك الصاخب. اقتربت فتاة الحانة وقالت: منذ سنوات لم تشرب هكذا. كيف ستعود إلى بيتك؟ قال: لماذا أعود يا فتاة؟ لا أريد العودة. قلت لهم أيضاً، وها أنا أخبرك. لا أريد أن أعود. أنا باق إلى أخر الزمن. قبيل الفجر عاوده الحنين. نحن قريبون من الزاوية. ماذا لو يذهب ويصلي الفجر! الفجر الذي تشهده الملائكة. يريد أن يتحدث مع الملائكة هذه الليلة، ما هذا الألق النوراني يا الله؟ يا الله حجرك يلمع في النبيذ. لكن ماذا لو رآني أحدهم؟ لقد وعدت بأني لن أفعل. لا بأس. هذا أيضاً من الوفاء بالعهد. لماذا شرابكم ينفد بسرعة البرق؟: سأل الفتاة التي أوشكت على مغادرة الحانة. قالت الساقية: هذا يكفي. أجاب: لن أشرب إذن، ولن أذهب للزاوية، ولن أعود إلى أحد. في غمرة الغوص إلى مناطق لا يصلها إلا المسافرون أشار للساقية قائلاً: أنت تعرفين. هذا يكفي، وكمن يبوح بسر دفين واصل: أنا من قبيلة بعيدة، كما أنني لن أذهب إلى أي مكان، ورغماً عن هذا سأصلي يا فتاة. أنا أعرف كيف أصلي. تعرفين أيضاً، الله يعرف كل شئ، ويعرفني جيداً، بيننا علاقة لن أبوح بأسرارها. ربما لا تعرفين هذا الشيء. لم أستطع البكاء على شئ لا أحبه. يوماً ما حين أكون جيداً بما فيه الكفاية سأروي لك عن الحب. الحب: هذا الشيء الذي اختلط إلى حد الضياع. لكن كيف سأعود إلى ذلك الجحر؟

fb/mashro3pdf

لا أحد يقود الزمن. الزمن يمضي على هواه. تريد التحليق بعيداً؟ إذن غص أكثر في هذا القاع! صرخ الشاويش المعلم: هكذا يا بني. هكذا. اقبض جيداً على جسد السلاح، اجعل كل حواسك هاهنا. ليمر دمك حتى قبل نظرك من خلال هذا الثقب الصغير. قال سراج: الدنيا كلها صارت أضيق من هذا الثقب. هنا أنت في رقعه من أرض هذا الوطن. تتعلم كيف تكون محارباً للدفاع عن الوطن. لماذا هنا بالذات؟ حتى اسم المكان غير حنون

ـ وادي الجن ـ الركض لساعات، العرق اللافح، الطعام الرديء، الوقت الثقيل البطيء، المعاملة الجافة الصارمة. لأجل أي شئ يتعذب الحلم؟ الوطن. الوطن. كأن الوطن هناك فقط. الوطن ليس نحن، نحن مختلفان ولا يجمعنا سوي الليل والأغاني. قالوا للجاويش حين أراد أن يفعل ما يشاء باسم الوطن: ماذا تظن؟ ليس التراب ولا السماء، ولا الأناشيد ما يشكل روح الوطن ومعناه. حتى ليس التاريخ،تلك الأرقام والحوادث التي لا تعرف بالضبط كيف جرت. الوطن أيها المعلم شئ أخر يملكنا ونملكه، وغير هذا فلا تعرف رائحة الوطن إلا في الإجازات الصغيرة، على ساحل البحر، في مقهى صغير، في خرافات عرافة تأكل قوتها بالدجل، في زحام الأجساد في ترام الرمل، في ملايين التفاصيل التي لا يعرف عنها صانعوا المراسيم شيئاً. حين تصعد مراكب الشمس إلى أفلاكها

fb/mashro3pdf

الملكية، نعود نحن إلى سراديبنا السوداء. كأننا منذ فجر التاريخ على سفر مضاد. غير أننا نلتقي في مناسبات كثيرة. في ميادين القتال، في الأزمات التي تحتاج إلى صبر واحتمال، في المناسبات السعيدة المباركة حين يحصدون الأوسمة ومجد اللحظات، ونسارع نحن إلى مراكز التأهيل وإعانات الإعاشة. فليعاود الجاويش الصراخ: أسرع. أسرع. هيا، وفي المساء الذي يلف الجبال كطوق من حديد، يدرسون الحالة المعنوية والميكانيكا. قال للجاويش: لن أفهم شيئاً في الميكانيكا. هكذا أراد الله. أما حالتي المعنوية فحدث ولا حرج. في القمة يا جاويش. يدرسون كيف تجعل المرء يبذل روحة عن رضي وقناعة. آه. أسرع. أسرع. في أيام من هذا الطراز يتسرب الروح الحزين إلى القلب، لن تسحبه كل التعاويذ والبيانات السعيدة، زادت الهوة بين الرأس والذيل.

قال جمال: متى نطير يا أخي؟ غير أن للتحليق أوان معلوم، وللزمن حساباته الخاصة.

fb/mashro3pdf

كان الصوت بعيداً: ألو. ألو، ويجيب: نعم يا سيدي. هل تتذكر هذا الصوت. هه؟ ينتابه صمت قليل، يفكر حائراً ومندهشاً. يواصل الصوت البعيد: أعرف أنك نجس وابن كلب. يقاطعه على الفور: نعم يا سيد الكاذبين، فاشل طول عمرك يا درويش.

tيسأل الرجل: متى تنتهي؟ كيف حالك؟

أجاب الصافي: ثلاث سنوات ونصف تريد جوابها في اتصال سريع. أنت. كيف تمضي الأمور معك؟

لا شئ. أشرب أكثر، أدخن أكثر، أعمل أكثر. كل شئ أفعله هاهنا مضاعفاً. حتى النقود مضاعفه هنا. متى تنتهي؟ قال الصافي: كيف أعرف؟ أنا بلا نهاية يا درويش لا أعرف على وجه التحديد. يقولون قريباً. دائماً يقولون ما يشتهون ونحن لا نعرف شيئاً.

إذن استخرج أوراقك اللازمة، ترجم الشهادة الحزينة، آه يا أخي. شهادة الجامعة ليس شهاداتك الأخرى. لن تحتاج إليها هنا. كان درويش أبو حمده قد خرج مباشرة بعد التخرج للعمل بالإمارات، توفرت له وظيفة في بنك مرموق. ولأنه لا يجيد سوي العمل ولم يكن هناك بديل سواه، فلقد أبلي بلاءاً حسناً في عمله الجديد ونال مكانة وأجراً لائقين. قال: لقد حصلت لك على عمل جيد بذات البنك، فقط. أريد الأوراق وتحديد الوقت الذي تكون فيه جاهزاً للسفر، قال: لا عليك من المصروفات وتذكرة الطيران، فقط ثلاثة

fb/mashro3pdf

أشهر وعشرة أيام هي كل ما تبقي من زمن لتخرج حراً إلى حيث شئت. حتى إلى جهنم لو تريد. كما صرح له قائد الوحدة ذات صباح وأضاف: حتى هناك في جهنم، لن تعرف كيف تزيل هذا القلق. في واحد من صباحات يناير الباردة، تقرر اليوم الذي سيكون أخر عهدهم بالملابس الرمادية الداكنة، بالوقت الذي كان يمر عبر أسلاك الدم قبل عبوره على نتائج الحائط أو في دفتر التواريخ، وفي الحفل البسيط الذي تم عمله بمقر القيادة حصل الصافي على براد شاي كهدية بحسن الأداء للواجب، صافح الزملاء والأرض الشاسعة، ألقى بذاكرته على النصب الطويل الشاهق وآلاف من التفاصيل الدقيقة. مالا يحصى من المرارات. بيد أن شيئاً كالحلم كان لا يزال يدق في الصدر الذي اكتظ بالتوق إلى الرحيل. ذات المساء توافد الركب على حانة أم هالة. كانوا جميعاً هناك، حتى الذين يتحرجون من احتساء الماء الصرف. الليثي، رشوان، وصبري. كيف لك أن تحصى دقات القلب؟. كانت الليلة واسعة بما فيه الكفاية، اتسعت حتى للضحك الماجن، والدمع الهستيري، قال ربما بعد كأسه الرابعة: سنمر في أكثر تجاويف الأرض وعورة غير أننا سنصل إلى مشتهانا. لن نموت سدى، أتحدث حتى عن نفسي، لن يقتلني يا أولاد الكلاب سوى الحب. هذا وعد مني لكم. أحبكم. أحبكم جميعاً إلى درجة المقت، إلى الحد الذي أتمنى ألاّ أراكم ثانية أبداً. يصرخون: بل ستراناً. يجيب: في الأحلام. بين أكواب البيرة المثلجة والسجائر الزرقاء وضحكات الليل، تتشعب الطرق

fb/mashro3pdf

تحت الأقدام. قالت فتاة الحانة: هذا أوان الذهاب. متى ترحلون؟ عما قريب يا بنت. يحملون الفتاة بين سواعدهم ويقذفوها إلى أعلى في الهواء وسط فزعها وصراخهم، الآمال تدنو! أرتدي العراقي سترته وهب واقفاً. لنذهب: قال. مع أول تباشير الصباح إنداحوا على الدروب المختلفة. حبات ندى تتقاطر على أسفلت أسود. ربما كان الهواء بارداً قليلاً لكن اليقين أن تلك القلوب ذهبت مضطرمة ومترعة.

fb/mashro3pdf

-٦-

لكم تمنيت هذه المهنة. آه. ساعي البريد. لقد رآه بالفعل. كان يدق على باب المنزل المجاور في الطابق الأول من شارع بركات، غير أن أحداً لم يستجب. اتجه إلى الدرجات القليلة الهابطة إلى رصيف الشارع، خرجت من الباب العلوي سيدة جفلة، عاد الرجل ليسأل فتجيبه بأنها لا تعرف شئ. من أين يجيء للناس كل هذا الارتياب في كل ما هو رسمي؟ مرة أخرى عاد إلى بحر الشارع وبيده سلة صفراء جلدية، بها أكوام من الخطابات والأوراق. على ناصية الشارع محل يبيع الخبز، سأل صاحب المحل الرجل: ماذا تريد لعلني أساعدك؟ أجاب بضجر: أريد أحداً يدلني على صاحب هذا الخطاب أو أن يتسلمه بدلاً منه، وذكر الاسم الضائع. في الحقيقة أنه ليس خطاب هو إخطار يتوجب على صاحبه الذهاب إلى مقر البريد لاستلامه من هناك. تساءل «القُط» صاحب المحل: استلام نقود؟ جاوبه الرجل بمزيد من الضجر: لا أعرف، من أدراني؟ قال فتحي القط في نفسه: ماذا سيكون! أي إخطار ينتظر هذا البائس. عزم الأمر في نفسه وقال للرجل: هات. لكن ساعي البريد يريد توقيعاً بالاستلام. القط لا يقرأ ولا يكتب. يكتفي الرجل ببصمة اليد ويذهب كمن تخلص من لعنة ثقيلة. حين عاد الصافي في المساء بادره القط بالإعلان. إن كانت نقوداً فسدد دينك يا أخي. أجاب الصافي وادعاً: وإن كانت كارثة!

fb/mashro3pdf

قال القط: هنيئاً لك إذن.
في مقر البريد، قدم الصافي الإخطار مصحوباً ببطاقة التعريف الشخصية. ناوله رجل من وراء حاجز زجاجي معتم رسالة صفراء دميمة. على باب المقر شارع عريض يشقه ترام صغير قديم. على الناحية المقابلة تجاه البحر مقهى البورصة القديم. أراد أن يشرب شاياً ويلهو قليلاً مع نفسه الضائعة. جلس على طرف المقهى كعادته. دائماً يحب الأطراف، وبدأ الحوار الذي لا يسمعه ولا يشارك فيه سواه. قبل أن أفتح الرسالة. ماذا تتوقع أنت؟. جاوبه أحدهم من داخل غابة متشابكة: ربما حوالة بريدية بثلاثة جنيهات اعتاد المهاجرون أن يتلقوها من محافظاتهم بمناسبة الأعياد السعيدة.
هب أخر معترضاً: بل هو استدعاء لأداء الخدمة العسكرية. لم يعجبه هذا الخيار فاضطر إلى النطق بصوت مسموع: سحقاً لك وللخدمة.
حين طاف علي الذهن المكدود وجه درويش أبو حمده، قابل الحلم بالابتسام. هكذا يكون التوقع. تذكرة طيران للسفر. لكن الرسالة لا تحمل طابعاً من خارج البلاد. إذن ليس هذه المرة يا حلم، وهو يرتشف القهوة المرة قرر: إن كانت نقوداً كما يقول القط سيذهب إلى بائع الكتب والمجلات على رصيف الرمل ويشتري العدد الأخير من الآداب، سيواصل السير كالعادة على شاطئ البحر، ماراً بمقر الكلية من الخارج ولا مانع من إلقاء نظرة عطوف، بعدها بقليل سيكون قد وصل إلى حانة أم هالة سيحتفي بذاته وحيداً هذه المرة. في أخر الأمر قال لنفسه: ماذا تقول الرسالة يا

fb/mashro3pdf

حجر الأقدار؟. قص المظروف الأصفر وقرأ أنه في غضون ثلاثة أيام عليه أن يتوجه إلى القاهرة حيث مقر المحافظة هناك ويقدم أوراق اعتماده موظفاً يافعاً في الجهاز الحكومي العتيد. إذن تم اختياره للعمل في الأرض المحررة حديثاً. موظفاً. هكذا إذن؟ ومتى إن شاء الله تصل تذكرة الطيران؟ بعد قليل. لا بأس من الانتظار بعض الشيء. لتذهب للعاصمة أيها الفارغ النذل، كحل عينيك بغبارها، تسكع في شوارعها بشعورك المعتاد من الذهول والسخط. بسؤالك الذي لا يموت: كيف يعيش الناس ها هنا؟

أنت تعرف: في العاصمة ليس سوى النيل والليل. قبل أن يعاود السير من عند السيدة الكريمة حصل على ثمن تذكرة السفر بالقطار مع وعد بالسداد من أول مرتب يتقاضاه. قال لها بمودة: لا شيء يضيع يا أم هالة فقط واظبي على التسجيل في دفترك العتيق، والمدهش في الأمر أنه المحاسب الوحيد الذي تأتمنه على هذا الدفتر.

fb/mashro3pdf

-٧-

في الجزء الجنوبي من الجزيرة، تنام رأس سدر على صدر الخليج الداكن الزرقة. مجموعة من المباني القديمة قبل الحرب، خليج غارق في النسيان، تكاد المياه أن تكلم نفسها من كثافة الصمت وبراح المدى. قبل أن يصل إلى هناك كان قد ذهب للمقر الرسمي بالعاصمة. هناك ألتقي «الفاضل» من بيده الأمر والنهي. في أول مقابلة معه قال: ستذهب إلى هناك، ضمن المجموعة الأولى التي تصل الأرض المحررة. هذا شرف لن تنساه أبداً.

تساءل الصافي: مع من سأعمل هناك؟ أجاب الفاضل: مع من تجده هناك. لا نريد لهذه الأرض المقدسة أن تعاني الفراغ من جديد. كان الذهاب إلى هناك يتضمن إجراءات صارمة، تصاريح بالمرور، مرافقة ضباط اتصال، مواقيت محددة لعبور الأفراد على لنش صغير. قالوا: سينتظرك مندوب الإدارة فلا تقلق. ردد لنفسه: لماذا أقلق؟ حين وطأت قدمه أرض السويس، كان الأفق غارقاً في الذكريات، الهواء لم يزل مشبعاً بروائح البارود. كل جسد المدينة كان مفتوحاً. الشوارع، والشجر الأسود، الأرض المحروثة بالدم والحديد المعجون. في هذا الصباح كل شئ كان أسود. حين عبر القناة برفقة الضابط ونفر قليل من الناس، في أول اتصال بينه وبين الأرض الموعودة. سأله الضابط: قلت أن أحداً ينتظرك. جال ببصره في مدى الرمل المحصور بين الماء والسماء، لم يكن

fb/mashro3pdf

هناك غير رجل نحيف أسود، يرتدي عمامة بيضاء فوق بنطال أزرق وقميص داكن، يجلس مسنداً ظهره إلى حافة كتلة رملية. قال: لا يمكن أن يكون هذا الرجل. فيما لم يكن من أحد سواه على الأرض قاطبة. لماذا يتذكر الآن كلمات الفاضل: سنملؤها بشراً. حين انتصب الرجل الجالس قبالة الماء منادياً: الذاهب إلى رأس سدر، وأعاد الكلمات برتابة. لم يبق من النفر إلا ثلاثة فقط، الضابط العجول، الصافي بتمام وحدته، والرجل الأسود النحيف. قال الصافي: أنا المقصود بهذا النداء، ليس من أحد هاهنا سواي. أجاب على الرجل: أنا أذهب إلى رأس سدر. اتسع وجه الرجل وهو يصافحه ماداً يده الطويلة النحيفة: اسمي منصور. أجاب: وأنا الصافي. لا يبدو عليك هذا: أردف منصور. بعد سفر قصير في عربة الضابط، قطعا خلاله رمالاً ورمالاً، صمت أوسع من الأبدية، خلاء يكفي لقيامة، قال المنصور: من هنا عبر النبي موسى. هذه هي العيون. سأريك كل شئ فيما بعد. لم يفكر في شئ كثير، والصحراء ليست اختراعاً يراه لأول مرة. غير أنه بدا موزعاً بلا نقطة ارتكاز واحدة. أمام مجموعة من المساكن المتشابهة كالأكواخ هتف المنصور: هنا يا سيدي. هنا. هبطا معاً وسارا نحو البيوت الغارقة في الصمت، بين الممرات الضيقة التي تفصل كل كوخ عن جاره قال المنصور: أختر لك واحد. تلفت الصافي متسائلاً: أي واحد تقصد؟ قال المنصور: أي واحد تشاء. كل الوحدات فارغة، لكنها مؤثثة بالكامل. وباقي الناس يا منصور أين هم؟

fb/mashro3pdf

تساءل المنصور: ما حاجتك للناس؟ سنملؤها بالفعل أنا وأنت. نحن كافيان تماماً. سكنا معاً في أقرب وحدة على الخليج، فتحا نوافذها وأطلا على الليل، وما أدراك ما الليل في عراء الصحراء بجانب البحر. حيث كل شئ يغدو قريباً منك إلى درجة الفزع، الله. الملائكة. الشياطين. الصمت. الصراخ. الحلم. الكابوس. صفاء العقل. الهلوسات، الزمن الذي يتداخل بلا آلية أو نظام.

لن نجلس هكذا. هيا لنذهب: قال المنصور، وحين تساءل الصافي مندهشاً: إلى أين؟ أجاب المنصور بثقة العارف: إلى الناس. الخطوات في الليل اكتشاف، لنذهب. هيا لنذهب بدلاً من أن نموت.

fb/mashro3pdf

مجرة من السواد والصمت، لو ترفع رأسك قليلاً لأحرقتك النجوم التي تكاد تلامس الأرض. قاربنا على الوصول. لا تستطيع سيارة نقل أن تعبر هذه الرمال الناعمة الكثيفة. لنترك السيارة على الطريق ونمشي على الأقدام. قاربنا على الوصول. إلى أين يا منصور في هذا الظلام؟. امش فقط، وغني إن كان بإمكانك الغناء. قال الصافي: أغني! قاتلك الله من عبد. حافيان يغوصان في الرمل، يلمع شهاب في قلب المجرة السوداء. قال الصافي: انظر. نار موسى يا منصور. أجاب المنصور بمرح: بل نار صبيحة يا ابن البحر. تساءل الصافي: ماذا سنفعل هناك؟ سنحيا قدر المستطاع. سنحيا يا ولد: أجاب المنصور. حين اقتربا من النار وضحت المعالم قليلاً. رجال يستديرون حول حلقة النار. قبل أن يصلهم مباشرة ألقي السلام. مضت لحظة من زمن. هم خلالها يميزون القادم عبر الليل. لم يغادر أحد مجلسه ولا تكاد تميز واحداً عن الأخر، يردون التحية بصوت جماعي ويدعوننا للجلوس، يعرفونه بالطبع. ينادي كلاً باسمه، يقدم الصافي إليهم: زميلي وصديقي الجديد، ابن صحراء أيضاً، من شمال هذه الأرض. تناولا فناجين الشاي الواحد بعد الأخر، حدق الصافي فيما حوله. أبل تقوم وتبرك خلال الدائرة التي تتسع خلف الرجال، بيت واسع من الوبر الثقيل يقوم على ركائز أثل طويلة. يحملون أجولة من على ظهور الجمال إلى الداخل أو يحملونها من داخل البيت إلى ظهور جمال باركة تنتظر. يحضرون

fb/mashro3pdf

الطعام، وتنغمس الأصابع الخشنة في الرزق المقسوم. همس الصافي في أذن المنصور: وحشيش أيضاً يا منصور؟ لم يلتفت كثيراً. أجاب بهدوء خذ ما تريد، من أكل طعامنا لا يخوننا، أنت تعرف ذلك. عاود السؤال: أين صبيحة إذن؟ قال: صبيحة للصباح يا فتي. قام أحدهم ودخل إلى البيت، لبث قليلاً وعاد يحتضن عوداً قال أنه وجده وحسب. نادي المنصور: قل يا شحته شيئاً للفرح. يضرب الأوتار برقة حيناً، وأحياناً يغوص في أغوار بعيدة، شجياً كان وحنوناً قال:

اغنم زمانك يا حبيب اغنم
اغنم وعهدك صغير السن طايشاني
خايف عليك بعد ١٦ سنة تندم
تنسى شبابك و أحبابك و تنساني.

لا يتحدثون عن الحياة أو الموت، هم الحياة والموت معاً. لا يحلمون ولا يحزنون. اللحظة هي الحياة. لذلك دائماً هي جديدة حتى لو بدت شديدة العراء والفقر. غنا شحته تلك الليلة لفتاة لا يعرفها بشر، قال إنه لن يشفي من جراحة، لأن عطر الحبيبة مدسوس في وسائد مستحيلة. فجأة سأل الصافي: متى نعود يا منصور؟ نعود! ردد المنصور. من ينــــرت هناك؟ الصبر يا أخي. لكننا حتماً سنعود. سنعود.

fb/mashro3pdf

حين كانت المياه والسماء فقط تلفان أرض الجنوب الفارغة، كان المنصور يقف على حافة المرسي بين الكوخ والماء ويقول: من هاهنا،ويشير بيده إلى اللامحدود من المساحات المترامية أمامه، وإلى هناك، ثم يقبض يده على فراغ أشد. سنشتري الأرض من ملاكها الأصليين، قروش قليلة، لا أحد هنا سوانا يشتري أو يبيع. يحتد في شرحه للتفاصيل: أرجوك يا أخي. أفهمني. سحقاً لهذه المعرفة التي تعبث في رأسك. هل تعلم أن سبب شقاء البشرية بأسرها هو هذه المعرفة. إن لم تكن تصدق. ليتك تسأل أبينا أدم، ويعود إلى أصل الموضوع: كل شئ بحوزتنا. الأختام والمواثيق، معنا نقود كافية، لن نسرق أحداً. هذا شرف. نعطي صاحب الأرض ما يستحق، ونكون نحن المالكين الجدد. أنا وأنت. ثم وهذا هو الأهم. الأرض لا تطير يا صافي. نقود مودعة في بنك الزمن، وستمر الأيام سريعاً كعادتها ويتغير كل شئ. نحن لا. لن نتغير الآن. نبقي هنا. فوق أرضنا الحق. نستصلح ما نشاء، نبيع منها ما نشاء للقادمين في الغد يبحثون عن متر على هذا الساحل الملكي. قال الصافي: أفكارك لا تنتهي. أجاب المنصور بغضب: وأفكارك لا تتحرك.

في الصحراء قانون لا يموت. قانون للوطن، وأخر للمواطنين. قانون الوطن يقضي: أن كل الأراضي الشاغرة في الصحراء هي ملك للدولة. هكذا. ميراث إلهي مقدس. فيما قانون المواطنين يقول:

fb/mashro3pdf

أنه ما من شبر فوق هذه الأرض إلا وله مالك من الناس، ويصدقون على هذا القانون بالمثل البدوي

(من ليس له أب فهو بندوق) (أبن حرام) وعلى هذا يتكئ الشيوخ الطاعنون، يرتشفون القهوة المرة ويقولون: فلتأتي الحكومة بأبيها إذن!

fb/mashro3pdf

ماذا يعمل هذا الرجل هنا؟ سأل الصافي. قال المنصور: لا شئ. إنه ينتظر. كان رجلاً وحيداً مهملاً.

اسمي؟ أسمي: أحمد الله يفرجها. هذا اسمك بحق؟ عرف أنه يبني كوخاً من الصاج والخشب يدعوه كافيتريا. لا أحد هنا يدخل أو يخرج. لا بأس. سيأتون. إنه يراهن على الآتي. من هنا دب الخلاف بين الصافي والمنصور. قال الصافي موضحاً: لا يهمني ملكية الأرض لمن تكون. سيان عندي يا منصور. الأرض لمن يبقى وأنا راحل لا محالة. إلى أين؟ ستظل حماراً لا يبصر إلا وقع حافره. يقول المنصور: تذهب إلى محرقة الخليج، أي اغتراب وعذاب! ولأجل ماذا؟ النقود؟ النقود هاهنا. هاهنا وأقسم لك.

لكنني لا أريد غير الرحيل. إذن أرحل. ستعود فيما بعد، و لن تجد غير الندم. ارحل. أخبره قبيل عودته ألا يذهب لمنزل الفاضل فارغاً. خذ بعض الأسماك لكن آه.

لا يوجد ثلج والمسافة غير قصيرة. خمسة وعشرون يوماً كانت كافية، أكثر من هذا سأكون على بداية درب الرهبان أو الجنون. يمنحه المنصور راتب شهرين. واحد منها نقداً والأخر بشيك بنكي يصرف من العاصمة. في طريق العودة يفكر: لن أعود. منصور يحلم بالأرض وبالمستقبل. أما أنت فماذا يعنيك من الأرض؟ ومن المستقبل حتى. إن كان مقروناً بهذا العراء،

وتذهب الفكرة في أعماقه كالقصيدة، كل شئ يغدو باطلاً ما عداها.

fb/mashro3pdf

صار يدعم نفسه بالبراهين. إن أحداً لم ير قصور الجنة ونعيمها غير أن الملايين من البشر تكدح لأجل الوصول.

ليس سوي الفاكهة يحملها إلى منزل الفاضل، صعد الدرجات المصقولة ووقف أمام باب المنزل واللافتة النحاسية اللامعة. دق الجرس وانتظر.

بعد قليل أجابت سيدة. أخبرها باسمه وأنه يريد لقاء السيد لأمر هام. برهة أخرى وعادت لتفتح الباب، قالت تفضل. سيأتي حالاً. جلس في الصالون الفخم ينتظر. طاف على ذهنه صالونات المنصور الرملية. كاد أن يبتسم، تعال يا عبد الليل وانظر. حين دلف الفاضل إلى البهو الذي ينتظر فيه مترقباً،

كان يلتف برداء صوفي فاخر. صافحه وجلس قبالته. تساءل: هه. ماذا فعلتم هناك؟ لابد أن تقوموا بدوركم مثلما فعلنا من قبل ولم نزل. هذه رسالة. هذه الأرض. قاطعة الصافي بأدب: لم أجد سمكاً لائقاً. أحضرت بعض الفاكهة والحلوى. جميل منك. ما أخبار صيانة السيارات؟ جاوبه بأدب: المنصور يقوم بكل شئ، وأنا لن أعود إلى هناك. هذا يكفي. أنا متعب جداً. باغته بالورقة المعدة من قبل وأخرج قلماً ناوله أياه. من فضلك يا سيدي. قرأها الفاضل على عجل، أين تريد أن تذهب إذن؟ إلى الساحل يا سيدي. بجوار البحر، في ذات اليوم الذي تصدق له بالنقل، يصرف نقوده من البنك. يتجه إلى البحر الأبعد.

قبل أن يعود من جديد لاستلام عمله في الجزء الشمالي من

fb/mashro3pdf

الأرض المحررة. في الطريق قال لنفسه: أيهما أسرع في المجيء سأكون من رعاياه. تذكرة الطيران، أم المكوث على أرض الينابيع قريباً من الحلم الذي لا يعرف له تفصيلاً. على أية حال من يتعلم الانتظار، فلن يفوته الشيء الكثير. آه كل شيء سيأتي.

fb/mashro3pdf

كأنها هي

fb/mashro3pdf

-١-

في ساحة مهدمة إلا قليلاً، كانت الطلقات من كل الأحجام تزين ما تبقي من منازل وجدران. تجمع عدد لا بأس به من رجال الإدارة استعداداً لركوب الحافلات في طريقها إلى المدينة المحررة. إثنى عشر عاماً فقط هو الزمن الذي امتد بين الرحلة الأولى إلى المهجر وهذه الرحلة للعودة. الناس واقفون يحدقون في اتجاه وحيد. هناك ناحية الشرق. حيث الأهل والجذور. الحلم. الحلم مرة أخرى. ظن أن الناس يحدقون في وجهه، ولم يكن ذلك صواباً. تساءل في ماذا يفكرون؟ أجاب على نفسه: ربما في ما تفكر فيه أنت بالضبط. حين صعد إلى المقعد الأول في الحافلة. التصق بجوار النافذة. صوب كل حواسه إلى الخارج. الخارج الذي لم يغادره ربما لحظة واحدة. هو الرمل يصافح عينيه على الدوام. ستمضي ساعتان من الزمن، يعرف قبل أن يعرف، ويري قبل أن يري. يتصور، يظن، يقيس القامات ويتعرف على الوجوه. سيعود إلى تلك اللغة الناتئة. إلى الحلم الذي قاوم الذوبان إثنى عشر عاماً كاملة. قال للجالس بجواره: كأنها هي. تساءل الرجل مندهشاً: ماذا تقول؟ لا شئ. لا شئ. أجاب وعاود الصمت. الشوارع الضيقة الصغيرة. تراب يغطي كل شبر، البحر والنخيل. ذات الملابس المختلطة من قديم وجديد. أبواب المنازل الضخمة. النوافذ الكبيرة من خشب طاعن وغير مدهون. ما الذي تغير إذن؟ ما الذي فعلته السنوات بهذه المدينة وأهلها؟ سيهبط في الميدان وسط حشد من البشر

fb/mashro3pdf

ينتظرون، ويعرف الطريق للمنزل القديم! خطوة أو خطوتان ليجد نفسه في أحضان الجميع. الأهل والأقارب. الجيران ومن لا يعرف له أسماً ولا علاقة. ليس مهماً. قال وقد أسكرته طاقة البشر على الفرح.

بعد أيام قليلة سيتغير حتى ميزان الحياة. أن تتعلم الاستيقاظ في صلاة الفجر. فهكذا هم يستيقظون. قال الشيخ أن الله يوزع الأرزاق في هذه الساعة، ولا أحد يرغب في أن تفوته تلك الساعة. أن لا يفوتك عرس أو مأتم فهذه ضرورة واجبة. أن لا تكون لك ساعة نوم أو خلوة فهذا هو الطبيعي هنا. هذا النظام الذي نسيت، وتلك المآثر التي ما عاد لها كبير وزن في حياتك. كأن بحرين يختلطان، وكأن العربة قد وصلت الآن إلى نقطة الاستبدال. صار هنالك العائدون، وصار الذين لم يغادروا من الأصل، ويتحدث الشيخ عن أعمال وأحلام تحتاج إلى قرون من العمر. وجد الصافي اسمه على ألسنة كثيرة. قال: أهذا أنا؟ وفي الليل. ليل المدينة التي أفاقت على عرس كبير دون أن تعد له نفسها كما يجب، وفي الليل الذي يمضي على وتيرة الليالي التي سبقته من ألاف السنين. هجع الصافي في سريرة صامتاً. أهذه حقاً مدينة الحلم يا ولد؟ أتصدق أنت ذلك؟ ماذا ستفعل إذن؟ وهذا الحب الذي نبت كالأغلال بغتة؟ ثم ذاك السؤال الذي مازال يومض كالبرق: ألست قادماً للزيارة؟ أم جئت لتبقي؟

fb/mashro3pdf

في الحفل الذي أقيم على أرض «الكارنتينا»، احتفالاً بعودة المدينة من قبضة الأسر. كانت البلدة كلها هناك. كما لم تبخل العاصمة بأن تحشد لهذه المناسبة كبار نجومها من أهل الفن والأدب، وصار على أولئك البسطاء الذين أمضوا سنوات طويلة أمام الفيلم العربي الذي يذاع مساء كل جمعة على قنوات المحتل أن يروا تلك النجوم جهاراً نهاراً.

بل يستطيع من يقدر على الزحام والمثابرة أن يصافحهم يداً بيد. حين أنتهي ذلك الحفل قبيل الفجر، والذي ستظل المدينة تلوك أخباره ومناظرة شهوراً طويلة لكونه حدثاً فاق كل تصوراتهم، ولكونها مدينة ترعي مآثر القص والسرد أندفع الناس إلى الشوارع المعتمة عائدين إلى منازلهم. قبل أن يقصد الدرب الشرقي في طريقه للإياب.

ظن الصافي أن صوتاً ينادي. أنت. أنت يا أخ. استدار في العتمة المبللة بندي الفجر. كانت سيدة قصيرة بملاءة سوداء. توقف حتى صارت على مقربة منه.

أتنادين يا سيدتي على أحد؟ أجابت السيدة بارتباك: نعم. لو كان من الممكن أن تسمح لنا بالسير معك حتى نعبر هذا الشارع المعتم؟ ألست أنت، ثم نطقت بالاسم. أجاب الصافي. نعم يا سيدتي. هيا معي. ثم أن أسمي صحيحاً كما تذكرين. أجابت السيدة: نحن أقرباء لك من بعيد. الكبار يعرفون هذا. كان يقف

fb/mashro3pdf

خلف السيدة. فتاتان، وطفل ربما في العاشرة. قالت نحن وحدنا، والأغراب كثيرون في البلدة. كانت واحدة من الفتاتين ترتدي الجينز .وبلوزة بيضاء فيما تزدان يداها بحلي ملونة كأنها غصن زيتون مجدول، ولم تكف عن الحديث مع الفتاة الأخرى والطفل. قالت السيدة: هاتان البنتان والطفل أولاد أخي. خالدة هي الكبيرة. ينظر الصافي إليها ويبتسم. آه خالدة. أليس كذلك. تساءل حتى نطقت الفتاة بالجواب. نعم. خالدة، وكأنه يتساءل في جوف سره. ما أهمية باقي الأسماء؟ ما أهمية الزمن؟ أين مفعول النسيان إذن؟ من يكتب الروايات كيف يكتبها؟ أين تذهب التفاصيل حين تذهب؟ من ينبش في ركام الزمن ويستعيد لحظات من أبعد نقطة فيه؟ كم سنة؟ خرج من دوامة اللحظة ليسأل. هل تعملين يا خالدة؟ قالت. نعم، أنت لم تعرفني صحيح؟.

غبش الليل أم ضباب الذكريات؟ ها أنت تراها مرة أخرى. لم تكن ترقص الآن في عرسك الميمون. تبدو خفيفة كجناح طائر. ذات العينين الضيقتين اللامعتين. على هاجس تتحرك كأنها تخشي شيئاً ما، وأمام منزل من الطين النيء. توقفت السيدة. قالت: ها هو المنزل يا أخي. لو كان الوقت يسمح لدعوناك. أنت تعرف. قال: لا بأس يا سيدتي. ربما نلتقي،

ومضي يكمل باقي الطريق بمفرده. حجر أصم. لا شئ فيه يختلج سوي هذه الحروف «خالدة». قال: لماذا خالدة؟ بيد أن وزنها قد أزداد قليلاً، والتف قوامها كأنثى كاملة. قال: في هذا البوار الطازج،

fb/mashro3pdf

غريب أن يتفتح القرنفل. واصل الحديث بلا تردد مع نفسه: لست غراً لأقول هو الحب. لكن ما هو الاسم الحقيقي للشيء الذي يعبرك فجأة، لا ليرحل، بل ليظل دائماً على شكل سؤال لا يكف عن الطنين. لماذا خالدة؟

fb/mashro3pdf

-٣-

في مبني الإدارة القديم، يجلس في الغرفة الأخيرة من الممر الطويل. تسبقه مكاتب زملاء ومختصون. لم تزل أيام الفرح تتوالي. جموع المواطنين تتدفق على قلب الحكومة السعيدة أيضاً بالانجاز. بدت المدينة وأهلها في تلك الأيام كالوليد المعجزة لأم قد أشرفت على اليأس من الولادة.

قال المسئولون الكبار: كل شئ مجاب. المياه والكهرباء، العمل، والإعانات، العلاج وكل شئ، وكان يملك الطاقة على العمل بين مسئوليه وجموع الناس. قال مرة لزميل: لا أحب العمل أصلاً. لكن إذا عملت فلتتقن عملك، حتى ولو كان جريمة.

في صباح ربيعي، وفي الحجرة المختنقة بأنفاس الزملاء وطوابير الناس، رنين الهاتف الذي لا يكف، تدخل فتاتان وتسألان أول جالس على الطاولة في بداية الغرفة. أيمكن لقاء مسئول الإدارة؟ قادهما الرجل إلى حيث يجلس الصافي غارقاً بين الضجيج والأوراق ودخان السجائر. حين رفع بصره إليهما قال عجولاً: ماذا تريدان؟ أجابت واحدة منهما: ها قد عدت للنسيان مرة أخرى. ثم أردفت. لا تتذكرني للمرة الثانية. حدق الصافي بدهشة وتوقف القلم الأسود عن الجريان. آه. خالدة! أجابت بابتسامة صغيرة، وحين جلستا أمامه في حياء وارتباك. قال: بماذا ترغب خالدة؟ قالت: أنا. لا شئ. صديقتي ترغب في تحويل جهة عملها إلى قطاع التعليم. قال: لا بأس. هذا ميسور، وأنت؟ قالت: أنا أعمل بالتعليم من الأصل. لست

fb/mashro3pdf

معلمة. لكن في قطاع الخدمات الإنسانية والاجتماعية بالتعليم، ذات العمل الذي مارسته أثناء الاحتلال ورعاية الأطفال اليتامى. أبناء الغائبين، أشياء من هذا النوع.

سألت فجأة: وأنت، ماذا تعمل بالضبط؟ قال دون أن يفكر: أي شئ يا خالدة. حين غادرتا المكان. كان قد عاود الانهماك في تفاصيل اليوم الكثيرة. ليس سوي الليل فرصته الوحيدة للمراجعة. قال: هذه هي المرة الثانية التقي بهذه الفتاة مصادفة. في الحجر المقدس لكل كائن أسئلة من الجنون البحث عن إجابة لها. وفي الغابة أيضاً تنبعث الروائح التي لا تعرف لها مصدراً. قال في نهاية الليل. نصيبي من هذا اليوم الدهشة. فيما كان الشذي الغريب يحلق إلى آفاق لا يعرف اسمها.

fb/mashro3pdf

-٤-

الجميل صديق عمل، وهما متقاربان في العمر، وهو رجل ذو إستقامه وسعة صدر. يجاوره الجميل في العمل مساعد للحسابات. قال الجميل للصافي: هذا يونس. بعد قليل من الوقت فاجأ يونس الجميل بالسؤال: أنت وحدك ستعرف ما حيرني بالأمس. رأينا حيواناً صغيراً، يتسلق جدار الحائط، بارع وخفيف، لم يكن فأراً ولا حرباء، بني اللون وذو رأس صغيرة. تبسم الجميل بمودة وأجاب: ربما فيل صغير يا يونس. اندهش الرجل، ولكن بجدية صارمة أجاب: لا أظن، ربما الأفيال أكبر بعض الشيء. لم يضحك الصافي للمفارقة. حين جاء لزيارة الجميل كان قد أخبره بأنه يريد مرافقته لنهو عمل لم يفصح عنه، وهما يخرجان من مبني الإدارة إلى ساحل البحر القريب. عاتب الجميل رفيقه على عدم المجاملة. قال الصافي دون انفعال: افهمني يا أخي. أنا أقبل الإنسان على أي حال يكون. لكن هذا الغباء لا أحتمل.إنه حتى لا يضحكني.

قلبي غائر يا جميل. كي أضحك لا بد من سكين حاد. لكن أنت. في أي شيء تريدني؟ قال الجميل: سنذهب لزيارة شقيقتي في المدرسة التي تعمل فيها. سنري فتاتين، تقول شقيقتي أنهما لائقتين تماماً للزواج. فلنتزوج. ماذا تنتظر؟ لم يكن في الأمر مفاجأة. هكذا يتزوجون هنا. قال الصافي: ولم لا. فلنتزوج، وننجب أطفالاً، ونشتري الخضر والفاكهة والجرائد. لم لا؟ ولقد سهلت شقيقة الجميل دخولهم للمدرسة،

fb/mashro3pdf

ثم قادتهما إلى غرفة شاغرة إلا من أريكة بالية وبعض الكراسي الخشبية العتيقة. قالت الأخت: الفتاه التي ستراها يا جميل لا تعلم شئ عن مقصدك. فقط مصافحة عابرة للمجاملة. يهمس الصافي في أذنه (أختك تكذب) هذا شئ عادي. لا تغضب، والفتاة تكذب أيضاً. إذ أنها تعلم وتعلم وستري. في الوقت الذي كانا يشربان فيه الشاي الرديء ولجت للغرفة بصحبة الأخت فتاة بيضاء الوجه، متوسطة الطول، هي فتاة لا أكثر كما يقول الصافي دائماً. حين أشارت الأخت إليها قامت بمد يدها إلى الجميل. على وجهها ابتسامة مثلجة وافتعال غير منكر، لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودة. خرجت الفتاة ونهض الزائران على عجل للمغادرة. كان كل شئ محسوماً من النظرة الأولى. قبل أن يصلا عبر الفناء الترابي إلى باب المدرسة.

قال الجميل: ما رأيك؟ بادرة الصافي: رائعة. فرصة العمر ولا تتركها تفر. تذكر ما قالت الأخت. الأصل العريق، الجمال الهادئ، ثراء الأسرة الكبيرة. ماذا تريد أكثر؟ ثم انفجرا في ضحك عريض. فلنتزوج يا سيدي. من أين تهب تلك الرائحة؟ لماذا يتغير مسار الدم في النبض؟ كأنها النذر. أي شئ سيكون غير جسد الغموض الحي. من أين قادمة إذن؟ وإلى أين تراها ذاهبة؟ توقف برهة. كان لابد أن يتوقف. لا يعرف لماذا، ولكنه يتوقف. يبسط اليد اليمني سائلاً السلام.

آه يا هذا السلام البعيد، وهي أيضاً كانت قد توقفت على باب

fb/mashro3pdf

المدرسة الأزرق الباهت. نصف الابتسامة كان يكفي لإضاءة هذا النهار، وضعت أصابعها الخمس في راحة يده الخشنة. كانت العينان الضيقتان اللامعتان، تسألان بدورهما. عتاب أم مزيد من الدهشة الملغزة. ماذا بك؟ قال الجميل. لكنه أمعن في الصمت. تعلم قديماً ألا يفسد الكتلة المتوهجة بالأسئلة الصماء. حتى الجواب الكاذب ما كان ليقدر عليه.

fb/mashro3pdf

-٥-

ماذا تفعل بالوقت؟ قال أقتله. أفضل وسيلة لتسريب الزمن هو العمل. العمل بكل الطاقة واستلاب ما تبقي من جهد وإمكانية الغرق في التفاصيل، ثم النوم. ستغدو ناجحاً بعد هذا العمل. النجاح: كلمة بلا معني دقيق. فمن يبذل الجهد الكثير تتحقق له فرصة النجاح، وإذن. ماذا عن الآخرين؟ أولئك الذين نجحوا في كل الاختبارات دون جهد أو حبة عرق واحدة! النجاح: قد يمنحك الآخرون هذه الصفة لسد العجز في أنفسهم. قد يرونك فيما عجزت قدراتهم أن يكونوه. صار الآن نجاحك يتوزع، وفي مقدور كل عين أن تراك ناجحاً من زاوية ما، وبمجرد ابتعادك قليلاً عن هذه الزاوية تنقلب إلى النقيض. يسحب منك اللقب. نجاح الإنسان مشروط بعيون الآخرين.

أنت لا تقف في وسط الطريق لتراقب مسار الوقت. خيوط التجاعيد التي تخط لنفسها مستقبلاً في وجهك. لا تراقب الليل المطفأ في عيون المحيطين. تمضي مسرعاً لتحوز النجاح. حصاناً يركض بأقصى طاقته لبلوغ الجائزة الكبرى، وانفطار القلب أيضاً. قال له الرجل الكبير. تسافر للقاهرة؟ قال: لا بأس. مهمة عمل ليومين. فكر. منذ متى لم ير العاصمة؟ أعد حقيبة صغيرة للسفر، وانتوى الذهاب مع الفجر. حين غادر بوابة العمل أوقفة زميل قديم. يقولون أنك تسافر غداً؟ أجاب بالإيجاب. واصل الياسر حديثه الودود: بإمكانك أن تخفف عني مؤونة السفر وتحمل ظرفاً صغيراً

fb/mashro3pdf

لابنتي هناك. خطاب وخمسون جنيها للعلم. دس المظروف في جيبه وراجع العنوان على غلاف الخطاب من الخارج. في عربة التاكسي التي أقلته مع آخرين. لا ينام. لا تغفو عينه عن الحركة. يحدق في الشاسع من الرمل. متى يصل النيل إلى هذا الرمل؟ في الأحلام جمال هزلي. قال السائق بعد وقت. هذه هي القاهرة. عمار وافر يا مصر. ذات الإيقاع المندفع، كأن الناس هاربين من شئ ما. كأنهم على عجل للحاق بأمر جلل. قال: أبداً لم يقم جسر الود بيني وبين العاصمة.

حين هبط المسافرون بقي وحيداً. قال للسائق: أوصلني لهذا العنوان وخذ أجرة الطريق وهذه الدقائق الإضافية.

قال السائق: طوال فترة الهجرة وأنا أسكن في القاهرة. سريعاً كان يقف أسفل بناية بيضاء عالية. على المدخل اللافتة السوداء العريضة ـ بيت المغتربات ـ ناول السائق أجرته ودلف إلى البهو. كأنه فندق صغير. تجلس سيده رصينة لتسأل الداخل عن البيانات.

اقترب قليلاً وتوقف للسؤال: اسم هذه الفتاة على الغلاف. معي أمانة لها من والدها. أجابت السيدة:لكن هذه الفتاة خرجت منذ الصباح لزيارة أقرباء لها. ربما الفتاة شريكتها بالحجرة تعرف عنوان الأقارب. تساءل: هل بالإمكان الحصول على عنوان أقاربها؟

فكر: لماذا لا يترك الرسالة كلها هاهنا؟ ذهبت السيدة للهاتف وخاطبت الفتاة التي تشاركها الحجرة، آمره إياها بالهبوط للاستفسار. بعد دقائق تهبط فتاة في عمر الورد. فادحة الجمال

fb/mashro3pdf

على أي مقياس يريده العقل. جمال صعب وقاس. يكاد يسب ويصرخ. صغيرة هذه البنت. ربما لا تدري على أي كارثة تحتوي. تتفجر بالإيحاء. ربما دون أن تعي ذلك. ربما هي الطبيعة في واحدة من نوبات عطاءها. قال حين لملم شتات نفسه: ربما أنت يا سيدي. هو الرمل الشاسع في الأعماق، يلمع كسراب على أول نقطة ضوء.

قالت البنت:بإمكانك أن تستقل الأتوبيس وذكرت رقماً لم يدخل في رأس الصافي قط. تهبط في المحطة قبل الأخيرة. تسأل هناك صاحب مقهى البرج أو صيدلية الإيمان. العمارة قريبة جداً منهما. أجاب الصافي: للأسف. أنا لا أعرف شيئاً في العاصمة. من الأفضل أن أترك لها الرسالة معك. أخرج من جيب سترته المظروف وناولها إياه. هم بالخروج من الردهة وهو يردد: هذه البنت. آه حقاً. ما اسمك استدار منادياً: قالت: أسمي لمي. نعم لمي. ثم عاود الرجوع. حين كاد أن يقترب من باب البناية الرئيسي، لحقت الفتاة على مقربة منه قالت: أسمع،هل من الممكن أن تنتظر قليلاً؟ سأخرج لزيارة بعض الأهل هنا. اليوم الخميس ويسمح لنا بالخروج والغياب إلى ما بعد العاشرة. لو كان ضرورياً أن تراها. بالطبع ضروري جداً يا لمي. إذن سأذهب معك إليها، ومن هناك أعود لزيارة أقاربي. أمام العمارة وقف ينتظر الفتاة. قابضاً على حقيبة اليد الصغيرة. حين تأتي لمي إليه مزدانة ببهائها يأخذه الوجل القديم من الجمال الزائد عن الطاقة. يشعر أن ذئباً عجوز يتململ في أعماقه. يوقف

fb/mashro3pdf

سيارة أجره ويصعدان معاً على المقعد الخلفي. ينظر إليها قليلاً. يتأكد مما ظنه لأول مرة. جمال متدفق كالعاصفة. ملامح حادة لا تترك لك الخيار. كل شئ في هذا الكائن بدا وكأنه منحوت على درجة فائقة من الإبداع. هذه البنت. يقول. يقترب منها قليلاً حتى يتلامس الجسدان أحياناً مع اهتزازات الطريق أو بفعل فاعل حذر. لا تبدي اعتراضاً أو وجلاً. يحدق في فستانها الأسود الشفيف الذي بالكاد ينتهي عند ركبتيها. في الوجه الشارد الجميل مسحه من حزن هادئ غر. قالت إنها ليست من القاهرة، وليس لديها أقارب هنا،وإنها لا تعرف بالضبط أين منزل أقارب ابنة الياسر. إنها تدرس الآداب ولا تحبها، يلتقط هذا الضياع البريء على مهل، يتحدث عن الحياة والشباب. جنون اللحظة وكثافتها. التجربة. الحرية. البحر واللذة. بين كلمة وأخرى يميل قليلاً ليري أثار طلقاته على العقل البض. كانت صغيرة وتواقة. وضع راحة يده على ركبتها الملساء الباردة، وواصل الحديث عن القلب وصناعة الذكريات. كان لا يجد صعوبة وهو ينهل من تاريخ مفعم بالحكايات والخطايا. بئر لا تنضب من الكلمات. متنوعة الأوزان والألوان. أشراك وحفر. ينتظر أول بادرة للرفض. لكنها لا تجئ. يوغل في العبث. يقبض على الفرصة من عنقها النحيف. تستريح اليد هنا، وهناك. تصعد قليلاً وتهبط ببطء ورسوخ. أشبه ما تكون ببحر لم يضربه مجداف من قبل. كانت الصغيرة تتهاوي على رمل يغوص بلا قرار. شعر بالحرارة تتنامي. كادت عيناها تسيل، فيما الشفتان البرعمان صارا

fb/mashro3pdf

يرتعشان قليلاً، ولا تجد البنت ما تقوله أو تفعله. أحاط خصرها بيده الأخرى، وجذبها إليه بحنان. هي اللحظة إذن. حرر ذاته كلها وأمر السائق بالوقوف. هنا. قال: إلى أين يا لمى نمضي. قالت: لا تسأل لمى عن شئ. تضحك حتى ينشرخ القلب الصغير. على باب واحدة من البنايات الشاهقة. قالت: ربما هذه. لنجرب: قال،و أمسك بيدها وتجاوز الردهة سريعاً صاعداً لأول طابق. السلم ضيق وغير مضاء جيداً. كانت بداية ليل، وكان سكون. في استدارة الدرجات بين طابقين شدها إليه وكانت في مواجهته، وضع رأسها بين كفيه. هو الأطول لا ريب، أسندها إلى جدار الحائط الرمادي، لم تنطق بحرف. كانت أنفاسها تتسارع. لينة ودافئة. ألصق صدره بصدرها الناهد، ومن وراءهما جدار. كانت قدماه قد انغرستا بين قدميها، أهوى بشفتيه من قيظ ورمال فوق ريحان شفتيها. لا. لم يكن يقبلها. كان يأكل بنهم الجائع القديم. يقضم حلوى مشتهاة. طفل يلعق الوجنتين، الأذنين، يتذوق اللعاب، تئن، لا يكف، يرفع قدمها القريبة ويلفها على خصره المشدود كوتر، يشعر بثقل العصفور، لم تعد تقوى على الوقوف، وهو لم يعد يطيق صبراً. بطول الصحراء يا لمى، بالجوع واليأس والحيرة، يسكب عصارة اللحظة الفاتنة، يحتويها بين ذراعيه هابطاً معها إلى أقرب درجة صادفت جسديهما. لم يقطع الصمت إلا سؤاله الغريب: أمتأكدة أنت أنها هذه العمارة؟، وتعاود الضحك المشروخ. حين تنهدت وقالت: هذه أول قبله في حياتي، ويرد الصافي: وأنا كذلك، لتعاود

fb/mashro3pdf

الضحك الذي يحمل هذه المرة معنى العتاب. لا تكذب عليّ أرجوك. قال: لا أريد أن اكذب عليك. أنت جميلة ومتسقة، لو تظلين كذلك! لو تحافظين على هذه الضحكة الساحرة. قالت: أتحبني ساعتها؟ أجاب الصافي: أحبك يا لمي، لكنه حب يشبهني. حب غريب، لا يعد بشيء، ولا يفسر شيئاً. وربما أيضاً. سامحيني. لا يعني شيئاً. لكنني مثقل بروائح ضحكتك، جسدك لم أصادف له شبيه قط. هذا العرق المتحدر منك كالعطر، أنت في العاصمة.

لا تهبطي كثيراً لشوارعها. لا تقودي تائهاً أخر إلى عنوان ما. أشعر بالألم لمجرد التصور أنك في زمن قادم، في مدخل عمارة أخرى، قريباً أعود إلى منفاي، ربما نلتقي، يقيناً سنلتقي. ابنة الياسر هذه حلقة الحظ بيننا. اسمعي يا لمي، ويواصل البوح: يقولون للرجل فكرته، وللمرأة جسدها. إنه تناقض الشرقي التعس. قالت حائرة: اكتب لي أذن. قال:نعم، سأكتب. جابا شوارع العاصمة، شربا شاياً على مقاهي، تناولا الطعام وهما سائرين، شاهدا فيلم «د. زيفاجو» وواصلا العبث في عتمة الصالة. سألته عند الخروج: الفيلم كان رائعاً؟

قال: نعم، كل شئ هذه الليلة رائع. عاد بها أخيراً إلى بيت الطالبات. بحث عن فندق في وسط المدينة. آوى إلى النوم ولا نوم. في الغد سيلتقي بالوفد القادم من هناك. سيبحث الأسعار والعروض المقدمة لشراء مخابز آلية توفر الخبز الجيد والسريع للحشود الزاحفة على الصحراء. حين ينتهون من توفير كل شئ.

fb/mashro3pdf

كيف ستوفر لأهالي تلك البادية لحظات كتلك اللحظات؟ شئ كالحلم، شئ لا أعرف له اسماً دقيقاً، لكنه يجعل من هذه الملهاة شيئاً محتملاً.

fb/mashro3pdf

أساطير

fb/mashro3pdf

-١-

ماذا تريد أن تعمل يا صغيري عندما تغدو كبيراً؟ سؤال غبي، لم يزل يتردد عبر الحياة بطولها. في صندوق الصدفات، تعثر الأم على صورة قديمة. طفل وضيء. كل الأطفال هكذا. حتى الفقراء منهم جميلون. عابس بعض الشيء، يضع يداً فوق الأخرى، شعره المصفف إلى الخلف، فيما عينان حادتان تحدقان
(يقيناً في المصور آنذاك) في فضاء المجهول، لا معنى لتلك النظرة غير الحذر المشوب بقليل من الغضب غير المبرر. على ظهر هذا الأثر البعيد كتب: حضرة السيد الأستاذ المحامي / ثم اسم الطفل ثلاثياً. سيظل الصافي يسأل دائماً: هل كان الطفل يعرف شيئاً عن المحاماة؟ هل كان يبدو أنه مولع بالقانون؟ لذلك قرر الصافي: هذه المهنة تمناها الأهل الأعزاء لطفلهم العابس. لا أكثر ولا أقل. خاصة وأنهم هم الذين يتكبدون النفقات من أجل رغباتهم. سيواصل السؤال: ماذا لو غدا هذا الطفل في المستقبل طبيباً أو ضابطاً؟ إذن لضاعت الصفقة المنتظرة. الجميل في هذا أن الحياة بخبرتها القديمة تفعل ما تشاء دون النظر إلى أحد، فلها أيضاً رغباتها. سيبقي صنف من البشر لا يعنيه أن يحقق رغبة أي طرف من الأطراف، ولا حتى الحياة ذاتها. إنه يحقق ما يشاء لنفسه (ربما دون أن يدري).
من هنا سيبزغ السؤال الجديد: من أين تأتي الأساطير؟ إنها تأتي هكذا. ببساطة لا يمكن إدراك تعقيداتها. تولد. تنمو. تتعاظم.

fb/mashro3pdf

يتآلف الزمان و المكان. المناخ. الآخرون. لكي يصبح هذا الشيء أسطورة. نحن نخلق أساطيرنا. نحتاج إلى نمط لا يشبهنا. غريب وساطع، ولو تذهب إلى الأسطورة لتسألها: كيف أصبحت أسطورة؟ لكان الجواب الحق. لا أدري. يقيناً هي لا تدري، فهي لم تصنع كل التفاصيل. نحن صانعوها. نحن الترزي الماهر الذي حاك من قماشه عادية كماً من الخيال والتطريز حتى صار هكذا. هكذا حتى لا نستطيع أن نكونها نحن. لا نقدر أبداً أن نكون في جمال ما نشتهي!. قدر الأساطير أنها تتسع دائماً لعجزنا.

صورة نادرة لطفل لن يكون محامياً أبداً لأن الشيخ سيعود فيما بعد قائلاً: تعرف يا ولدي، لن يدخل الجنة محامٍ أو طبيب. لماذا يا شيخ؟ ويجيب بدهشة: تقول «لماذا»؟ لأن هذان الكافران يتدخلان في عمل الله. الطبيب يقول كذا وكذا، وكأنه بداخل المريض. قاتله الله، والآخر لا يعرف حلالاً من حراماً إلا بالأجر. سيجيب على الشيخ باسماً: إذن الحمد لله يا شيخ، لا طبيباً ولا محامياً صرنا. هذا أفضل. أليس كذلك؟

والله إن الأفضل على الإطلاق ألا نكون شيئاً قط !

fb/mashro3pdf

في قلب كل قديس نقطة عُهر لا يمحوها ماء البحر. هكذا يقولون، وعلى الطرف الآخر يظل في قلب كل عاهرة عرق من القداسة، تظل العمر تجوب الآفاق بحثاً عن وجوده. في الصحراء العارية من الرحمة، عبر الشمس والنجوم والبحر، في ندرة الجمال، تذهب لولا إلى العمل الذي قال الشهرى أنها لا تحتاجه. أحياناً بسيارة خاصة، وضيئة بألوان أزياءها، وسط حشد من السواد المحتشم. عطرها النافذ يجذب العيون للبحث عنها قبل أن تطل. تزهو بكونها لافتة للأنظار دون إعلان صريح. ذلك طبيعي فهي امرأة. تبدي اهتماماً بذوي الحاجات والاحتياجات، لا تعرف إن كان مصدر ذلك عطفها على أصولها القديمة، أم رغبة في المزيد من نظرات الاستحسان. تتحدث عن الشهري بإكبار وفخر، تقطر الكلمات من فمها المدهون بالأحمر الداكن مرتبة لامعة. إن على المرء أن يكون جميلاً لمن يدفع له. غير أن الصافي يقرر: لا عمق لهذا البحر. هو القناع، وفي مدينة صغيرة كهذه تبدو الأسرار وكأنها تدور بين أفراد الأسرة الواحدة. تتناثر أقاويل وحكايات، عن سقطات كثيرة، عن رغبات لا يوقفها إلا الوصول إلى حد الافتضاح، ومن تراكم التجربة، يتعلم المرء كيف يواري. كيف يمر من أضيق الدروب. الدروب التي عليه أن يملها كونه هنا. في ذلك الصباح اللدن. واجهت الصافي على مكتبه بأوراقها. جلست قبالته. قالت بهمس: لقد سمعت عنك الكثير. فكر: هذا حاجز ولا شك. مقدار من المسافة يرتب له عقل

fb/mashro3pdf

مدرب على الجريمة!. أجاب بحياد: ماذا تسمعين؟

قالت: يقولون أنك صادم، لا تأبه بما يقال عنك، ولا تتورع حتى عن إيذاء الآخرين، ربما دون أن تعرف. يوقن الصافي أنها تريد ولا تريد، هو أيضاً يدير حسابات خاصة. لكن هاهنا؟ هاهنا لا يمكن. ممر صغير أو طويل قد يفضي إلى الهدف مباشرة أو إلى الهواء الطلق. يحدق في العينين العميقتين. ذات النظرة التي يحدق بها الصقر إلى نقطته المرصودة من أعلى نقطة في السماء. أدق مشاعر المرأة ترقد في قاع عينيها. كانت خضراء وواسعة. ترخي أهدابها ببطء على بحيرة صاخبة، ثم ترتد إلى مكمنها. هذا شوط طويل. قال أشتهي المناورة. إن غنيمتي من المرأة هي المسافة. يوماً وراء يوم. تقترب المسافات وتنأى. تجلو صفحة من الكتاب المرموز ثم تعود لتنزع لغزاً آخر. تضبط عيونه تمر على منشأ ساقيها. قبالته على المقعد الوثير. تستكين لنظراته الفاحصة، وتميل برأسها إلى الزجاج المعتم خلف رأسها. يصعد إلى ربلة الساق الناصعة، تضع ساقاً فوق الأخرى، فيما يسطع من باطن الفخذ السفلى شعاعاً يكاد يذهب بمخيلة حارقة. كأنها معه ترقد في منتصف الكرسي الوثير وتعود إلى منتصف الدائرة. تسيل عيناها. تنفرج الساقان قليلاً ليمر الهواء المحترق بزفراته، حين تدرك أنه في الطريق إلى الاستواء تنهض متكاسلة. تلم في اعتدالها حليباً قد انسكب وغباراً ملأ أرجاء المكان. فيما كان الدم النافر يعود إلى عروقه يائساً.

fb/mashro3pdf

قالت الأم: هي نوبة برد شديدة. ليمون وشاي، ثم تدثر جيداً حتى يهطل العرق، ولا شيء بعد. يومان يا أمي تحمل. ستمضي أيام ولا يكف الصهد عن جبين الصافي أو من أحشائه. لكأنه كان محموماً أو شيئاً من هذا. يقيء حتى الماء ولا يقوى على الوقوف، ما هذا البرد الكافر يا أمي؟ بعد مرور الأسبوع وربما أكثر. ماذا كان يضر لو يذهب للطبيب؟ يقول الشيخ: الطبيب مرة أخرى يا بني! بعد زيارة الطبيب وتناول العلاج الذي قرره لم يحدث شيء. مازال الأمر على حاله. قالت الأم للشيخ: قلبي مشغول. العلاج لا يجدي. وهو لا يشكو حتى من الألم.

أجاب الشيخ: لو استمر الأمر هكذا سأذهب به إلى أهل الله «لا طب ولا يحزنون»، كفرة والله يا حاجة! في صباح باكر يعُد الشيخ عربة الكارو ويحمل الولد المريض ملفوفاً في عباءة سوداء، واضعاً رأسه المثقل في حجر أمه الباكية، يصعد التل في أطراف البلدة على مهل. قالت ملتاعة: أبعيد منزل هذا الشيخ!

أجاب الشيخ: لا. الطريق وعر على البهيمة، وتواصل الأم دعاءها المكروب.

وفي منزل ليس فيه سوى سور طويل من الحجر الني، بعض عروق الخشب المحروقة، تظلل الباحة المسقوفة بجريد يابس من النخيل كان يرقد الرجل النحيف على وسادة من صوف خشن. يستند الصافي إلى كتف أبيه،وقبل أن تلامس قدمه الأرض يهوى

fb/mashro3pdf

ككومة من تراب على الأرض. نادى الرجل: أتركوه حيث جلس. أنا قادم إليه. يرحب بالشيخ والأم: لا تقلق يا حج، شدة وأزالها الله، عرفت أنكم قادمون، ربي كبير، لا يخرج من عندي إلا معافى بإذن الواحد القهّار، ردت الأم بالدعاء بالبركة وطول العمر، فيما تعهد الشيخ:كبش من خيرة غنمي يا ملاحي لله، وأخر ليدك المباركة. كان يدور الحوار بينهما في رأس الصافي كأنه حلم بعيد، يتمدد على عباءة أبيه السوداء، وجهه إلى الأرض، ضاماً ذراعيه إلى جوار جسده، يبدأ الملاحي طقوسه بوضع قدمه اليابسة الخشنة على ظهر المريض الذي تعرى إلا من لباسه الداخلي. يتكئ قليلاً هنا، وهناك حتى يصل بقدمه الضاغطة إلى منابت الأكتاف. فجأة يتأوه الصافي. تنفرج أسارير الشيخ. يا الله هنا. هنا كل وجع الولد هاهنا. يأتي بإبريق من الفخار الأسود، مملوءاً بالماء يمسك قلماً وورقة بالية يصنع رسوماً وأشكالاً كيفما أتفق، ثم يدسها في فوهة الإبريق. يرج بقوة، ثم يصب الماء من الفتحة الصغيرة فوق الأكتاف العارية، يردد الشيخ: من هاهنا يخرج الداء. ألا ترون الدخان يا ناس؟ يلتقط عوداً يابساً من الحطب، ويبدأ بالضرب الهين على الجسد المسجّي. ثم يعاود صب ما تبقى من الماء فوق رأس الساكن الصامت، قال الملاحي للشيخ. الشر زال يا حاج. لا يأكل ولا يشرب إلا الحليب. ثلاثة أيام فقط. والله والله كنت أعرف أنكم قادمون يا حاج، وهو يوصله إلى باب المنزل. قال: إياك أن تذهب للحكيم. هذا من الله، والله وحده يفعل ما يريد. طبعاً لن يذهب

fb/mashro3pdf

الحاج إلى الكفرة. مع أنه لا يحيا إلا بعشرات من الحبوب والحقن وما توصل إليه هؤلاء الكفرة. في مدخل الليلة ذاتها، تمتلئ الدار بالزائرين، نادت الأم على واحدة من البنات. جاءت متكاسلة، قالت الأم: أين كنت إن شاء الله؟ نائمة والدار كالسوق والحال لا يسر، أي قلب لك؟ أجابت البنت: حلم يا أمي. أرعبني الحلم والله. قالت الأم: لم يبق إلا أحلامك! خيراً، اللهم خيراً يا رب. رددت الأم بهم حار. قالت البنت: رأيتني واقفة على شاطئ البحر، زحام شديد كان يا أمي. الناس تصرخ وتتدافع، كدت أبكي وأنا أصرخ في الناس، أريد أن أسلم على أخي، كانت سفينة زرقاء وطويلة في عرض البحر، هناك. لا يصل الناس إليها إلا مروراً فوق لوح خشبي وحيد. ضيق وكالح اللون كأنه طريق، ولم يكن أحد منكم هناك. كان الصافي يا أمي واقفاً على حافة اللوح، حين تحرك، اهتز اللوح من تحت قدميه. صرخت، صرخت وأفقت. أفقت يا أمي. ماذا يعني كل هذا؟ بذهول أشاحت الأم بوجهها، حلمك أسود عليك، فأل الله ولا فألك.

في الليل، الليل الواسع كمجرة لا تنتهي، باحت الأم للشيخ بحلم البنت، قال: هواجس بنات، واصلت الأم: قلبي غير مرتاح، يبدو الولد شديد الهزال، لا يذوق طعاماً يا حاج!، تنظر إليه والوجيب يشتد.

ممدداً على ظهره ووجهه إلى سقف الغرفة. جميل ورائق، نبع قارب على الجفاف، خفيف كالعصفور، ضباب هو السقف والحائط والوجوه.

fb/mashro3pdf

دخان هي الكلمات، والمشاعر، دخان أزرق صاف. سماوات هشة من غمام، لازمن يحيط بالجسد المهزول. لا شئ مما كان، لا شئ مما قد يكون. مات الزمن كله لديه وتحررت اللحظة. طارت. ترى ما علاقة المرض بالوزن؟ ما الرابط بين الوزن والطيران؟ ما دخل الجوع بالصفاء؟ ما معني الزمن بعيداً عن الزمن؟ كيف الخروج من الوقت إلى فضاءات لا يمكن ولوجها إلا هكذا. بياض هي الذاكرة، أن تتخلي يعني أن تطير. لا يشدك إلى الأرض إلا الأشياء، ومادامت الأشياء قد قطعت أواصرها، فأنت على أهبة السفر. يا رب. أين الألم إذن؟ الألم الذي يحكون عنه عند الرحيل. حتى اللغة لا معنى لها الآن. من هذه اللحظة فصاعداً ستضرب الأم على صدرها: يا حزني يا رب، الولد يهذى، لا والله. ما هى نزلة برد ولا زفت، يا حزني، يقول الشيخ: يا حاجة صبراً، قال لي الملاحي. تقاطعه دون خجل: «يخرب بيت الملاحي يا خوي»، ولدي راح. غير أن لا أحد يذهب ولا يجئ قبل الأوان المعلوم. ليست فوضى. هذا عمل تم التخطيط له بطريقة لا يدركها بشر. لكن من يعرف؟

fb/mashro3pdf

-٤-

مع أول ضوء للنهار كانت الأم قد أجمعت أمرها، صاحت على واحدة من البنات الصغيرات: قبضت على يدها بإصرار: اذهبي إلى بيت خالك، ولا تعودي إليّ إلا معه. جاء الرجل على عجل. لم يكن معتاداً أن تناديه بهذه اللهفة. حين استوطن في مقعد الشيخ الذي غادر منذ الصباح الباكر كعادته. صبت له فنجاناً من بكرج القهوة الراقد بصفحة النار. قهوة الشيخ الجاهزة على مدار اليوم. قبل أن يسأل عن الأمر. عاجلته: اسمع ياخوى برضاي عليك، ثم تبدأ في خلع أسورتين من الذهب من معصمها الواهن، وتواصل: سافر معي يا خوي، ولدي يذوب من بين يدي، ينهض الرجل ويمنعها بيده أن تواصل ما تفعل: ماذا تفعلين؟ روحي فداك، من جنيه إلى ألف، لكن الولد بخير. قالت: بينه وبين الخير الله يا خوي، سافر معي بالولد وأرح قلب أختك.

أجاب الرجل: اليوم توجد بعثة كبيرة بمستشفى المدينة. أطباء كبار، وهم من العاصمة. كبار جداً يا أختي. نذهب بالولد، وإذا أشاروا علينا بالسفر، نسافر. نهضت الأم على عجل: يا الله. الآن يا خوي. لم يكن الشيخ ليمانع حتى لو كان حاضراً. هذا العاصي الصلب، هذا الذي لا يُقطع أمر دون مشورته، والذي يتردد الرجال في الذهاب دون أن يخبروه. قالت الأم: يا لله يا خوي، ليفعل ما يشاء، ليطلقني إن شاء. الولد يا خوي، يا الله. يخرجان على عجل، هل كان يدري ما يدور؟ يفيق على سرير عار بالمستشفي. طبيبان

fb/mashro3pdf

يتناوبان فحصه من الرأس حتى قدميه. يمسحان جسده بعناية ويسألان بلا توقف: هل رآه طبيب؟ هل تناول علاجات أخرى؟ أجاب واحد منهما: هذا غريب. الأمر واضح للغاية. طلب إجراء تحاليل كثيرة، امتدت الإبر الرفيعة إلى عروقه النافرة رغم الإعياء الشديد. حين عاودت الممرضة غرس الإبرة في ظهر الكف سمعته الأم يئن، قالت: كبد أمك يا ولدي. لم تغادره لحظة. طافت به وهو على سريره من كل اتجاه.

ما نفع العالم دون أمهات؟

في غضون ساعتين كان الأطباء قد وضعوا أيديهم على مكمن الداء: هي الصفراء. التهاب الكبد.

قالوا: ربما كانت حقنة ملوثة. حاولا قدر جهدهما طمأنة الأم الباكية: بسيطة إن شاء الله، بعض الوقت ويعود ولدك أفضل مما كان. في نهاية اليوم الطويل. سمح الأطباء باستكمال العلاج بالمنزل. عند باب الخروج توقفا. كان الشيخ يسد الباب بصياحه والتفاف الناس حوله. ماذا جرى: يقول؟ أخبروه بالتفاصيل رافقهم في درب العودة للدار، بدا شارداً وحزيناً، وفي البيت الواسع جلس بجواره مُحدقاً. هل كانت دموعاً تلك التي دارت كالنار في مقلتيه؟ نظر إليه وهمس: يا بوي لا تكسر ظهري. تعجب الصافي من الخلل الطارئ في الجبل. واصل الشيخ: أقسم. لو مر هذا الشهر على خير، لتتزوج فورا. آه. من يضمن هذا العمر الزفت!

fb/mashro3pdf

أي نعم. هذا مارس يا درويش. شهر أحمق، لا يترك شيئاً على حاله. لا نبات ولا حجر، لا إنسان ولا هواء، في مارس كل شئ يتحرك. كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها صاحب الدرس ورفيق المهجر، عاد زائراً الأهل في فلسطين، وأثناء مروره بالمدينة توقف. سأل حتى توصل إلى العنوان. حين عرف بظروف المرض سأل: كأنك كنت تريد أن تموت؟ غبي والله العظيم. ماذا رأيت حتى تموت؟ أطمئن يا صديقي الأشقياء يبقون طويلاً. يتذكران أياماً بعيدة، تفاصيل بلا حصر. كأن الحياة كلها كانت هناك!

قال درويش: كفار نحن ولا نستحق الرحمة. حتى في تلك الأيام كنا غاضبون، فعلنا ما فعلناه ولم نذق طعم الرضى. عن ماذا كنا نبحث؟ المستقبل؟ هاهو المستقبل إذن. أهنأ به. أبشرك يا صاحبي:

«الآتي أخرى من هذه الأيام». ما الذي يسعد في الانتظار؟ماذا تنتظر يا ولد؟. يا ابن الكلب عش حياتك عنوة، قاوم هذا الداء الطارئ. قاوم حتى أحلامك، لا أحلام ولا يحزنون، هذه البلاد بأسرها من المحيط إلى الخليج لا تنجب غير القهر. طز. سأل الصافي درويش عن أخته صفية. أجاب: تزوجت الشرموطة، في عمان الآن. لكن لا أستطيع إلا الاعتراف بفضلها، لم تتزوج حتى تسلمت العمل. أبوي مات. لم أحضر جنازته. كنت أشك على الدوام أنه أبي.

fb/mashro3pdf

سأبقي هناك شهراً وأعود. لماذا أبقي؟ كان الصافي يتمدد على أريكة من زئبق الذكريات. فكر عميقاً: هاهو درويش لحماً ودماً، حدثه إذن عن تذكرة الطائرة، وعن السفر، الرحيل. أتذكر؟ حلم بعيد أخر، أيه لقد دُقت خشبتك بمسامير مقدسة، هنا يتغير الزمن وتتغير الأحلام، بل لا تتغير، تشيخ، وتموت. بل لا تموت. ترحل في درب آخر. يتولد عنها شئ لا تعرفه، لكنك تحياه. شئ غير الشيء، وربما هو ذاته في صورة أخرى. هذا مارس إذن. ورويداً يهبط الصافي إلى شارع الحياة. يشعر بالهواء والحرارة. بملمس الأرض، أصوات الآخرين، حقن الجلوكوز الطويلة، الممرض رشاد، يا عم رشاد: أرحم عروقي. يطمئن الأم: لا تخافي، لن أموت هكذا. يبدو كالعائد من السفر، متهيباً وخجولاً. أين كان إذن؟ لم يغادر الحياة بالقطع، غير أنه لم يكن فيها. يتعلم منذ الآن هذه اللعبة. أن يكون ولا يكون. بعد صلاة العشاء يمر الشيخ عليه في غرفته: يا ولدي، ويرد على الشيخ: ليكن يا أبي، افعل ما تشاء، لكنها من تكون؟ تنفرج أسارير الأم، تتهامس الأخوات، شئ من الفرح الحذر يتجول في فناءات الدار، هل فكر في الأمر؟ هل تردد قليلاً؟ يبدو أن شيئاً من هذا لم يحدث. كان يريد للخطوة أن تتم. أليس ذلك مكتوباً في سطور الحجر المقدس؟ خطوة أخرى، يريد أن يقطع الطريق وحسب.

fb/mashro3pdf

في صباح من ربيع هذا العام. كان الشيخ قد عزم الأمر. يتعامل الشيخ مع الكائنات والأشياء من فرضية الحجم، وكلما كان الحجم كبيراً كان ذلك أدعى إلى رضاه: «الله يلعن الشيء القليل». ذهب في ذلك الصباح إلى جد خالدة، وأبدى رغبته في خطبة البنت للولد. قال الجد: نتريث قليلاً ونرى رأي الأم، والبنت أولاً. عند ذلك اشتعلت حرائق الأسئلة. تطوع الأهل والمعارف والجيران. أدلى كل منهم برأي. بنصيحة. قالت خالدة فيما بعد: أغرقني الناس في الحيرة والشك. لم يجتمع عليك اثنان برأي واحد قط. قال قريب لنا: على ذمتي لا تعطوه. حشاش، عربيد، لو كان عندي مائة بنت ما أعطيته واحدة.

قال آخر: لا يقيم لامرأة وزناً، أنظروا ماذا فعل بقريبة جارتكم، وتواصل خالدة: غير أنني في الرابعة والعشرين من عمري، قالت أمي لي: إلى متى ترفضين؟ حين سألتها الرأي فيك أجابت: الناس لا يرحمون أحد. استخيري الله. فيما أبدى أبي رضاه وقال: أعرفه منذ الصغر. قبل أن يهاجر، شقياً ودوداً. تعرف: كان قلبي غائماً، وفي الليلة التي احتد فيها جدي عليَّ. قال: غدا في المساء ستقولين ما ترغبين، إجابةً أو رفضاً، لا طاقة لي على لقاء الرجال بلا رأي. عندها فقط. قررت أن أراك،أعرف ماذا أريد وماذا تريد أنت.

بعد صلاة المغرب، طرق العزيز باب الدار، موفداً لإحضار العريس إلى منزله. حيث تنتظر خالدة لتراه وتسمع منه. قال للعزيز: لازلتَ

fb/mashro3pdf

مريضاً، لم أخرج من المنزل منذ أكثر من شهر. ثم كيف أذهب وأنا على هذه الحالة؟ أجاب العزيز: تعال كما أنت. قالت الأم: تدثر بعباءة أبيك وأذهب معه، إن غزالات البر لا يسعها إلا قبولك. قلوب أمهات.

دقائق تمر ويكون قد دلف إلى المنزل في الضاحية الشرقية، حيث كانت النادية وخالدة هناك. صافياً من الأفكار والمشاغل، شاحباً ومكدوداً، جلس على مقعد قريب من النافذة، وقبل أن تمتد أصابعه إلى علبة التبغ دخلت خالدة. المسافة قصيرة بين الباب وبين مقعده قرب النافذة،هم بالوقوف لمصافحتها. قالت: لا بأس استرح، تبدو متعباً، صافحته وهو جالس. قالت فيما بعد: صافحتني وأنت جالس، قلة الذوق أصيلة عندك. يرفع عينيه إليها. صغيرة وخائفة، مازالت تلك الرائحة بلا شبيه ولا تفسير، العينان الضيقتان اللامعتان.. ثم ماذا يا خالدة؟

قالت: أنت حقاً تريدني؟ أجاب: نعم أريدك، ولم يزد. قالت: أرعبني الناس منك. لا يدري لماذا قفز الحلاج إلى مخيلته في اللحظة التي ردد على خشبته «ليسوا بقضاتي». كيف أدافع عن نفسي. قال: لا أهتم بما يقولون. تقترب قليلاً وتقول: إني خائفة، أتعدني أن لا تتركني وأن لا تخيفني أبداً. فكر في مطلبان صغيران. لماذا لا يعدها؟ قال: لن أتركك قط، ولن أدع شيئاً يخيفك،سأبذل طاقتي لرضاك. أجابت بنصف ابتسامة: شئ غريب. قال: ما الغريب يا خالدة؟ تجيب بدهشة: في كل ما يقال عنك، في كل تجريح

fb/mashro3pdf

يصيبك أشعر نفوراً من قائله، يحدثني قلبي بأنك رجل آخر لم يعرفوه. دقائق قليلة، وغادر المنزل هائماً. استقل سيارة أجرة عن عمد، قال للسائق: در بي دورة على البحر. أرجوك سر بطيئاً يا أخي. حين يعود إلى المنزل، يجده غاصاً بالناس والزغاريد، كان خبر الموافقة قد سبقه إلى هناك. اليوم. يدخل في برج الخالدة. يتوقف القلب قليلاً. كان متعباً وفرحاً بحياء. لماذا قال: حتى الفرح خجولاً وصغيراً!

fb/mashro3pdf

ربطة عنق حمراء، قميص أبيض ناصع، بينما البذلة ستكون زرقاء داكنة، ستكون خلاباً يا ولد: قالت خالدة. أجاب وهو يغرق في الضحك: ربطة عنق؟ هذا ما تبقى لي. لا أطيق الربط ولا الربطات من أي نوع. عند دخول المساء الذي يسبق الحفل بيومين. جاءت ابنة الياسر إلى الدار: تلقاها مرحباً كعادته:خيراً يا جميلة. قالت: لمى هنا منذ الصباح، ولن تغادر قبل الحفل، تريد أن تراك. تراني أين! كيف لي في هذا الوقت يا جميلة؟ وخرج معها حتى أوصلها لمنزل الشقيقة الصغرى لها. كانت لمى هناك، قال: ماذا تفعلين؟ ضحكت تلك الضحكة المشروخة. قالت: أراك فقط، احتفل مع البنات بعُرسك، سأرقص لك،لا تخف أنا أيضاً سأتزوج بعد شهور قليلة.

قال: دائماً في حدائق الآخرين ثمرة نشتهيها ولا نطالها. إنها ليست لنا.

قالت: لا أريد الثمرة ولا الحديقة كلها. لا تشرح لي كثيراً. نحن لم نتفق على شيء من الأصل. لكنك لن تذهب أبعد. كان للأسرة منزل على تلة البحر، وكان في المقدور أن يتسع للزائرين. ذهبت لمى إلى هناك مع البنات. الطريق إلى المنزل يبدأ صاعداً ثم ينحدر كأنما ينكفئ على وجهه، منحدر وضيق. قبل أن تصل للبحر، تعبر ساحة كثيفة من النخيل والرمال الناعمة. يتوسط الدائرة الرملية مسجد ومقهى خشبي، فيما تمتد الألسنة الحجرية

fb/mashro3pdf

في عمق الماء، كان الصف الأمامي من النخيل قد تعرض لهجمة البحر، حتى عرى جذوره القديمة.

فبدت وكأنها كرة كبيرة من الغزل البني. منزل قديم محترق، وفي الليل حين تسكن الأشياء ويلين البشر. يجلسون. يتحدثون. يتسامرون. كان المكان ملاذاً لكل متعب ومهموم.

حين هبط الصافي الطريق المنحدر إلى البحر، كان المؤذن يقيم صلاة العشاء، النصف الأبيض من القلب حثه على الدخول في الصلاة. على باحة المسجد البحرية كان الحامد ينتظر. حين فرغا من الصلاة وخرجا تساءل الحامد: من هذه البنت الغريبة؟ تغافل الصافي عن الإجابة، تابع الحامد: قالب فضة يا ولد. أثارت الأرض والناس كلما مرت من هنا أو هناك. أجاب الصافي: مالنا والفضة يا حامد؟ دعنا في هذا الرمل.

ألا يكفي الرمل الجميع؟

fb/mashro3pdf

-٨-

الآن تأتي؟ هكذا صاحت لمى. أنت تعرف أنني هنا منذ الصباح. لماذا تخاف؟ قلت لك لا أريد منك شيئاً. طبعاً مشغول بالعرس والعروس. ذهب بها إلى حافة الرصيف الحجري. لتصرخ هناك بعيداً عن الناس. لحقت بهما ابنة الياسر. حسناً يكون الأمر برفقة شاهد. ازداد توترها وامتعاض سحنتها. بدت متذمرة وغاضبة. قالت ابنة الياسر لها: هوني عليك. سيكون حفلاً رائعاً. سترقصين. يسيران بمحاذاة الماء في اتجاه الشرق حيث باعة الذرة، يلحق بهما صبي ينادي: يا خالة، الولد الصغير يبكي. يقولون تعالي إليه. تستدير الخطوات على أثرها. يريدان العودة. أسرعت ابنة الياسر الخطى. فيما تمهل الصافي ولمى. بعد قليل ستهرع الجميلة صاعدة الطريق إلى طفلها الباكي ويبقيان وحدهما في غابة النخيل، قبالة الليل، وعلى ناصية البحر. إنه الأوان، لو تعرف في قلب العاصمة الكبرى لم تفلت اللحظة الماجنة، تقبض على يده بعنف، لا أحد على الدرب الخالي. والليل يستر كل الخائفين. قد يعودون فجأة يا لمى؟ لن يعودوا. استندا إلى جذع نخلة عريض وحنون. طاف بذهنه. ما فائدة الحديث واللغة؟ ماذا تقاوم بالضبط! لماذا أي شيء واللحظة معبأة؟ ارتكزت بظهرها إلى الجذع الصامت،صوبت عينيها إلى البعيد. في اتجاه الماء نظراتها. كان ضوءاً بعيداً ينس عن مركب صيد صغيرة. تعال. تعال إليَّ هنا، وانظر معي. لم يتحرك. تناولته من أعلى القميص المفتوح، جذبته دفعة واحدة،وإذا به

fb/mashro3pdf

يتخبط في صدرها. فجأة تستدير بظهرها للبحر وتدفعه إلى منصة العود الباسق. لحظة ربما. لثما الجمرتين اللاذعتين، ملوحة وشبق، قميصها الأزرق الخفيف من فك إزاره؟ من ألقمه الحلمتان الصلبتان الناعمتان؟ يدور في المحراب كمريد يتبتل. من هبط به إلى دلتا البطن المشدود، إلى نتوء انفراج النهر، إلى رافدين من عسل وحليب. لا يذوبان فينطفئا، ولا يكتمل اشتعالهما فيقرا رماداً أبكماً. يلتصق الثوب بعظام الجسد الفائر، توسل: يكفي يا لمي. ما الذي يكفي إذن؟ تنحني كقوس أشعلته الألوان. وعد قارب على التحقق، مثقلة بأنفاس الغواية. مُر يا سيد الأحلام في مداري. آه حذار. أترك لي ذكرى منك. أمسح هذه الأرض بأدوات قياسك. لا تترك شبراً لا يحمل رائحتك. آه حذار. موج البحر يندفع ويرتد. تنفجر موجات زرقاء على رمل أبيض، تذكر: لا البحر يموت، ولا هذا الرمل يطير. النخيل شاهد في تجاعيد الذاكرة يكفي يا لمي. توسل. قالت: وددت أن لا استحم بعد الليلة أبداً لكني أعرف أين أخبئك. تضحك فينقسم قلب البحر. ماذا تسمين هذا الجنون؟ قالت: أسميه جنوناً. نهضت قائمة: انس الأمر. ماذا ستفعل غداً؟ أجاب بسؤال: ماذا تريدين؟ قالت: أنا؟ ألم أخبرك من قبل. لا شيء. مجرد سؤال.

fb/mashro3pdf

-٩-

وفي أخر الأمر فإن جملة التفاصيل هي الحياة.

أشعر أن عمري يتسرب من بين يديّ. هذه ليست حياتي: قال لخالدة وهو يهم بالنوم. ولكنها حياتك، أنت تصعب الأمر على نفسك. أنت متعب لا أكثر: أجابت بهدوء وحنان.

- كيف تقولين. أنا لا أراك إلا راكضاً. لا أشبع حتى من النوم!

ـ يـا أخي. يحسدك الجميــع. لماذا تجحد النعمــة. ألا تتذوق هذا النجاح؟

- أي نجاح هذا؟ نجاحهم ربما. أشعر أن حياتي مشاع. لا شئ لي، ولا يجب أن يكون.

- ربما بدأت تشكو، هذا غريب منك. إنه قدرك يا صاحبي، ورغم كل شيء فوجودهم رحمة والله.

- اسمعي يا خالدة: تعرفين، الحياة مجرد خطوات وأنا أشعر أني أطير. لا ألمس الأرض. أركض دائماً. فوق الطرق والأعمال، توزعت بين الدروب والناس والهموم، كأن كل شيء يخصني، فيما أنا في الحقيقة لا يخصني شيء.

- يا صاحبي هم كبار. تحمل. غداً تعرف قيمة هذا الألم. ثم ماذا تريدني أن أقول.

fb/mashro3pdf

- أنتِ تعرفين كم أحبه. أحبه. لا. بل أقدسه. لكنه حتى لا يريد هذا الحب إلا بطريقته هو. أذهب في كل الاتجاهات. أسافر. أعمل. لا أكف عن العمل. الرجل أقام وجودة على وجودي وحدي. ربط مصيري بخطوته. صرت عجوزاً وشاباً، حكيماً وطائشاً، عمران يتخللان عمري، رأسان، قلبان، وخطوة واحدة. أتعرفين ماذا قال لي بالأمس؟: أتريد النوم يا صافي؟ لا ينام إلا خالي القلب. ثم يا ولدي غداً نشبع من الرقاد. الآن ما علينا سوى العمل. اسمعي يا خالدة. أريد أن أنام.

قالت بعتاب حلو: تنام؟ والله لن تنام إلا بعد أن تحلق ذقنك وتستحم. ساعة عمل إضافي. لماذا يندم رجل مسفوح على حلاقة ذقنه أو أن يستحم؟. كيف لرجل أن يندم والماء الدافئ يرشح من رأسه وصدره العاري، وهي تحب أن تراه هكذا. تلصق شفتيها على خده الحليق وتقول: آه هكذا أجمل. حتى في حلاقة الذقن هي تري أفضل. قالت هامسة: تعال. تعال، وأقول معها، اذهب، اذهب. لا تعرف للوقت حساباً، أصعد فوق الأرض ومن على الأرض، أقعد أو فلتنام. أفعل ما شئت معها. اصمت. تكلم. أو لا تفعل شيئاً قط، فقط كن بجوارها. لا تقرأ ولا تكتب. لست بحاجة إلى شيء في صحبة الملاك. أووه أيتها التفاصيل. قال.

fb/mashro3pdf

-١٠-

أمام منزل الرابية ساحة للمرور تتسع للعربات والسائرين. يليها جسد المزرعة الذي أقامة من عراء خشن. بسطوا له فراشاً ووسائد، وضعوا الموقد الكبير بجواره، وبه بكرج القهوة وبراد الشاي. تمدد في عصر النهار كما يفعل عادة في أوقات خلوه من الحركة الدائبة، وراح يطلق كومة من الأوامر: أطلقوا لي كل الماشية. أريد أن أراهم. أين الذرة إذن؟ تتقافز الماشية حول قدميه.

يقفز على صدره حمل صغير، فلا يسبب له إزعاجاً أو حتى يدفعه. يعرفها جميعاً. السلالة والعمر. الوزن. الحالة. يعطي لكل واحد منها اسماً. قال للصافي فجأة:

في حرب تركيا الأولى كان لي من العمر سبع سنوات. كم أبلغ من العمر الآن؟

- ربما ثمانون أو أكثر قليلاً. لك العمر والصحة.

- ثمانون؟ أيش ثمانون؟ في زمان قديم، كانت الثمانون عمر صبي. الدنيا غدارة يا ولد. لكن عشمي في الله كبير، فقط عشرون عاماً أخرى. أوفي المائة، هذا ليس كثيراً على الله.

- تعيش إن شاء الله وتشبع من العمر.

- أشبع من العمر! لا. لا أحد يشبع من العمر يا ولدي، وأنا لست خائفاً من الموت، لابد من لطمة، لكن لم يزل عندي أعمال لم تنجز، رأسي عامر بالعمل، والله أيضاً

fb/mashro3pdf

يحب من يُعّمر في الأرض.

- الأعمال لا تنتهي يا شيخ، المهم الصحة.

- أنت ترى، يخوفني الأطباء من تناول الحلوى. يقولون عندي سكر. جاهلون يا ولدي. أنا منذ متى عرفت الحلوى؟ بالأمس القريب. في أيامنا القديمة، لم يكن غير خبز الشعير والطماطم والفلفل. اللحم في المناسبات والأعياد. لولا أنني شبعت تلك الأيام من الحليب والسمن لخارت قواي.

- يا شيخ الله يحفظك. أنت لم تشرب خمراً، ولم تتناول محظوراً، ولم تعرف الحرام!

- الخمر يا ولدي للحمير. أما الحشيش فكان بعض إخوتي يشربونه، ذات يوم أغشى عليّ من دخانهم. الحشاشون ينامون كثيراً، متى يعملون إذن؟ أما الحرام. فالحمد لله، لم تظهر عوراتي أبداً على حرام. كان لنا جيران ومعارف وأصحاب، كنت جميلاً وفحلاً، ولم أزل. غير أن ما ليس لك. لا شأن لك به. لماذا لا تنادي على أمك؟ أوة يا ولدي. سبعون عاماً من الرفقة الطيبة.

- أنها تجهز لك الغداء. ثم لماذا لا تطيب خاطرها بكلمات طيبة.

- أنا لا أقول، ولكنها تعرف. تزوجتها وهي لم تبلغ سن الرشد. كانت تناديني يا عمي. ويمعن في الضحك.

fb/mashro3pdf

كيف للمرء أن يفهم مائة عام من التفاصيل؟ من أين يأتي بكل هذه الطاقة على عشق الحياة؟ ربما من الألم الذي لا يعترف به، ربما من العوز والجوع القديم، من العناد الذي تأصل في دمه وروحه. مزدحماً كان كالجبال. طيباً وحانياً، صلباً وفظاً، واسعاً وضيقاً، لا يعرف إلا العمل. خبر الأرض وأسرارها في كفه المعجزة. يغني حين يشاء بصوت عذب عميق أخاذ، يروي الكثير من الشعر والأمثال والحكايات فيما تظل تفاصيل حياته أسطورة بذاتها، وحين يطوف به الحزن يتجرع قهوته المرة ويلوذ بالصمت، يعرف كل شئ على طريقته، ولا يخاف. لماذا أخاف؟: يقول.

يصلي ويتعبد ويناجي ربه دون فلسفة ولا بلاغة. يقول: الكذب قديم في الدنيا. هل تعرف قصة يوسف وإخوته؟ ألم أروها لك؟ تعرف لماذا رموه في البئر وهو طفل؟ كان جميلاً يا ولدي، وكل جميل محسود. إخوته كذبوا على العجوز وقالوا له الذئب. يا الله. ما أبشع الكذب. ربما. ربما تكذب النساء. هذا جائز. الرجال، الرجال الحق. لا يكذبون أبداً. عموماً. الله كريم.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الرحى

-١-

ذنوب صغيرة، هي كذلك بالفعل، إنما يقابلها من الناحية الأخرى أشياء طيبة ولا شك. في النهاية، النهاية المحتومة تبقى الرحمة. هذه الرحمة سأنالها. كما سينالها الآخرون، وإلا فأين ستذهب؟ هذا ليس تبريراً لشيء، ولا استناداً على شيء، هذه قناعتي وحسب. إذ أن الله لم يرغب في ملائكة على الأرض.

كان الشهال والصافي يجوبان بالسيارة واحدةً من طرق البلدة النائية. على حافة الصحراء جنوباً. هنا تبدأ الأرض في الاتساع، كأنما تبسط جسدها دون عائق ولا خجل، بقايا حجارة كبيرة من الأسمنت، أشبه بالكتلة الصماء تتناثر على جانبي الطريق. كانت ذات يوم مواقعاً حربية، قبل أن يهل السلام على هذه الأرض. يتذكر الصافي وكأنما تتسع الذاكرة وتتمدد: هو ذات الطريق ياشهال. سرت عليه حافياً أو راكضاً خلف عربات الكارو المثقلة بأحمالها من جوالات الشعير ومواعين التبن، بعد حرب النكسة مباشرة، كنت لم أزل غراً، وكان الموتى كالجراد الخامد علي جانبي الطريق، غرباء في الصحراء العارية. يقوم الرجال بحفر حفر واسعة ويوارون تلك الأجساد بالتراب جماعات ياشهال، بملابسهم وأشياءهم. محفورة في رأسي بعض الابتسامات على شفاه مزمومة، ربما فاجأها الرصاص، ربما زاد الرعب من تقلصها. دم متجمد في الرأس أو الصدر. قلت لأبي: لماذا يموتون هكذا؟ قال مغتماً وبائساً: كلنا سنموت. فيما بعد، كان على أن أعرف أنهم يموتون

fb/mashro3pdf

دائماً هكذا، ليس في الصحراء العارية وحدها. في كل مكان. أي مكان، وليس بسبب الحرب فقط. لآلاف الأسباب يموتون. عرفت أن النقص الذي يحدث ها هنا يقابله زيادة بلا معنى هناك. عرفت أنهم يدفعون ثمناً لولائم لا تخصهم. بدا ذلك ليس عدلاً، والنور الذي يملأ القلب الطفل. أي طفل يا شهال، يبدأ في الخفوت، قليلاً. قليلاً، مرة بعد مرة حتى يكتمل الظلام، وتصير الأيام كل الأيام ظلاماً دامساً. فعلاً غير مقبول. سؤال بلا إجابة شافية. لأجل هذا يا شهال عرفت أيضاً لماذا يلجأ الموتى، من ماتوا فعلاً ومن ينتظرون. إلى باب الله الواسع. ماداموا قد خسروا هذه الدنيا بفعل فاعل لا يزول ولا يحول، فليحاولوا في الجبهة الأخرى.

يرجعون إلى كنوز العدل الفائت. آه يا ابن الخطاب، ويبكون، ويبكون، تهون عليهم أنفسهم كما هانت الدنيا من قبل. يصيرون جاهزون للانفجار. يحيون ما تبقي لهم من عمر، خارج زمانهم بعيداً. بعيداً هناك. مثلما نحن الآن بعيدون. بعيدون جداً لو تعرف. لا نصدق ما يأتي من هناك، والذين هناك لا يبالون بما يحدث هنا. لا فائدة. لن نلتقي. أنت تعرف لا تجمعنا إلا المناسبات، وساعة الكرب العظيم. عند الموت. الموت المتعدد الوجوه. اسمع. اسمع يا شهال الغبرا. لا تحدثني مرة أخرى عن هذا الشيء.منذ أعوام طويلة عرفت الجواب، لا شأن لي. تكفيني نعمة الهواء وحسب.

ها نحن هنا كما ترى. غير أنني أبعد ما أكون. أتفهم؟

fb/mashro3pdf

-٢-

من كل قطر أغنيـــة، هذا البرنامج الشهير يصلــح عنوانـــاً لحياة «سليم الشهال»الغريبة. لا يترك فرض صلاة في حينه، ولا يترك أيضاً طيف امرأة تمر. يقول: ما علاقة الجنس بالصلاة؟ غريبة. قالوا له: اتق الله. قال: لن أكف، ولا يدافع عني أحد أمام الله. قرأ كثيراً، وفكر أكثر. سافر إلى بلاد العالم وعاد، ينقسم على ذاته بقناعة يائسة. يتحدث عن العدالة الميتة، والجمال المشع، والحرية. الحرية. لن يكف عقله وقلبه أبداً عن المقارنة التي لا تجوز بين ما يحياه هنا، وما عاشه هناك. كل شيء مباح، ما عدا حرمه الخاص. يعشق الزوجة والأولاد بقدر عشقه للساقطات، لا يصرخ إلا عندما تلامس النار قدميه. يكذب، يكذب، ولكننا كاذبون أيضاً. باغته الصافي على ساحل البحر متسائلاً: أتحبها حقاً يا شهال؟ أقصد زوجتك! أجاب: بالطبع، لا حب في حياتي سواها. وإذن ما تفعله في الناحية الأخرى. ماذا تسميه؟ قال: هو عهري الخاص، ولا يمتد إلى سواي. راوغه الصافي: آه عهرك الخاص. لكن إن كان حباً فلماذا لا يكفيك. تبرم في الجواب: يا أخي إنه يكفيني ويزيد. إنني لا أحقق رضاي التام إلا معها، ولكنني غير قادر على التوقف. ربما. ربما أنت على صواب. لكن لو كان هذا الشيء يحقق لك الامتلاء، ما وجدت حيزاً لغيره، ربما أنت تبرر. احتد فجأة: أنت لا تفهم هذا جسدي يتمدد برغباته. كقضيب تحت الشمس، لكن في الليل يعود أدراجه إلى الأصل.

fb/mashro3pdf

جميل والله أن يتمدد جسدك. لكن ماذا لو أراد جسدها هي الأخرى أن يتمدد قليلاً ثم يعود إليك؟ كان غضبه قد شق له مجرى فانفجر: انت ابن زانية - ماذا تريد؟ هي قانعة يا أخي. هون عليك يا رجل. أنا مثلك اكذب. ولكن حبك هذا لا يتعدى ذاتك، أعضاءك، خاصة السفلي منها،أنت في الأصل لم تعرف ما الحب؟ مازلت في طور الاشتهاء، الحيازة، عكسها تماماً يا شهال. ليس لنقص في أدواتها. لا. أنت تعرف. أن لها من الأدوات ما يفوق أدواتك، ولكنها تحب. تحب بمعنى أن تكتفي، تمتلئ،وتنغلق المسافات لديها. يحظر حتى على الهواء المرور.

يا للخراب إن كان جسدها أيضاً يرغب في التمدد.

أقول لك: هي تحب يا صديقي فاطمئن. أما أنت فكل الذي تفعله، هو فائض طاقة للجسد. صحيح والله هو فائض طاقة للجسد. تماماً كما تقول. لكن لماذا لا تذهب هذه الطاقة لمن يستحقها؟ حتماً تريد جواباً يا شهال، ربما لا يرضيك هذه المرة.

قل. قل يا حكيم الزمان.

أنك ببساطة أعمي، وليس للأعمى إلا أن يقبض على الشيء بيديه، وكل ما دون ذلك. ظنون. مجرد ظنون.

fb/mashro3pdf

-٣-

إن من يحيا مع مريض لفترة طويلة يصير مع الزمن مريضاً أو طبيباً. قال لأمة: ربما أتأخر قليلاً غداً في المجيء. إنه يوم إجازة. أنام لفترة أطول. كانت الأم تعاني منذ سنوات، تشكو من ارتفاع الضغط، السكر، تقلبات الكلي، أجرت عمليات جراحية من قبل، مسكينة هي المرأة التي تتزوج من جبل، وفي منزل الرابية تحيا منذ ثلاثين عاماً. بعيداً عن زحام العمران والناس. كان ذلك اختياره في الأصل، وهي لم تكن أكثر من تابع للجبل.

قالت ذات مرة: من هنا إلى هناك خطوتان ولا غير - تشير إلى قرب المسافة بين الرابية وبين المدافن - غير أني أرجو الله ألا يعذبني: يوم للنزاع (نزع الروح)، ويوم للوداع. كانت مهمومة على الدوام. عندما تقص حكايتها تصاب بالدوار. لم تهدأ لها حركة، أو يستقر لها بدن، وهي تتبع قطباً لا يكف عن الدوران. مشغولة بالعدد الكثير الذي خلفته، بالماشية، والدواجن، بولائم السيد التي لا تنتهي، بالأسرة المتباعدة، بالمرضي، والتلاميذ، والأطفال، بتموين المنزل من الدقيق والعدس والسكر، بالألم الذي لا يغادرها إلا قليلاً.

قالت لخالدة: حافظي عليه. لا أعصاب لديه وهو معذور، أشتري لي فناجين جديدة لا تظهر إلا في العزاء. تحب الله وتثق في المكتوب، تبكي عناءاتها وتلازم الصمت. كم يصنع الألم قديسين:قال. غير أنه كان ملتصقاً بالشيخ أكثر. بحكم الأعمال والوقت. قالت: أنت

fb/mashro3pdf

مثله. عاصي القلب ولا ترحم.

عصر أحد الأيام رقد الشيخ في إثر واحدة من النوبات التي تلاحقه. يغشى عليه، ترتفع الحرارة، أحياناً يهذي. يسرعون بالأطباء، يحفظون العلاج حتى دون طبيب، يفيق بعد وقت قصير. يجدها إلى جواره تبكي بحرقة: مجنونة أمك يا ولد، تظنني سأحيا حياة النسر. يخاطبها: يا حاجة، أنا عندما أذهب إلى هناك، فلن أذهب إلى صحراء، أمامي أهلي بأسرهم. أمي وأبي وأخوتي وأحبابي، أقول لك: إذا لم أجد أحداً هناك سأرجع، ويضحك. فيما دموعها لا تكف، إلى من تتركني؟ ألفت الحياة في ظله، والسير في ركابه. قد تشكو قسوته ونأيه، صلفه وعدم مبالاته، لكن الحياة هكذا. لا أكثر ولا أقل.

قالت للولد: خذ. هذه عشرة جنيهات. من نقودي الخاصة. أشتري لي نصف كيلو من لحم عجل صغير. لا أريد منكم شيئاً. أنتم لا تفكرون إلا في أنفسكم والعمل. لابد لي من الاهتمام بنفسي. أنا عجوز. قال: سأحضر يا أمي. قالت: لا. خذ. خذ. لو فكرت بي لأحضرته قبل طلبي إياه. أنت مثله. لكني أسامحك. خذ. خذ، وتدس الجنيهات في جيب سترته.

fb/mashro3pdf

-٤-

في ناشئة ليل غريب، أسند رأسه إلى راحة يده اليمني، دخن سيجارة في السرير، هذا ما لا ترضاه خالدة. سكتت على مضض. قال: أمي ليست على ما يرام. أجابته: لا شئ، مرهقة من السهر مع الشيخ. قال: لا. ليس السهر، وجهها شاحب والهزال يستبد بها. قالت: خذها للطبيب وأطمئن. سأفعل. كانت لمّا تزل في منزل الرابية، وهو حاول أن يستلب ساعة نوم، على أبواب فجر، دق الهاتف اللعين. طرقه فزع الليل المعتادة. ذهب برأسه إلى قائمة البلاء المتوقع. يبتدئ بالشيخ، ربما عاودته النوبة، ربما شب حريق كالذي حدث منذ أعوام قليلة، دار بالمخيله كاملة على صنوف الهم، ولم يتذكرها مرة.لماذا؟ ربما لأنها بعيدة عن العجلة الراكضة، لأن آلامها الطويلة علمته أن لا شئ يحدث فجأة في مدارها. صرخ الهاتف: تعال على عجل. دقائق ويقطع الطريق إلى هناك. كانت هي. هذه المرة هي. يحملها بين يديه إلى المستشفي، يأتي بالأطباء من الأسرة والمنازل. قالوا: الضغط عال. لا بأس. هي معتادة على ذلك. وجهها مشوب بحمرة داكنة. الكلمات تتمطى فوق شفتيها كأنها لا تريد أو لا تعرف سبل الخروج. يشرق صباح النهار، ولا يأتي المساء إلا وهي تنطق بالكلمات: أتعبتك يا بني، متى أعود للمنزل! وهذا الشيخ لماذا يحضر والدنيا باردة؟ اسمع، خبأت لك فطائر بالعجوة خذها من عند سريري. قال الأطباء: تبقي للغد ويذهب هو لبعض الوقت. تسأله خالدة: لماذا عدت؟ قالوا

fb/mashro3pdf

هي بخير، لا يعرف أن يقر، يتصل بالأطباء، ماذا يحدث إذن؟ قالوا: هي الجلطة هذه المرة، ويفر إلى السعير، الأمل ضئيل، لكنه يتشبث بالقليل، يخور الجسد الهزيل. يخيم الصمت الثقيل، الشيخ في الغرفة المجاورة يدير الحياة على هواه. الأطباء يدخلون، ويخرجون، هذا الصنف من الناس يارب. أم خالدة تدخل، وتخرج لتهمس في أذنه: يا ولدي لا فائدة. هو لا يسمع. واقفاً كالثلج المر. يتجول في مرارة: أعرف. اعرف ماذا يعني الموت. حملت أمواتاً بلا حصر، شاركت أهل الموتى في دفن موتاهم. غير واثق من غيابها المحتمل. مرت بأكثر من هذا سوءاً. أليس كذلك يا خالدة؟ نعم. نعم. فجر الجمعة يهل. يخرج الطبيب من الغرفة صامتاً. آه.. هذا هو الموت إذن؟لكن من أدراني؟ سأدخل وأتيقن. كالأعمى سار إلى سريرها. ربما كان حشد هناك، غير أنه لم ير أحداً. نام على صدرها. حدق في العينين النائمتين. أشتم العبير الذي لا يموت. مّرغ وجهه في عنقها. ملاءتها. ثم انتصب واقفاً. يحدق، لا دموع هناك ولا التياع. لا أثر عليه لنكبة ولا ضياع. لا. لم يذهب به الموت إلى أبعد من السرير. يفكر ويعمل. أقام المقارنة بينهما في لمح البصر. فيما بلغ عناده ومقاومته مداهما. توجت هي استسلامها الأبدي بالغياب. الغياب المطلق. يفكر في السرادق، في قلب الحشد، ينظر إليه مجسداً وجاثماً أمامه، في كرسيه الأحمر الواسع. ينظر إليها فيما وراء الكائن والمحسوس. ما أسرع تحول الكائن.

يتساءل: أيهما أقوى؟ من حشد طاقته للمضي خطوة للأمام.

fb/mashro3pdf

للوقوف في وجه كل ريح. أم تلك التي بلعت كل المرارات فآثرت أخيراً أن تستسلم. تُخلي يديها من كل الخيوط. أن تتحلل من كل ارتباط. أملاً أو يأساً. لا فرق. علقت كل آمالها في بلوغ الشاطئ المقدس. الاستسلام يحتاج إلى طاقة. قوة غاشمة. هذه أول مرة. أول صدع في القلب. أول شرخ في مرآة الروح. يقول الواعظ المحترف: من رحمة الله بالعباد أن الحزن يولد كبيراً، ثم يبدأ في الضمور. يا للكذب! يحلم لو أن العمر يبدأ بالشيخوخة ثم يتقدم في اتجاه الشباب والصبى، وينتهي الأمر (ما دام لابد له أن ينتهي) بالطفولة. آه. نموت صغاراً وأطفالاً، سعداء ولاهين. حتى ليخجل الله من عذابنا أمام كل تلك البراءة.

يواصل الغوص: ماذا أقول له الآن؟ أنه لن يراها ثانية؟ كيف سأقول؟ وكيف سيرد عليّ؟أن تفكر يعني أن الحزن لم يتمكن منك بعد. يندفع إلى غرفة الشيخ صائحاً. لنعد. لنعد إلى البيت. في الاندفاع المفاجئ تتوقف الأسئلة. مازال يشغله الشيخ حتى في وقت الروع. صادقة يا أمي: أنت مثله جاحد، ولا لبن في صدرك. يجلس إلى جوارها. صامتة. ساكنة. على الدوام كانت هكذا. هذه المرة بلا دموع. ترتسم السكينة الراسخة على محياها، والذين يبقون على وجه الدنيا. يفكرون. تصريح الدفن. المقبرة. السرادق. آخرون ينشغلون بغسيل الجسد النظيف. تجريده من كل شئ. ملابسه وحليه، ولفه برداء فقير من القطن. ثم يدسونه في باطن الرمل. الصورة باهظة المعني. تكاد تكلف المرء عقله. يبكون، لماذا

fb/mashro3pdf

لا تبكي أنت أيضاً؟ أنت مشغول في التفاصيل. واقف على رأس القبر تستحضر العمر القديم. تغوص مع الرمل أبعد، وأبعد. تراقب كل شئ عن كثب. لماذا؟ ستمضي الحياة يوماً وراء يوم. فقط ستمضي بعد ذلك دون أم. وأن كل يوم جديد سيشرح لك المزيد عن معني تلك الخسارة.

ثلاثة أيام مضت. هدأ الناس قليلاً. هو يبدأ بالتعب. ليس أكثر من البكاء. هذا ما اشتهي يارب. في انتصاف النهار. في الحي الشرقي من المدينة. صعد بناية بلا تفكير. عند الطابق الثاني توقف. دق الباب. فتحت له بصدرها النهم المدرب. شعرها الأسود الطويل ينسكب على أكتافها. لا تحية ولا سلام. أخذته من يده إلى حيث تعرف. تمدد على الأريكة ساكناً كقبر. كانت تتحدث وهو لا يسمع شيئاً. تعرت، وصارت تنفخ ناراً في رماد جاثم. يقرأ من كتاب بعيد: (كانت تلوكني برحمة أحياناً وبغيظ وقسوة أحياناً أخرى، أظافرها أوغلت في ظهري. آلمتني. اشتطت غضباً، صفعتها. تنمرت، ودفعتني إلى الحافة. عدت لركلها بقدمي. أمسكت بي بشراسة خشنة. حررت نفسي وتوسطت صدرها. جعلتها تحتي. كانت هائجة وكنت غاضباً وحزيناً. ماعدت إلا على صراخها الفاضح. تنقبض وتنبسط. ساقاها حولي كالقيد. كانت عازمة على اعتصاري وكنت أشتهي البكاء. حين خارت طاقتي سألتني: أنت الآن أفضل؟ أجبت: لماذا أنا هنا؟ ابتسمت دون جواب.

قالت عند عتبة الباب: ليس شرطاً للبكاء أن تري الدموع. أبك على

fb/mashro3pdf

طريقتك. تعال متى شئت، وواصل الهبوط على الدرجات القذرة)

حين عاد إلى المنزل اشتاق إلى الليل. أين الليل الرحيم؟

قال: تذكر ما كان في الظهيرة. لم يتحقق إن كان الأمر خيالاً أم حقيقة. قفز من ذهنه طيف باهت: لم يجر الأمر كما رويت. قال ربما جرى بطريقة أخرى. كيف جرى؟ حدق في الحائط. واصل الطيف رسوماته: فكت القميص على مهل وقور (هكذا فعلوا أيضاً مع أمي) وكنت ساكناً لم أتحرك. (لا تتحرك الجثث) ألم تكن باردة ومعتمة؟ ضامرة البطن، وملتصقة الساقين؟ كانت تدفعني، وكانوا يدفعونها. لأغوص. لنغوص. أسفل. أسفل. دائماً إلى أسفل. شئ كان يلسع عيني. دمعة أم حبة رمل؟ ورأيتهم يخرجون من رأسي صفوفاً طويلة. يقفون على حواف الأرض. القبر. جسدي، ويحدقون فيَّ. أكانوا يعزونني أم يسخرون من عريّ؟ صرخ ناقما. كفي. كفي. حتى أدرك الصوت: ماذا بك؟. أنا ماذا بي. لا شئ. لا شئ. لكن الدرجات التي هبطت عليها كانت قذرة.

fb/mashro3pdf

-٥-

أريد أن أتعلم منك يا أستاذ. سأكون شاكراً لك. أنت لا تعرفني. لن تندم على ذلك. أقسم لك. هذه كلمات البداية على لسان «رشود الزنان» . هو ثلاثيني العمر، يمت للشهال بقرابة بعيدة. رشود ـ شبهة الوجود السري، الوجود الذي لا يحمل وجوداً ـ سيعمل بقسم قريب من العلاقات العامة. يبدو نظيف الملبس. يوحي وجهه بالأهمية لمن لا يعرفه. يستغل هذا الوجه، والسنوات الضالة من العمر في تلفيق ثوب مستعار لحياة مجهولة. لك أن تصدق ما يرويه من حكايات أو تتركه للوهم الواسع الذي يتجول فيه بحرية الأمراء.

قال: أريد أن تثق بي. هذه بداية حياتي في العمل الرسمي. أجابه الصافي بحسم: تعلم يا رشود، ليس هناك أسرار ولا أقفال.في عيني الولد نهم مريع، ليس للعلم و حسب كما يقول، بل للحياة بأسرها، للسلطة والمال، للمكانة، للأسرة، للنساء، للوصول إلى أبعد النقاط. يحفظ أنواع السيارات، أسماء الفنادق الكبرى، هواتفها. لديه موجز مختصرـ كصحيفة الحالة الجنائية – لكل من يراه أو يعرفه، يبجل رجال المال والأعمال. ربما يعد نفسه واحداً منهم. بعد وقت حين تزول رهبة المكان والوجوه الملاصقة في العمل. سينطلق اللسان الزرب بالعجائب. حكايات من دفتر الشاب الذي تغرب،و جال في البلاد وعرف العباد. صدق أولا تصدق. ليس مهماً. المهم أنك تسمع وإن كنت مندهشاً فأذهب وراءه وتقصي الخبر. البسطاء

fb/mashro3pdf

من العاملين معه يمرحون، يغمسون في بحر الأكاذيب رغيف أحلامهم اليابس. رشود ـ موهبة الاحتيال في الحياة على الحياةـ قال مرة أخرى: جربني يا أستاذ، أنا أصلح في كل مجال، علمتني الحياة الكثير. يبتسم الصافي:هذا واضح يا رشود، ولكن الحياة علمتني أيضاً. ذات صباح شتائي. جاء حمدان الشهري للمرور على الأصدقاء. جلس وتناول قهوته مع الصافي. صحيح. تمام يا أستاذ. حين هم الشهري بالمغادرة صحبة رشود إلى باب سيارته، منحه من الاحترام ما أرضى غرور الرجل الكبير، وتبادلاً أرقام الهواتف ثم ضاع الحدث كله من دائرة اهتمام الصافي. لكنه لن يضيع من ناحية أخرى.

fb/mashro3pdf

-٦-

في مقهى السلطان جلس الشهري ورشود يدخنان الشيشة، منهمكان في الحديث والابتسامات. رداً على تحية عابرة من زجاج سيارة تمر قرب الرصيف. قال الشهري: هذا رئيسك في العمل يا رشود.

أجاب الزنان: أنت تعرفهم أكثر مني. لا أحد في هذا البلد يحب أخيه أو جاره.

رد الرجل: هل يضايقك في العمل؟ قال الزنان على عجل: لا. أفعل ما يطلب مني. ليس بيننا سوى العمل. واصل الشهري: سمعت أنك تريد أن تعمل في تجارة قطع غيار السيارات؟ هل تعرف في هذا المجال؟

أجاب: لقد عملت من قبل في العديد من الدول في هذا المجال. إنه مجالي.

- ومتى تبدأ؟

في القريب العاجل. وظيفتي حفظ مكان ليس إلا. لا أعول عليها. إنها لا تكفي سجائري. انتظر وصول شركائي من الخارج.

- لماذا تشارك غرباء؟ أنت تقول: لا أحد يضمن شيئاً هذه الأيام.

هم يصرون علي الشراكة. يعرفون ماذا تربح هذه التجارة، ثم الثقة يا أستاذ.

- فكر في الأمر جيداً. لا تتعجل، وإذا احتجت للمساعدة

fb/mashro3pdf

فلن أتأخر عنك.

في هذا البلد الصغير لا يجيدون سوى الكلام، لا يسلم المرء حتى في حياته الخاصة.

ـ اسمع يا رشود، افعل مثلي. ما تحب أن تقوم به قم به ولا تنظر إلى الناس، أنا أعرف ماذا يقولون. طز. لولا تعرف أيضاً. نحن لا نهتم. نحيا حياتنا وحسب.

معك الحق. إنني اعتبر لولا أختي. إنهم يغارون منها هناك. تافهون وحمقى. حذرتها من التعامل مع هؤلاء الناس.

ـ أخبرتني يا رشود بالفعل. قالت أيضاً: أنك شاب طموح وأمين. اسمع، تعال معي لنكمل الحديث في المنزل. لديّ شيشة أيضاً هناك. لنرى ماذا ستفعل في مشروعك القادم.

هناك كان الليل، وكانت لولا. تمهد الدرب لعابر جديد. كان الشهري يبتلع الاحترام والتقدير، فيما كان رشود يتفحص خارطة المكان، يحصر على مهل قائمة الغنائم التي لاحت فجأة.

fb/mashro3pdf

-٧-

كم من الوقت تحتاج امرأة وأفاق ومغفل لارتكاب مهزلة؟ هل يكفي عام مثلاً؟ ربما ستة أشهر أيضاً للمزيد من الحبكة والإتقان. في الهاتف كان يصرخ: أريد أن أراك يا أستاذ. لا. خارج العمل. المشكلة تخصني. قال الطرف الآخر: سمعت من الشهال أن مشاكلك لا تنتهي.

قال رشود: لن يجدي الحديث في الهاتف. أراك فقط. أرجوك. إن مستقبلي يضيع.

قال الأستاذ: في المقهى إذن. قاطعه الزنان: لا. لن ينفع. أريد أن نكون بمفردنا. مشكلة كبيرة يا أستاذ. سأنتظر بمنزلي. لن يكون سوانا. لا ترفض. من أجلي هذه المرة. قال الأستاذ: ليكن.

كان الدخان قد تسرب من تحت الرماد، اشتعلت العيون بما ترى، وأكملت الظنون باقي فصول الرواية. تحدث من رأى وتحدث من سمع، وبات الأمر أكبر من حشره في ثوب الكتمان.

في المنزل الضيق كان الزنان على باب البناية ينتظر. حين دلفا إلى الداخل اختار الصافي كرسياً واسعاً في الصالة الداكنة وجلس. هاتف رمادي كبير يتوسط المنضدة لعله هدية فقيرة من أحد معارف الزنان.

قال رشود: هذا الهاتف أحضرته من الخارج، إنه راديو ومسجل ومنبه أيضاً. كانت شفتاه الرفيعتان تنتهيان بخيط رفيع أبيض. لونه الأسمر المشدود بدا باهتاً، فصار كأنه رماد محروق. قال أنه

fb/mashro3pdf

سيعد القهوة، قهوة مخصوصة يا أستاذ. بالهيل. تعلمت الحرفة هناك. دائماً هناك يا رشود. لماذا هذه المرة هنا؟. قال: سامحني على الفوضى. منذ عشرة أيام وأنا أحيا في الفوضى. ليس في المكان فقط. رأسي. رأسي يا أستاذ، أعصابي. ماذا فعلت بالضبط؟.
أجاب الصافي: لم يحدث ما يستحق هذا الصراخ، تحولت من مكان إلى مكان، لا يبعد بينهما سوى دقائق ثم أنه مجال عملك الأصلي، لماذا الصراخ، تجولنا في الأعمال المتنوعة عشرات المرات، عشرات الأماكن، نتعلم من كل مكان شيئاً، نكتسب الخبرة والتجربة. كان يُهونّ من الأمر وكان يعرف التفاصيل الدقيقة، ثم أكمل: لا تعذب نفسك. ظننت المشكلة أكبر.
قال الزنان: يا أستاذ. أعرف رأيك فيّ. لم يخبرني أحد. أنا أفهم ما تقوله عيناك. عبورك السريع لي. عدم إكتراثك بالأمر، ولكنني خُدعت. أشعر أني غريق بلا قرار. قال الصافي: لا أفهم من هذا شيئاً. أنت تهول وتضخم الأمر، كما أنك تضيع وقتاً وأنا أريد الذهاب.
قال رشود: بل هي يا أستاذ. تساءل الأستاذ: ومن هَيْ يا رشود؟. قال: هي ولا سواها. لولا. سبب دماري كله يا أستاذ. اعتدل الصافي في كرسيه، ودون أن يلحظ الزنان شيئاً، مد ببصره إلى البعيد وبلا صوت قال في الأعماق البعيدة: أكمل قصتك الآن يا زنان. بالأسماء كاملة وصريحة. دون تورية. هات ما عندك. قال رشود: لقد تغيرت منذ شهر يا سيدي. تغيرت هي بالكامل. تتهرب مني. لكن إلى أين؟. قطعت كل الخيوط. مجنونة. ثم بدأت اللعنة تلاحقني. في

fb/mashro3pdf

العمل، في الشارع، في المنزل.

حتى في نفسي. ملعونة ملعونة يا أستاذ. تساءل الرجل: ربما تحبها؟ لا يتحدث بمثل هذا الألم إلا عاشق؟

أنا لا ألومك. العالم هكذا، لكن العالم يعرف ماذا يريد؟ ماذا تريد أنت؟ أجاب: لقد اتفقنا على كل شيء، وبدون مقدمات تركتني هنا. في القاع. قاع البئر. قاع كل شيء. أنا فقط وحدي هناك فيما هي عادت إلى ما كانت عليه،لم تخسر شيئاً. ما الذي كان بيننا أذن؟ نكتة؟ ماذا أقول؟

قال الرجل: إذن ما عليك سوى أن تعاود الصعود وحدك. آه هذا صعب. لكن لا بأس بالصعب ستصل إلى البر. ربما تحتاج بعض الوقت لكنك ستصل،وسيغدو كل الأمر مجرد ذكريات مؤلمة أو جميلة. لكنها تظل في النهاية ذكريات.

هذه الحاقدة السافلة لن اتركها تهنأ بالفرار، سأدمر كل شيء في طاقتي تدميره. كان رشود الزنان قد أستبد به الأمر، حاقت به الخسارات من كل جانب، وكأن الأمر كله كان محض وهم. حين ذهب للصافي في المقهى النائي قال له: تعرف، إنها لا تحبك، ولكنها تخشاك. أجاب الصافي: دعك مني ومنها. اهتم بشأنك يا رشود. هذه الليلة كان الصافي قد عزم على استجلاء التفاصيل، بدا شارداً وغير مهتم، فيما الزنان يريد أن يفيض، يتخلص من أعباءه الثقيلة. قال الصافي: كيف أساعدك يا رجل، وأنا حتى لا أعرف التفاصيل. فكر صامتاً: إن الرواية الكاملة تستغرق زمناً في الحياة،

fb/mashro3pdf

ربما سنوات وسنوات. لكن القارئ العجول ينتهي من الأمر في ساعة واحدة. قال لنفسه وهو في صمته يجوس: أريد أن أقرأ رواية الزنان كلمة كلمة،أريدها موثقة بالوقائع. أريد أن أرى الشهود، أرى الأدلة والبراهين، أعاين مكان الجريمة، الأدوات المستخدمة، أفرغ محتويات الشرائط كلها، أضاهي الأصوات، البصمات، أريد اعترافات تفصيلية، أسمع دفاع المتهمين،أن أشترك كقاضي، وشاهد، ودفاع في هذه القصة، أن أدخل في لُبّ الرواية، أشارك في فصل منها لو تسمح الوقائع، أقفز من مقعد المشاهدين إلى قلب الحدث، أريد أن أغلق المسافة بين الليل والنهار، الوهم و الحقيقة، القديسة والداعرة.

امتد ذلك المساء إلى ساعات الصباح، افرغ رشود كل محتوياته في أذن صاغية، في الحقيقة متلهفة. مرات كثيرة غادر المكان والتفاصيل التي تنسال من فوق الآسرة والشراشف، بهو الممرات الضيقة، المنازل المهجورة،هذه الغرف بالذات. ها هنا. هذه الأريكة، لو تنطق هذه الأريكة يا ولد. تحدث عن كل شيء. كل شيء تعني أن الأمر بدا كحفل جنسي بالغ الإثارة والغرابة.

قال: خذ. هدايا وخطابات. خذ. أغنيات وآهات. خذ. عُرى فاتن، وشائن أيضاً. ربما لأنك بعيد عنه؟. يكاد يُصدق: لا يمكن للجمال إلا أن يكون داعراً. قال: كفى يا رشود، أمامنا وقت للمزيد، الآن اهتم بنفسك فقط، تجاوز هذا الوخز.

قالت الأعماق الغريبة: غادر يا رشود قاعك الأسود، غادر مكان

fb/mashro3pdf

الجريمة،ارحل من هذه الأرض، دع مكاناً لسواك يا أخي. هذه البئر السوداء. هذا الوخز. يرجوه سواك أيضاً. ربما نحن مرضى بالفعل! ظمآن أخر يريد جرعة ماء واحدة. حتى ولو كانت مسمومة. مسمومة بأنفاسك. لا يهم. كل الآبار مُسممة. نحن دائماً ظامئون ارحل. ارحل. فيما كانت يد جريحة تصافح الأستاذ الشارد عند ناصية الطرق.

fb/mashro3pdf

-٨-

في أواخر العمر، تفر الأشياء. يبدو وكأن الحياة تطوي أوراقها وتستعد للمغادرة على عجل.

النوم: هذا السُبات الجميل، يفر هو الآخر، يصير متعذراً، صعب المنال. لماذا؟. يقول الأطباء: أن حاجة الجسد للنوم تقل، تكفي سويعات قليلة للبدن الهالك، البدن الذي لا يفقد طاقة، ولا يبذل جهداً، لا ينضح عرقاً، ماذا يحتاج؟ ربما هناك سبب أخر يدركه الوعي البعيد.

الوعي الكائن في أعماق النفس ربما يقول: أن ما تبقى قليل، ثم يكون النوم بلا نهاية. تأجيل مؤقت. يدركه الوعي العجوز فيقاوم الغياب القريب بالأرق، على الرغم من أنه يعرف أنه سوف يمضي أيضاً حتى لو ظل مستيقظاً حتى أخر لحظة. إنه وهم البقاء، خدعة الخلود. عند منتصف الليل يسأل: كم الساعة الآن يا ولدي؟ يجيب: الواحدة ليلاً يا شيخ.

• إذن هانت يا ولدي، بعد قليل نصلي الفجر، ثم ننام ساعة.

• نوم الليل أفضل ياشيخ، حاول يا أبي، لقد أخذت جرعة كافية من الأتيفان.

• أقول لك، الحبوب لا تفعل شيئاً. صراحة، أنا لا أريد النوم الآن.

قبيل الفجر تستسلم العين المكابرة لسنة من نعاس، دقائق قليلة

fb/mashro3pdf

يصحو طالباً الماء: يا حاجة. يتناول الماء ولا يجد مَنْ ينادي. إذن ما الذي حدث، وهو لا يعرف؟ تتقطع الذاكرة وتقف حين تريد. تعبر ما تشاء من أمكنة وأزمنة. لا تستطيع أن تجادل. أن تصحح المكان أو الزمان. هذا زمانه هو،

ومكانه هو، ولك أنت زمانك ومكانك أيضاً. ما العمل؟ يعود للسؤال:أين الحاجة يا ولدي؟ لا الصمت يُجدي كجواب، ولا الجواب يغير الحقيقة.

إذن أين ملابسي؟ يرتدي ملابسه، يمسك بعصاه ـ عاداتِه الملونة ـ يهتف: هيا لنذهب! إلى أين تريد؟ قال: في الطريق سأخبرك. أي طريق كان يقصد سوى طريق الوهم؟ الأطباء. قال واحد منهم: أريد أشعة على هذا المخ. يسافر للعاصمة، ويجري الأشعة المطلوبة، وما دام الأمر قريباً فليذهب إلى واحد شهيراً من الأطباء لعل وعسى. قال: مثلي يستحق الرعاية،

لا جدوى من النقود الآن. أدفع، ادفع ولا تهتم. تأخذه النوبة فينأى، يغوص في الزمن البعيد ثم يعود محملاً بجمال الأساطير، ينادي أهلاً وأصحاباً لا جدوى من نداءهم،

تقل رغبته في الطعام، في حين ظل الجسد/ الهيكل عظيماً فخيماً، كأن الداء يخشى الاقتراب منه. حين شاهد الطبيب الكبير فيلم الأشعة قال: إنها لمعجزة. هذا الجزء يا سادة يبدو وكأنه صفحة مكشوطة، قطعة من الإسفنج الجاف، لا توجد خلية نابضة،

كيف يحيا هذا الرجل؟ لأن الله يريده أن يحيا ولأنه لا يريد أن

fb/mashro3pdf

يموت يا طبيب. العلاج الكثيف الذي يتناوله لا يفعل أكثر من تحريك أمعاءه.

بدا وكأن الجبل أخذ في التفكك. لا. حياة النسر. لا يا شيخ. النسر أو الذبابة ذات المصير!

في لحظات الصحو يغني: بحر جاري، وأني ع الدار ضليت [بقيت].

- أخشى عليك الوحدة، أولادك صغار، وزوجك رقيقة.

• تبقى إن شاء الله سندي وملاذي، يا شيخ أنت أقوى من حصان.

- حتى الحصان يا ولدي كان طوع يدي. إيه زمان بعيد. لكن أنت.

• لماذا تفكر فيّ؟ أنا بخير، لا ينقصني شيء، حبك غطائي يا شيخ.

- يا صافي. الحب لا يدوم، وأنا حين أرحل، تعرف أنك وحدك، قلبي يشفق عليك.

• لا تخف، وتوكل على الله.

- لو كان الأمر بيدي لزوجت الأولاد وكفيتك الهم.

• يا شيخ. الله يكفي الجميع.

- نعم. نعم الله يكفي الجميع.

عما قليل يذوب الصحو في تجاويف سوداء. هيا لنذهب إلى البحر: قال. في السيارة يقول: لكن الطقس بارد. هذا صحيح، إنه

fb/mashro3pdf

بارد بالفعل. كيف يشعر بالبرد إذن ولا يعرف أين نحن بالضبط؟ يتساءل مرة ثانية: من ذهب بالأبقار إلى غرب النيل؟ لكنها لم تذهب يا سيدي، هي بالداخل يا شيخ.

يصرخ: تكذبون. ينطلق الصافي ويحتضن عجلاً صغير ويقف به أمامه في صحن الدار: ها هو يا شيخ. يسأل بارتياح: ومتى عادت إذن؟ يجيب: الآن. الآن عادت يا شيخ.

قال على الدوام بحسرة: خسارة أن يموت الرجال. لكن لا مفر. يريد أن ياكل أسماكاً مشوية، أن يرى الصحراء على امتدادها، يريد أن يعود كما كان. لا أحد يستطيع. تُرهق الأعصاب، تتداعى القوى، تتداخل الأوقات، يغوص في تلافيف الزمان. كم أبلغ من العمر؟ ماذا يهم؟ حلقت خالدة له ذقنه مازحته قليلاً.

ـ ما قيمة الحياة يا خالدة؟.. وكل شيء يذهب!.

• أنت رجل مؤمن يا عم.

ـ أجاب مؤمن نعم، ولكنني حزين. أكره أن تسير الأمور على نقيض هواي.

• لا أحد يفعل كل شئ، وأنت فعلت الكثير.

ـ الحمد لله. أين الأطفال؟

• بالمدرسة يا عم.

ـ لعنة الله على المدارس. وقت ضائع، والحياة ليست في المدرسة.

• كأبيهم يا عم. لماذا علمته أذن؟

fb/mashro3pdf

ـ ليقرأ لي مستندات الأرض خاصتنا. انظري. ماذا يأخذ الصافي من وراء العلم؟

• القيمة ومنفعة الذات والناس.

ـ القيمة؟ القيمة يا ابنتي في الإنسان. أنا ذهبت للشيخ ليوم واحد، صفعني على وجهي ـ لا أدري لماذا ـ دفعته في صدره وخرجت، لم أعد حتى هذه اللحظة. أنا صنعت ما أريد. احضري لي ورقةً وقلماً. أحضرت له دفتراً قديماً وقلماً، أمسك القلم بصعوبة، صار يرسم حروفاً متراصة. إنها اسمه. هذا يكفي، والراديو يأتي بالأخبار والأحاديث. ماذا نحتاج أكثر؟

وحين يدخل في برج الغياب، تبكي خالدة، ترحل من المكان الذي لا صوت فيه: لا أطيق أن أراه غائباً. ما من وقت معلوم لشيء، وحين يصطدم الطفل بالحائط ويبكي. ينهض الشيخ من غيابه غاضباً: لماذا. لماذا؟ من آذي هذا الصبي؟ حرام. حرام والله. يا حاجة. شئ يتفطر ولا علاج. قال: لا تذهب بعيداً، كن بجواري. قال دون أن ينطق: نعم. نعم يا سيدي. عشرون عاماً إلى جوارك، ها أنت الذي يخل بالاتفاق. من أجلك ودعت الحلم/السفر، مزقت خرائط الرحلة، غيرت اتجاهي، قبلت ما لم أكن لأقبله، فعلت مالا أحب، بقيت بجوارك ودفنت حلمي بالرحيل، رضيت، اكتفيت بك، جعلت منك جائزة لكل هزائمي، رضيت.

وفي الليل تساءل: لماذا يبدو العراء قريباً يا خالدة؟

ـ يا رجل، وكل الأمر لله. الأنبياء يموتون. إنه يعاني كثيرا.

fb/mashro3pdf

• إنه ليس أبيكي يا خالدة، هو أبي وحدي.

ـ بل أبي مثلك تماماً، أصلي كي يبقي بيننا ولو كومة من عظام، أعرف أنه العراء، أعرف ما معني الحياة دون جبل، بلا ملاذ، أعرف ما يدور برأسك ويغور فيك.

• قلبي معتم يا خالدة. أعرف أنه سيموت قريباً. قريباً سيموت. نصف قلبي يموت، نصف روحي تخمد. حتى ها هنا. في الصحراء، في المناطق الشاسعة، في التوحد الفظ لا أجد المأمن ولا السلوى. كأنني ملعون يا خالدة. حبي مرهون بالموت، أفكر أن أكرهك الآن. لا أريدك أنت أيضاً أن تذهبي. لا. لا أريد أن أحب أحداً.

ـ يا أخي هون عليك. عد لصلواتك القديمة. أعرف أن راحتك الكبرى في تلك الطلاسم التي لا أعيها، أفعلها الآن واسترح.

• حتى تلك الطلاسم يا خالدة. أي نفع. أي نفع ضد هذا الطاعون؟

القلب يشعر بالصدمة أولاً، ثم يعم الدمار. الهلاك النهائي يستغرق وقتاً، وإذن فليبكوا، ليصرخوا، هذا إعلان هزيل عن كارثة، والزمن؟ ما الزمن؟ ربما كان قريباً من السادسة والنصف مساءاً. النصف من فبراير. هل يعني هذا شيئاً لأحد؟ المكان؟ ليل كباقي السواد المحيط. غرف مظلمة. وجوه مظلمة. بشر بلا حصر، وبلا جدوى أيضاً. الزمن واقف كالأخرس. المكان غارق في الذهول.

آه يا سيدي.

fb/mashro3pdf

خسارة أن يموت الرجال ولكنهم يموتون.

وينفتح المدى على اللاشيء. يقولون: ماذا ستفعل الآن؟ تتعلق به السواعد والأيدي، العيون تلاحقه، ترقب خطوته. حقاً ماذا سأفعل الآن؟ منذ دقائق قليلة كان الصدر يعلو ويهبط بأنفاس هادئة ورزينة. لحظة كالبرق وتنفتح العينان الداكنتان كفنجان قهوة. القهوة التي يعشقها. تتسع الحدقة فيمور الجمال والعمر. يسأل: كيف يتقلص الزمن كله في لحظة؟ لحظة كالبرق. شاهد نفسه غائصاً منذ الميلاد وحتى منابت الذهول هذه!

قال: لم تفتني بارقة، ولم تغب عني لمحة. أبتسم الشيخ بملأ فيه الجميل فاستنار الوجه كفلقة بدر. يا سبحان الله. أرخى جفنه إلى أدني قليلاً فاقتربت منه. حين جاهد ليمد كفه، أسرعت كفاي لاحتضان يديه. قبض عليهما بأخر الزاد من العنفوان القديم. قال. أعرف ماذا قالت عروقه. أعرف معني عناقه الأخير بأصابعه المشدودة. بادلته الحوار وشددت على يده برحمة. مرتان. أومأ برأسه علامة الموافقة. كان راضياً، هذه واحدة من المرات النادرة يرضي في اللحظة الفصل. عاود النظر السريع. ما أوسع المسافة يا شيخي بين ما تراه وما نراه. بغتة أغمض العينين وسكن الصدر عن المجاهدة. توقف الهواء الذي يدور في المجال. للموت رائحة؟ أم هي رائحة الغياب؟أم تلك أقاح العدم تهب؟ أخيراً ترجل الفارس عن الجواد.

تركه عارياً في وسط الميدان. أرخي القبضة عن اللجام. أغمضت

fb/mashro3pdf

العينان عن التفاصيل. وقف الحصان وحيداً. شاخصاً في المجهول. ربما كان يسأل: ما جدوى الركض إذن؟ما قيمة اللهاث حتى أخر الشوط؟ لماذا يتساوي الجميع هنا؟ ما نفع التميز؟ كأن كل شئ كان يذهب، فيما كان اللاشيء يبقي. لقد عرفت. لم أتحرك قيد أنمله. حدقت بكامل العجز والمقت. ساكناً كان هو. في الحقيقة كل شئ بدا ساكناً. بل ميتاً. خاوياً. فراغ محض. يتذكر الكلمات:

حتى لو عبرت هذا الداء هذه المرة، والمرة القادمة، لا فرار يا ولدي. ما من شئ يلحقه الموت ويظل مبهجاً. الموت. الموت شئ عادي جداً حين يطال الآخرين. أحياناً يبدو وكأنه العلاج الناجع لكل الآلام. مشكلة الموت تبدأ حين يطرق أبوابنا، وكأننا لم نشاهده من قبل أو نسمع به، وكلما زاد اقترابه منا ازداد الرعب والحنق.

أقسى ما في الموت أنه يعيد صياغتك بالقوة الغاشمة. يفتح في حوائطك الشقوق والتعاريج. ينتزع منك الأوردة الخلابة. يسكب دمك في المجهول. يهشم موسيقى التنفس في قلبك الوادع. اجتياح بلا رحمة لحديقتك الأليفة. خراب ضروري لما ظللت السنوات تكدح في تأسيسه كقاعدة وجود. يمر عليك كريح مسكونة بالعدم فيترك كل شئ فارغاً. ذلك النوع من الفراغ الذي لا علاج له أبداً. أبداً يا رب.

الموت ولا شئ سواه أقوى من كل الحياة.

fb/mashro3pdf

-٩-

ها قد انتهت أغلالك، فحلق أيها الطير الحزين. كأن القيد لم يكن قيداً، ولكم تشبه الحرية أحياناً معني الضياع.

ـ ما معني الحنين يا خالدة؟ إلى أين أذهب يا رفيقتي؟ ضاعت رغبتي في الرحيل، كل الفضاءات واحدة، لم يبق لي سواك، إني مرتعب.

• متى تكف عن النبش في طري الجراح؟ لا ترحل. لا حاجة بك للرحيل. لكن لا ترحل من الحياة. لم لا نذهب للبحر؟

ـ البحر هو البحر، لا يموت ولا يتغير، نزرع قرنفلاً جديداً، نمشى طويلاً على الرمل المبتل، أتظنين أنني أقدر على الضحك مرة أخرى؟

• تغدو جميلاً حين تضحك، في كل عام مرة أو مرتين. ليس كثيراً هذا!

ـ أنام حتى منتصف النهار، لا يذبحني هاتف الليل، أعود للقراءة وماذا أيضاً؟ لكم أشعر بالخجل حين يود قلبي الابتسام. ربما كنت فظاً. ربما كنت الأسوأ في الحياة.

• ماذا تقول؟ بل فعلت ما لا يفعله إلا رجل حقيقي. أتظن أن الحب هدية بالمجان؟ يا أخي لقد دفعت الثمن كبيراً. لا تعذب نفسك. هذا يكفي. ثم إنه الله.

fb/mashro3pdf

بدا مثقلاً، باكياً في صمت موغل،عازفاً عن الأمر الذي يتشكل في النهاية كمهزلة. هل كان يفكر بصوت مسموع: أريد أن أري الله، أذهب إليه، أتحدث معه عن المكنون في صدري، أشعر أني احترق. هذا الخلق بلا فائدة. الله وحده هو ما أريد. لو تحدثت للناس عما بداخلي لرجموني. دائماً كانوا غير رحماء، وهناك أبوابه مفتوحة، قد يمد يده إلى صدري وينزع هذا الداء والغضب، يمسني فأبرأ من اللعنة، قد يفتح لي كتابي أو يجلو لي بصيرتي فأري، أري المجاهيل المرعبة. حتى في تلك البلاد تعذب الأنبياء والأولياء. هل تعرفين يا خالدة، هذا الشقاء قديم.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المشارف

-١-

يتغير الناس، وقلما يتغير الزمن. لاحظت السيدة ذلك عند بدء عودته إلى العمل:

أصبحت أشد انتظاماً وأكثر عبوساً.

قال دون أن يرفع عينيه: ربما أغرق في تفاصيل الأوراق، أستعيد وقع الحياة، إنني أحاول.

قالت: قلوبنا معك، أقصد أنا والزملاء.

قال: قلوبكم معكم. لكن لابد من الشكر على المجاملة. فكر برتابة: عن ماذا تبحث هذه السيدة؟ بأي عيون تريدني أن أشاهدها؟ بعيون الزنان الفاضحة أم بعيونها النبيلة الخجولة؟ الخط المستقيم الذي لا ينحرف عن المسار. ماذا تريد بنت الكلب هذه؟ دخلت عليه فضاء شروده مرة أخرى: تشرد في الصمت يا أستاذ. كأنك تحسب حساباً لشيء! هل آخذ هذه الأوراق؟ أخترق الحاجز المصنوع برقة الأنثى – حدق بعيني الصقر ـ قال: اتركيها الآن.

تلكأت في الانصراف: إذن لا تريد شئ؟

واصل فحص الكلمات المتداولة: أريد؟ نعم أريد. هل تعرفين؟ كانت عيونه قد تحولت إلى مشاجب وانتزعت كامل ملابسها، بدت عارية مرتبكة، حمامة أذهلتها جرأة الصقر.

بطرف عين تسيل قالت: أرجوك، لا تحدق في هكذا.

أيقن من صواب ما فكر فيه، امتدت يدها اليمني لتتناول كومة الأوراق من أمامه، حين انبسطت أصابعها البيضاء الرخوة فوق

fb/mashro3pdf

الأوراق، أرخي الصقر جناحه فوق الأنامل المرتعشة، أحس بارتجافها، أمعن النظر في الدم الذي ورد الوجه وأسال حبة من العرق فوق الجبين الناصع، وأسفل العينين اللتين قاومتا الاجتياح بخجل مصنوع، كانت عيونه قد تدفقت في العظام اللينة، فتحول الكائن إلى غصن بان يتلوي.

اذهبي. اذهبي الآن: قال.

حين تحتاج إلى شئ فقط أطلبني. رد: لقد طلبتك منذ سنوات، كنت دائماً مشغولة.

كان الشرك يتسع ويضيق، تهم بالوقوف ثم تعاود الجلوس، اختلطت الفكرة والرغبة فجاء العجز. العجز عن الوضوح. كان يحوم حول الفريسة، وكانت تناور للفرار. ليس الفرار الأخير. فقط لا تريد السقوط في الجولة الأولى.

ـ حديثك اليوم كالألغاز.

• لا أحب الاستخفاف برأسي. أنا أيضاً أجيد الكذب.

ـ تقصد أنني؟

• أقصد أنني أراك كما أنت. دون أقنعة يا سيدتي. أنا أهوى التاريخ.

ـ إذن أرجو أن تكون معرفتك صحيحة.

• هذا يتوقف عليك. اذهبي الآن.

في منتصف ليل ذات اليوم كان الهاتف يجأر. فكر: ماذا أيضاً يكون؟

fb/mashro3pdf

ـ ظننتك تعرف صوتي؟ أسفه للإزعاج.

• عرفت صوتك، ولا داعي للأسف. هل أنت بمفردك؟

ـ تقريباً (هذه سيدة تكابر حتى لا تكون واضحة) لم أعرف كيف أنام. حديثك في الصباح أربكني؟

• لولا. هل سيستغرق الأمر طويلاً؟ ستعاودين السؤال. كيف ومتى ولماذا؟

ـ حقاً كنت سأفعل، لكنك تسبقني حتى بالأفكار.

• اسبقيني إذن بخطوة. وددت دائماً ألا أكون في المبتدأ. هذه المرة فقط.

ـ كيف؟

• أنزعي هذا القناع. أنا أعرف التفاصيل. بالمناسبة، هل لازال الزنان يسبب المضايقات؟

(كان حجراً لكسر جمود الماء، شعاعاً لفض غلالة الزيف)

ـ آه. أنت تعرف. سافل ووضيع.

• من هنا تكون البداية يا سيدتي.

ـ ماذا أقول إذن؟

• قولي شيئاً يخصني أو يخصنا.

ـ نعم. هذا حق. أنت مثل أخ عزيز، ولهذا جرؤت على الاتصال.

• بدا ضاحكاً على غير العادة. أخ؟ جميل هذا، ولكنني لا أصلح كأخ. لي من الأخوات ما يكفي ولا أريد إضافة المزيد. ثم أنت تعرفين أنك لست بأختي. اسمعي جيداً.

fb/mashro3pdf

أن أكون أخاً فهذا يعني ألا أكون شيئاً.

ـ ماذا تريد أن تكون؟

• أرضى الآن بصديق. صديق حميم. هل تعرفين ماذا تعني حميم؟

ـ أنت تخيفني.

• أنت لا تخافين يا سيدتي. أنت تريدين كل شئ. هذا صعب. صعب جداً.

ـ كيف نبدأ يا صديقي؟

• قال سأكون صريحاً. تلك عادتي. ستكون فجه في بادئ الأمر ثم نعتاد على ذلك. الحياة كلها مجرد عادة، واعتياد. فقط انزعي قناعك حين نتحدث أو نكون معاً. سأعرف.

ـ ها أنا أنزعه. استرحت الآن؟

• كان حلمي أن أراك دون قناع أو حتى غلاله.

ـ لماذا تقفز فوق السطور؟ الطريق درجات يا أستاذ. يكفي اليوم أنني نزعت القناع.

• هل لي من مطلب أخير؟

ـ هذا حقك. حق الصداقة الوليدة.

• ما لون القناع بربك هذه الليلة؟

ران الصمت على سلك الهاتف. همس: بدون قناع. تذكري. قالت كنسمة عارية غارقة في الندى: أسود. أسود صغير. اختلط صوتاهما.

fb/mashro3pdf

إني أعشقه أسود. اخلعيه. اقذفيه إلى الليل. آه. الليل. طري وناعم. معطر أيضاً. آه. أسود. أسود يا ليل العراء.

fb/mashro3pdf

الطريق متعرج ونحيف، تماماً كالنفس. ملتف وطويل كالعقاب، يمشي على مهل، ولا يعرف إلى أين! يتجول في فناء مسور بالبدن.

ماذا فعلت بالحياة؟ وماذا فعلت بك؟ دائماً يا صاحبي كنتما على طرفي نقيض. لا أنت الذي آمنت بها، ولا هي صّدقت مزاعمك. طوال الرحلة، وأنت تبحث عن حياة أخرى، وهي كانت تسوق لك البراهين «ليس هناك إلاي»، ولأنها أقوى فأنت تلزم الصمت. ليس ذاك الصمت الهادئ القانع. لا، وإلا فمن أين جاءت كل هذه الجراحات؟

كان صمتاً يشبه البارود المكتوم، صمت الذئب خلف الأكمة، في انتظار بارقة لفرصة، لحظة الوثوب. الصمت المدجج بالغضب. غضب المؤمن بالعبث وعدم الجدوى. واصل الصعود في الطريق، وواصل الهبوط. على دقات صدره يمضي، وتأتي الحياة من الخلف كنصل بارد ومثلوم. ما أبعد الحياة، ولكنك كلاعب ماهر تلاطف الوقت، تبتلع الحصوات على مضض. حتى في هذا السوق أقدر أن أبيع وأن أشتري. من تلك المعروضات الرخيصة، الأسماء الشائعة، إفراز الأيام الباهتة والبشر العاديين. آه. كنت تظن أنك قادر على إعادة صياغة الحياة؟ الأنبياء لم يستطيعوا. مالي وما للأنبياء؟ كم كتاب في هذا العالم؟ هه؟ منذ أن تعلم هذا المخلوق التعس أن يسجل ما يدور في عقله أو يمور في قلبه؟ فلاسفة، مفكرون،

fb/mashro3pdf

كتاب وشعراء، عاهرون وقديسون، قادة ولصوص. ماذا فعلوا؟ هه. ماذا فعلوا؟ قل لي. لماذا قرأت ما كتبوه؟ ما شأني بكل هذا العبث حين لا يقدر أن يقدم مسره واحدة؟ آه، ولكنها الحياة. ربما ليست في الفعل. الفعل نوع من المشاركة في الجريمة. الحياة هي الفراغ من الأشياء هكذا يقولون ذلك على الناحية الأخرى. من بوذا وحتى الشيخ مسعد الجرار. الطاويون، طواسين الحلاج، المواقف. لا شئ. لا شئ في هذا الحصار المر. اسمع. تريد أن تطير؟ أن تفني في الحب؟ أن تتذوق المباهج كلها؟ أن تري وتعرف، ألا تحزن قط لأنك لن تفقد شيئاً أبداً، أن تتبعك الحياة ككلب مدرب، تلهث في أثر خطوك. اسمع. تريد كل شئ؟ إذن تعال. تعال. فقط اعبر هذا الجسر، وأخلع هذا الثوب البالي. تعري. فقط تعري.

الطريق الآن يكاد ينتهي، يدور على نفسه كخلاء أبيض. جاء إلى هذا المكان من قبل مرات ومرات. أوقف سيارته على نهاية الطريق الأسود، ترك حذاءه بجوار السيارة، أجال بصره في المحيط المضروب حواليه. كأنه قطار طويل، محمل ببضائع تالفة. صوب عينيه في اتجاه الجنوب وبدأ المسير إلى الشيخ. تغوص القدمان في الرمل السائب، يصعد تلالاً ويهبط أودية. الذاكرة تقود الخطو، تعود بالأحداث إلى مركز اللحظة. منذ أعوام لم ير الشيخ، ذلك الرجل الذي بشره من قبل بالكثير من العطايا، والعديد من البلاءات. آه. هو لا يعتقد في قراءة البشر لكتاب المجهول ولا يصدقه، لا يبحث عن المزيد من الأخبار أو البشارات. لا. فقط ممتلئاً بالمرارة

fb/mashro3pdf

والأسى، يري في الشيخ النموذج الأمثل، النقيض. النقيض الطافح بالرضا والسماح. لا يأمل ولا يأسى على شئ. حنون كقلب العراء الذي يسكنه، ولا يغادره إلا للضرورة، يمقت الأطباء، ولا يعتقد في قدرة غير قدرة الله، خال من الطموح والرغبة كأنه يحيا بلا ذاكرة. لا يرجع ولا يتقدم، يرضي بالكفاف منها، ولا يعرف أكثر مما يريد. تُرى هل مازال على مكانه القديم؟ حتى إن لم يكن ستجد عبير الفراغ في تجواله يمضي. تلك شجرة خروع تقاوم الظمأ. لماذا تقاوم؟ بعض أغنام هزيلة تظلل رؤوسها هناك وتستكين من القيظ. قال: لابد لهذه الماشية من راع. دار بعينه في المكان حولها، ولم يكن هناك أحد. واصل السير بلا غضب. في مهبط تلة صغيرة من الرمال، كان ظل يتحرك مجللاً بالسواد. تمر قريبة على زاوية العين. توقف ونادي: يا مستورة. تُرى الشيخ في مكانه القديم؟ أجابت بوهن: موجود، لكن لا تحد عن الدرب.عاود السؤال: أبعيد من هنا؟ قالت وهي تغادر تلك الزاوية: على مرمي حجر. في يده اليمني كيس من الطماطم وحبات الفلفل، يحب الشيخ هذه الأشياء. قال: حتى لم أفكر أن أعطي تلك المرأة شيئاً.

لا تؤنب نفسك، إنها لا تريد من أحداً شيء. هنا يتكفل الله بكل شيء. في انبساط الوادي الضيق تبدو راية بيضاء مغروزة على أعلى عريش من الجريد في ثنيه من الرمل عاليه. ها هو إذن. من هنا يحصر الرجل الحياة أو يحاصرها. أبريق من الفخار بمجمرة النار ودخان يصّاعد. ها هو إذن. ظلال الرجل تتحرك

fb/mashro3pdf

ببطء وانحناء. يتذكر الخطوة والهيئة. يصعد ما تبقى من خطوات، يقارب الوصول. حبات العرق اللافح تلسع الوجه المكدود. حين ألقى بجسده على الرمل قرب مجمرة النار كان الرجل قد توارى. قال: لا بأس ربما يتوضأ. استلقى بظهره ووجهه إلى أعلى: يا الله كم أنت قريب هنا حتى ليكاد المرء أن يتنفس روائح الجلال. لا بشر هنا. هنا ماذا ينقص المرء لكي يكون ملكاً متوجاً؟

استيقظ على صوت الشيخ: السلام عليك يا ولدي، أخيراً جئت. اعتدل وتصافحا، كان الرجل قد جلس قبالته، جالت الدنيا في رأسه مرة أخرى، تعذب في العثور على كلمات، لم يجد فالتزم الصمت.

قال الشيخ: إن كنت في عجلة من أمرك فاذهب، يسهل الله لك، اذهب.

أجاب مثقلاً: أريد أن أجلس معك.

قال الشيخ: لا تكذب يا ولدي، وأرح قلبك.

لا، لا أكذب يا شيخ، حتى لم أفكر في الزيارة، سرت وحدي حتى وجدتني هنا.

قال الرجل: يا ولدي، حين تتعب إلى أين تذهب؟ أليس للحكيم؟ أنت ذهبت إلى كل الحكماء،

لم ينفعوك، وحياة الحبيب، كان لي ولد مريض، رغبت في السير إليه، قال حبيبي: انتظر، هو يأتي إليك، وحين أفكر في أمرك يا ولدي أحتار، طلبت من الحبيب العون، لا حظوه إلا بنور، في

fb/mashro3pdf

البداية وحد الله، صل على الزين، أعرف والله أعرف، أنت لا تصدق إلا ما تراه، لا تؤمن إلا بحبلك، مُتعب أنت إلى حد الوجع، لهذا جئت، لكن يا ولدي، أنا لا فهم في هذا السوق، حياتك سوق يا ولدي، قلبك كوابور البحر، مسكين أنت ورحمة أبوك، انظر، ماذا ترى؟ لا شيء، رمال وحسب، لكن لو تصدقني لعرفت، الموضوع كله رمل يا ولدي، مالا يبقى لماذا تشقى من أجله؟ أنا لا أحب الخراب والله، لكن تذكر من قتل نفسه لا يستحق الرحمة، آه، خذ، خذ فنجان من القهوة وبلل ريقك اليابس، ثم ماذا تريد مني؟ أنت تعرف، لا حيلة لنا في الرزق، كما أنك محظوظ في دنياك، ماذا تريد؟ هل تعرف ماذا تريد؟

مريض، مريض بكل شيء يا شيخ. مريض تقول؟ لا والله ما بك مرض، بس نفسك شقيانة،

آه نفسك يا ولدي، مات الشايب؟ أرأيت؟ ومن سيدوم؟ هالات من الغين حول عيونك، خلق كثير حولك لكنك خالي، قل لي، من سيملأك؟ والعمر يجري – يجري، شوف. ثوبك المرقوع لا طائل من علاجه، اسمع مني. ها أنا أسمع يا شيخ. بل تكذب، أنت لا تسمع، أنت لم تزل تزن الأمور وتفكر، هذه الحياة حجر في حلقي. أجاب الشيخ: و هل لك سواها؟ أنت غاضب، لا شئ يرضيك، ولن ترضي إلا إذا أيقنت. أوقن يا شيخ،لكن الأمر عسير، ألف خيط يشدني للحائط. قال العرار: مسكين ولدي، مملوء، فارغ، كل الحوائط تتهدم يا بني، والسواد الذي يلفك، أنت لم

fb/mashro3pdf

تزل في الليل، بل أول الليل، مابالك بالحلكة؟ عربة حياتك يشدها ألف حصان حتى صرت ممزقاً أشتات، يا حزني عليك، من يلمك يا ولدي، استرح، بالله عليك استرح، وأرح جوادك، لا تفكر، لا فائدة في الأوراق ولا في الكتب، اختصر الأمر، وألمس قلبك، افتح أصابعك يا ولدي، تعرى.

يا شيخ أنا مربوط فيها، مصيري معلق بآخرين، لي وظيفة وعندي أسرة، لي مواقيت عمل، عليَّ التزامات وحقوق، تورطت قديما يا شيخ. لك كل الهباء إذن، بذرة في أرض عاقر، أتزور الرابية: يسأل الشيخ. ويجيب: أنا فيها، تركت المدينة.يواصل الشيخ: ها أنت على المشارف، العراء، العراء حتى يتساوي في فمك ماء البحر وماء النهر، وتصير الدنيا، كل الدنيا عندك سواسية، ظلال، محض ظلال بلا ثمن، ثم إن كان ولابد من ضياع، فلماذا نضيع في الضيق؟ انجو من ذاتك، وفر إلى اللا حدود، قلبك، قلبك لا غير يسعك.

يكاد ينتصب الرجل على قدميه، يحول بصره إلى العراء المحيط، يخبط على صدره بقبضة يده: وأنا يا سيدي، أنا يا مولاي، غاضب مني؟ تتركني وحدي أجالس معذب مكدود؟ ماذا أفعل له ولنفسي؟ أنا يا سيدي وهذا الولد؟ خذه يا مولاي، قشرة بيدك الكريمة، خلصه من الآفات، اغمسه يا سيدي في نارك الحلوة، احمله على الطريق عنوه، المسه يا حبيبي، ايه، يغدو مبروكاً حين تحط عليه، جراحاتك أوسمة لو يعرفون.

صار يدور ويزعق في العراء، كان فرحاً ثملاً، عصفوراً يطير ويحط،

fb/mashro3pdf

يتمزق بدنه في الأنحاء نشوه،و من آن لآخر يلمس الجالس قبالته كعود من الحطب: ارضى. أقول لك ارضى. خذ. خذ. يقبض على الهواء ويحثه في وجهه. حتى قلادتك الأخيرة تطير. تطير. لا تغدو إلا فراغاً محض. آه. آه. الآن. الآن. خذ. حبيبي يقول. ما شأني أنا؟ ولسوف تمطر عليك طويلاً. ليس الأن. هو يعلم متى و كيف. ثم تزهر وحدك.وحدك. حتى حين يموت الوقت أنت تظل هناك. حي. حي. مثلي. مثلهم. مثله.. أوووه. حي. هو حي. مثل الأحباب. الأحباب. لا حب يقبل شراكة. تحمل الكي. النار. تحمل الذي يزرعك، رأى أرضك قاسية، صلبة، لكنه لم يفوتك. لو فاتك لصرت مثل الآخرين، واحداً من العدد، لكنه توقف عندك، تأملك. ما أجملك وأنت بين يديه، يقلب أحواضك. ينزع شوكك، يرتب فوضاك، والحبيب الذي لا نور إلا نوره، ما أوجعك إلا محب، ولا عذبك إلا راغب فيك. تحمل. تحمل حتى تجيء. اصبر يا مجنون. بل أنت نظيف يا شيخ، تظنني كذلك، قضيت عمري في دروب الغواية. أنا ملوث يا شيخ، لا زلت أهفو إلى الرخيص. يقاطعه لاهثاً: لا. لا. هذه الأدران ضرورة. يمحوها. لابد من قرار حتى يكون الصعود. نظف ماعونك يا ولدي، وعلى قدر الماعون تكون الهبة. لا شيء. لا شيء سواه. صدق حتى ترضى. ثم يكون الغيث، وإذا كان، فما يهمك من الذاهب والآت؟ وحدك. وحدك أفضل. كل الوحيدين يا ولدي ملوك. أوووه.

fb/mashro3pdf

-٣-

الأشقاء: ماذا يعني الأشقاء؟ يتعجب من تلك الوشائج التي تظنها خالدة مقدسة و أبدية. هل المنبت هو الأساس؟ لكن الأشقاء بشرا كباقي البشر، و الدم ليس رابطة مقدسة إن أفسدها سلوك غير مبرر.

قالت خالدة: إن واحدة من الشقيقات تتألم، ترغب بالسفر إلى الطبيب، لن تستطيع الرفض أو الانتظار، هذا واجب لا يقبل المناقشة. أجابها الصافي: لا يتصلون إلا عند الكارثة. أين أكون في باقي الأيام؟

قالت: لا تبرير لشيء، إنها أخت وهذا يكفي. ثم متى كنت تنتظر العدل في المعاملة؟ لقد ذهبت إليها ورأيت كم تعاني، أنت تعرف زوجها لا يحل ولا يبل. لابد أن تكون معها، وإلا ما معني أن تكون أخ؟ تواصل: اتصلنا بلمي لتحجز لنا عند الطبيب، وسوف تكون وزوجها بانتظاركم هناك.

قال: ولماذا لمي؟ ألا نستطيع التدبر وحدنا هناك؟

أجابت: بل يسهلون الأمر، وهم يعرفون الدروب أكثر. ثم، ما وجه العيب في ذلك؟ سأعد لك الحقيبة الآن. فكر في الأمر: أي كائن هذه المرأة تكون؟ لا تفكر في الأمر أبعد من ظواهره البادية. شقيقة مريضة وأخ يتلكأ. لا ظنون لديها في أحد؟ لماذا تظن؟ كل الكون برئ. لماذا تعكر صفو النبع الذي منه ترتوي؟ هل تدري هذه السيدة كيف تجري الحياة؟ هي تفيض وحسب، غارقة في

fb/mashro3pdf

بحر من المحبة، لله، للكائنات، للدروب، خائفة من صرير الباب، من فراشه كبيرة، تتجول في مسرح الحياة بحرية طفل، لا تصدق الجرائم التي تملأ الساحة. معقول هذا: تقول. ثم تواصل السير في درب لا يحتمل سواها. أين أنت من الماخور الذي نحياه يا سيدتي؟ تريدينني أن أسافر إلى لمي؟ لماذا لا أقول: لا، لن أسافر. لن أقدر أن أقص عليك التفاصيل، أيضاً ربما لن تصدقين. لن أملك جرأة الكلب في فعل ما يشاء في عرض الطريق، أستميت في مرآتي الأخيرة كي تظل الصورة لائقة ونظيفة. لكن، كما تشائين. أسافر. سأسافر يا خالدة. أين الحقيبة؟

fb/mashro3pdf

على أبواب العاصمة. الأبواب التي كانت سبعة، وتخضع جميعاً للحماية تحت ذقن الأسد الرابض الذي يحُدّق في غموض مبهم! لا تدري، ينظر لمَنْ؟ للقادمين من كل حدب وصوب، ينظرون إليه كمعجزة نادرة، أم للجاثمين تحت رعايته، لا يكلفون أنفسهم حتى مشقة السؤال؟ على واحد من تلك الأبواب التي لم تغلق أبداً كان الحسون «زوج لمي» بالانتظار. في الطريق أخبرهم الحسون: لقد حدد لنا الطبيب السادسة مساءاً بالمستشفي الخاص به للفحص أولاً.سألت المريضة: أين لمي؟ قال: سنلتقي بها عند الطبيب. كان رجلاً طويلاً بادي السمرة، هادئ الملامح، يعرف القليل عن ولع لمي بالصحراء وساكنيها، حين اتسعت أعماله، واضطر للسفر المتكرر وراء التجارة والأسواق لم يجد بداً من منحها الثقة الكاملة.

تعجب الحسون من علاقة زوجته بالمريضة. عشرون عاماً ولم يخفت الود، ولم يكف الاتصال بينهما. نحن الرجال ربما لا نقدر على ذلك.قال الصافي في نفسه: ألا تعرف يا حسون لماذا؟ كيف يمكن الإجابة؟ كيف نقول أن واحداً من الرواد قد جاس خلال الديار، مضي يعبد الدرب للآخرين. آه يا سيد حسون. لو عرفنا كل شئ لباتت الحياة مستحيلة. يتبقى قليل من الوقت حتى تأتي السادسة. في مقهي شائع بقلب المدينة يجلسون لتناول الشاي. طقس لا يسمح بالآلفة والتواصل. يريد أن يدخل في

fb/mashro3pdf

رأس الحسون. ربما يفكر الحسون الآن: متى ينتهي هذا الأمر كون الواجبات دائماً ثقيلة، خاصة عندما يقوم بها رجال المال والأعمال. تلك الواجبات التي لا تجر ورائها عائداً. كما أن المريضة بدت مهمومة بنفسها، هذا حال المرضى دائما، يفكرون في كل شيء، تنفتح أمامهم نوافذ الاحتمالات، تنطلق الظنون من سباتها، يدخلون إلى قفص الحسابات التي لا تنتهي برقم واحد صحيح. ربما هو الخوف. المرض يضع الإنسان في مواجهة عجزه القديم. فيما يظل الصافي يفكر، وينظر في النقطة العائمة: لن يموت أحد قبل موعده المضروب، وحين يموتون أيضاً، ما الجديد في هذا؟. ستكون لمى هناك، أليس كذلك؟ ألا يعرف الحسون لماذا يستمر الود عشرون عاماً! لأن الكتابة في القلب الأخضر يصعب محوها، لأن الوشم الذي يرسم في الدم لا يزول. لو كان هذا الرجل يعرف الفروق الدقيقة لوقف على الحقيقة الغائبة، لاشتم رائحة العبق على شفاه زوجته، لو تأمل صفحة النهر لرأي تموجات الزورق الغريب. لا يعرف، لا يعرف. لأن الله كعادته، دائماً رحيماً بالعباد، وحين يمد رأسه بالأفكار حتى تصل إلى خالدة. سيقول: أنت التي تصرين على سفري، ومن اجلك سأقاوم، قدر الطاقة يا خالدة، ماذا أفعل؟ نهر نفسه فجأة على التفكير بهذه الطريقة، ما شأنك أنت بكل هذا؟ مادامت هناك كفاً حاذقة تملك كل الخيوط، وتفعل بالعرائس ما تشاء! ما شأنك أنت؟.هل كان هذا التبرير يكفي؟ أف لك. ها أنت تعاود الأسئلة!

fb/mashro3pdf

كم فخم هذا البناء: ردد الصافي للشقيقة المعتلة. دقائق ويراك الطبيب، وتكونين على أفضل حال. سألته: أتظن ذلك؟ قال: لا تخافي. الألم البسيط لا يقتل الأفيال. تحاول الضحك فيما كانت عيناه تجوس في أبهاء الفخامة والرخام الأبيض على الواجهات، والحوائط. مازال نبض في القاع لا يرضى. من للبسطاء من البشر؟ إلى أين يذهبون؟ من أين لهم بكلفة هذا الترف؟ لكنه تعلم أن يلقي الجواب: ليذهبون إلى الجحيم. هم جديرون به، هم الذين ارتضوا بالفتات المغموس بذل القهر والحاجة، وعندما يقبلون بهذا، ما شأنك أنت؟ آه. هاهي. تصافحت الشقيقة بالأحضان مع لمي، وهو مد يده بفتور كاذب. حذراً كان، ولم تغادر عينيه وجه الحسون، راقب عن كثب أبعاد الرجل، فلم يجد شيئاً يستحق التوقف عنده. حين غادر الحسون لبعض الوقت صارت الساحة بلا محاذير ولا رقيب، انبسط الوجه الجاف، ذابت الأقنعة الزائفة، أقنعة الاحترام المقدس. ماذا نفعل بانفسنا؟: قال. آه يا طبيب، ماذا تري؟ يلتفت الطبيب الشاب إليهم، يريد أن يمارس الحكمة في اللوحة الفاتنة، صغير ومسكين: شئ بسيط لا يستحق كل هذا القلق، حصوة صغيرة، لن نحتاج لأكثر من يوم في المستشفي ويختفي الألم تماماً.

ثم واصل الميل بالسؤال إلى لمي: أأنت شقيقتها؟ تدخل الرجل الواقف كالجلاد بينهما: شكراً يا طبيب، أفعل ما تراه مناسباً، أنا زوج

fb/mashro3pdf

هاتين السيدتين. يغادر الطبيب الغرفة لاتخاذ ما يراه مناسبا.
نحن أهل الشرق لا يمكن أن نكون إلا هكذا. كيف سيحاسبنا الله؟ على الشكل أم على الجوهر؟ على المعلن أم على المستور؟ إن أفضل عقاب يليق بنا أن يتركنا الله على هذا الحال. حين عاد الطبيب قرر أن نمكث الليلة بالمستشفي، وفي الغد، بعد التحاليل والأشعة، يتم تفتيت الحصوة وينتهي الأمر. قالت لمي: لن يمانع الحسون أن أقضي هذه الليلة معك، فيما يتدبر الصافي أمره. قال: لا بأس. حين هم بالخروج لطلب قهوة في الصالة الكبيرة لحقت به، قالت: هل تفهم؟ أنا المريضة بحق، هذه الليلة علاج للجميع، تدبر أمرك، تضحك وتعود، فيما عاوده السؤال الفظ: لماذا لا تغادر اللعنة هذه المرأة أبداً؟
قبيل منتصف الليل عاد الحسون ليطرق باب الغرفة، عرف ما تم الاتفاق عليه، لم يمانع في مكوث لمى مع المريضة، قال الصافي: و أنا أبيت الليلة عند أحد أقاربي، نلتقي هنا في الصباح. حين خرج إلى البهو الطويل، قال الصافي للحسون: رجاءا، أوصلني فقط للميدان التالي، اجابه الحسون: لست غريبا يا رجل، كن معي الليلة، نحن أصدقاء، قال الصافي: بل أزور أقاربي و نلتقي في الصباح. حين هبط الصافي إلى عرض الطريق تساؤل: أين هم أقربائي بالضبط؟، كاد أن يبتسم، لا أقارب لي غير أولئك الذين ينتظرونني الأن بالمستشفى، و لأنهم بلا عشاء يجدر بي أن أشتري لهم حاجتهم، بعض الخبز و الجبن، قليلا من الفاكهة،

fb/mashro3pdf

أي شيء يكفي هذه الليلة، اطمئن على شقيقتي و أغادر، نعم أغادر، بدا حديثة كحديث ذئب يراود نفسه عن نفسه. لا أشتهي الصيد الليلة، غير أن الدرب لا يمر إلا في قلب ساحة الغزلان. حمل العشاء البسيط و سار على قدميه، دقائق حتى دلف إلى الباب الحديدي الضخم، حين فتحت له الباب الأبيض. قالت: أقسم لك، لو لم تفعل لارتكبت جريمة لا يعرف مداها إلا الله، كانت الشقية نائمة، سفر طويل، و قلق جم، فيما كانت هي كأنها خارجة للتو من حمام ساخن، قميص أزرق شفيف يتماوج فوق جمرات ساكنة، شعرها الأسود القصير يستدير حول عنقها كقلادة لامعة، ذات الرائحة، الرائحة يا الله، كيف لا تنسى النساء؟، تتقافز في بهو الغرفة فيتبعها شذاهها النافر، يصمد الرجل في ركن الغرفة على حافة السرير الفارغ، تشد الستارة الفاصلة التي تقسم الغرفة إلى نصفين، تجلس القرفصاء قبالته، تاركة للأزرق حريته الواسعة في أن يرتفع أو يسقط أو حتى يحترق. هل تعرف سوايّ؟ تضحك تلك الضحكة التي لا تتشابهه، مشروخة من قاع بعيد، ما رأيك في الحسون؟ رجل طيب، تضحك، هل تتذكر أخر شوط، النخيل، البحر، زوارق الصيد، لا تكف عن النفخ في الرماد، هذه امرأة لا تبالي بالزمن، أخر حدود الدنيا ترقد عند زاوية شفتيها، تضحك، تعبث في الأصابع الجافة، همس لها: مجنونة أنت؟، ربما تصحو، ماذا نفعل؟. أجابت بثقة: ما الذي جرى لك؟ دائما كان الناس موجودين و لم تسأل من قبل! أنت تنسى ما تقول؟ قلت لي من

fb/mashro3pdf

قبل: لا أثق في الوقت، آمنت بقولك، و صار زماني كله اللحظة، الأن يا أستاذ هي اللحظة، لا تفسدها عليّ، ثم هل كنا نخطط لهذا اللقاء؟ هل دبرنا شيء؟ لا، أنت تعرف، تعال، تعال أخبرك. كان الدوار يشتد، و كانت هي راسخة في لحظتها، و كانت اللحظة أثقل من أن تحتمل، حين مال رافع الأزرق إلى أسفل قليلا، بدا خيط رفيع فوق إستدارة النهد، كأنه شج خفيف، ما هذا؟ قال، لعله أثار عدوان يا لمى. قالت: هل تمزح؟ إنه بالفعل أثار عدوان. تراجع قليلا و انتظر المزيد، بدا عليه الإهتمام، هذا يشجع على المزيد من الخوض، و هي لم تكن بحاجة إلى التشجيع، قالت: إنه أخيه، شقيق الحسون، عبس مستغربا، لكنها بدأت الولوج إلى عالم الغرابة: هو يعمل سائق، و كان زوجي قد خرج، و ترك بعض الأوراق، ربما نساها بغرفة نومي، أرسل شقيقة لإحضارها من المنزل، حين دق الباب، كنت شبه نائمة، عرفت أنه هو، طلب الأوراق، قلت: انتظر دقيقة، و احضرها لك، تركت الباب مواربا و دخلت لاحضارها، فتحت أحد الأدراج من دولاب غرفتي،

و حين هممت بالوقوف كان يسد الباب خلفي، رأيت في عينيه صورتي عارية، قلت له: هذا لا يصح، إنه أخيك، هل ترضى، كان كالأبكم، خفت أن أصرخ، حملني بين يديه القويتين كسلاسل حديدية، وألقاني دفعة واحدة على السرير. سرير أخيه ـ المجرم ـ أنت لا تعرفه، قوي كبغل، أرتمي فوقي، شل حركتي بجسده الثقيل، كان قميصي قد ارتفع إلي نصف صدري، لا أعرف متى

fb/mashro3pdf

ولا كيف كان نصفي الأسفل عارياً، أحسست بذلك، شعرت بوجهي وعنقي داخل فرن كبير، كان يقضم لحمي بأسنانه، ضممت ساقيّ بكل طاقتي، لم يستغرق الأمر طويلاً، وحين تحرر فمي من تحت وجهه القاطع كسكين، بصقت في وجهه، كان قد أنتهي من الأمر، ساخناً فظاً على فخذيّ. هي تعرف أن هذه التفاصيل تحرقني: هكذا فكر الصافي. ليس الغيرة أو الحقد، لكنه يثار من غير المتوقع، يؤججه غير المألوف. بادرها بالسؤال: هل أمتلكك تماماً؟ قالت: قلت لك ما حدث.عاود السؤال: هل أخبرت الحسون؟قالت: تحيرت طويلاً، غير أنني خشيت إن لم أخبره أن يصبح الطريق مألوفاً لأخيه فأخبرته، وماذا فعل يا لمي؟ ثار وغضب، وهدد بالانتقام، وفي الليلة التالية كان شقيقه يتناول العشاء معنا، طلب مني الحسون أن أنسي الأمر، وأن ما حدث لن يتكرر. كانت لحظتها قد التصقت به، خرج من روايتها هائجاً مستنفراً، نظرت إليه كبحر يسيل، خيل إليه أن كل مسام هذه المرأة عيون، عيون تحصره فلا يستطيع الفكاك. آه. لقد شرعت في الاشتعال، أين أنت يا حسون لتري لماذا يستمر الود عشرون عاماً؟ أزرقا كان مفعماً بالبهجة، هل تشارك الملابس أصحابها المزاج؟ تستمد من حالاتهم ألوانها، يرتعش على الحافة، يشعر بأمعائه تتقلص، تلك العادة القديمة حين يتشكك في الأمر أو يبدو منقسماً على ذاته. تغير القلب، ذهبت الجرأة فيما ذهب منْ المتاع، كان يئن في العيون الذئبة، مسترحماً طغيان الأنوثة الفاجر، يغمض عينيه

fb/mashro3pdf

فربما تمر اللحظة كهلوسة طارئة، حلماً كان ما يجري، أم واقعاً يشبه الحلم؟ يستنجد بخالدة فينهره البدن العاصي، يعاود التاريخ زحفه من الوراء كالنصل، اللحظات، النخيل، البحر. يبدأ الجيشان، يتفتت أكثر. هذه المرة فقط، وينتهي الأمر. اضحك على ذاتك كما تشاء. هذه المرة فقط. دائماً هذه المرة. يا للعنة. كأنه وجد نفسه جالساً قبالة الفرن القديم، يلقمه الحطبة الأولى على استحياء، حين يتلقفه الأتون المستعر، أزرق يتصاعد الدخان من البدن الشاهق. آه يا شيخي الطيب. إلى أعلى قليلاً لتستوي النيران وتستدير، ماراً بالجمرة السفلي، رابضاً على شراشف المنتصف، أعمق، أعمق. لا. لا. ستأكلك النيران يا غشوم. أخرى، وأخرى. هذه المرة فقط. لسان النار كقلب محروق. يتحمر الوجه، يتجلل بهالات الورد الدموي، تستدير الهالة على قطبها. أعلى. أعلى. تخوم من العشب المشتعل، لحظة كالدهر وينبثق البدر في الظلمات، تستنير سماوات وتزهر نجوم، كأنه كان قبالة البحر، مرمياً كغريق على شاطئ من زبد، مبتلاً بماء الجسد المنزوع من أركانه، كأنه خارج من حريق محموم،

و هي كانت مفتتة كتراب البحر، تتنفس بهدوء السواحل التي غمرها الموج من كل جانب، مسترخية كأفعى لاكت فريستها وامتلأت بالشبع.من أين تفور النار في الأعماق؟ على أي البراهين يستند في براءته ودعارته؟ يحتكان ببعضهما البعض كزوارق وصلت تواً من أقاصي البحار، وعلى الرصيف المجاور. في ميناء

fb/mashro3pdf

الوعي كانت النائمة تتقلب. حين لاحظا ذلك، تباعدا. استعاد كل منهما قناعة وحذره. الآن هم بشر كباقي البشر. عاديون ومزيفون. أشارت النائمة بيدها، أسرعت إليها لمي، كانت تريد كوباً من الماء، استندت على صدر الصديقة واعتدلت، تناولت الماء جرعة وراء الأخرى. قالت: حلم غريب، كأنه الكابوس يا لمي. قال في نفسه: اكملي يا أختي أحلام هذه الليلة.

قالت الأخت: كنا جلوساً في خيمة بيضاء كبيرة، صحراء بلا حدود، ولا نهاية. فقط أنا وأنت يا لمي. فجأة هبت ريح عاتية، تطايرت الخيمة أشلاء في الفراغ، حاولت الفرار إلى شئ يحوطني، وجدت حجراً كبيرا فاختبأت خلفه، رأيت من مكمني هناك، لمي وحيدة تهزها الريح العاصفة، تمزقت ثيابها ولم يبق شئ ليسترها إلا ريشة زرقاء صغيرة، فيما كان صقر يحوم في الفضاء، دار حول المكان دورة وهبط بجناحه على طرف الخيمة الممزقة فثبتها إلى الأرض. صار يرتفع عنها ويحط. مرات ومرات. كانت لمي ذاهلة وتئن حين ارتفع للمرة الأخيرة، هبط كأشعة شمس حاداً ومستقيماً، كان ضياءه ُيعشي العين، تمددت لمي في براح الخيمة، ولم تقدر أن تغادر، وهو انتصب في وسطها كعامود ألهي مقدس، صرخت لمي كأنها تستغيث، حين ارتفع صوتها بالصراخ انبجس ماء رمادي ثقيل عند مفرق قدميها، حاولت المساعدة فلم أستطع، كان حلقي جافاً، يابساً كقطعة حجر، صحوت من ظمأي. ماء. أين الماء؟ وتتوقف بعد أن تتناول جرعة من كف لمى الممدودة إليها.

fb/mashro3pdf

تضحك المرأة التي خرجت تواً من براثن الصقر، ويأخذ الشك بمجامع الصافي: حلماً هذا أم حقيقة؟ هل حقاً كانت نائمة، أم أنهما لم يرتكبا أكثر من جريمة الحلم؟ لم يخرجه من قعر هذه الأسئلة إلا ذلك الصوت الدافئ، رنين الضحكة المشروخة: اية يا أخ، ألم يهبط صقرك بعد؟

تعالى، تعالى. خذ بلل جوفك بكوب العصير. كان الحلم صعباً ولذيذاً.

fb/mashro3pdf

البحر

fb/mashro3pdf

-1-

الناس دائماً ينسون. يفعلون ذلك على الدوام، ولذلك نريد شهوداً على الزمن. أتقبل أن تكون شاهداً يا بحر؟ لقد كنت هناك. في بدء البدء كنت، وحتى اللحظة لا زلت موجوداً، وإذن لم يغب عنك شيء. قد كُناّ [أنا وأنت] طفلان صغيران.أستطيع أن أقص عليك تذكارات الوقت القديم: زوارق الصيد الصغيرة، الزجاجات الفارغة على ساحلك، ألواح الخشب المترعة بالملح والأصداف، نومات «الترسة» على أقصى نقطة من رمال الشمال، روافدك الملاحية حين تغضب فجأة، غرقاك المجهولون،أسماك «السرفيديا «الصفراء، أغاني الملاحين، حلقات ترقيع الشباك الممزقة، الأسماء. الأسماء التي سكنت ذاكرة من لبن. أنت كنت هناك أيضاً. صغيراً وطفلاً بل وزاهياً أيضاً. بشوشاً وأزرقاً، لم ألحظ على وجهك الأملس أية تجاعيد، أو كان على جسدك اللدن أي ندبات غائرة. لو كنت أعلم، ماذا تفعل بكل هذه الذكريات؟ ثم للغرابة. ألم تكن أيضاً رفيقي في الغربة؟ كيف ارتحلت معي أيامها؟ عن أي طريق هاجرت أنت أيضاً؟ هة؟

وهناك. في الغربة؟ عرفت كم تقاسي وحدتك. غير أنه ما أسرع ما تعلمت لغات البشر والزمن الجديد! وحين عدنا مرة أخرى من السفر، خيل إليّ أنك تعرف كل شيء. أنت لا تنسى كما يفعل الناس، غير أنني جفلت من صمتك المريب، أعلم أنها عادتك القديمة. لكن هذه المرة كان صمتك مريباً، حتى بدا الحديث معك

fb/mashro3pdf

أشبه بمغامرة. كأننا غرباء نلتقي لأول مرة فجأة. كل شيء تغير.
آه. أعرف ذلك.
كان بمقدورك أن تتغير أنت أيضاً. على طريقتك. تغير قمصانك كما نغير نحن جواربنا. آه. تمتد وتتراجع على هواك، فقدت الميزان القديم فصار كل شيء يخضع لميزان اللحظة. تعلم الناس الكثير، وأنت للحقيقة طورت من نفسك جيداً. ها أنا لا أحس بقربك، لا بنسماتك القديمة، ولا ببوحك الرنين. منذ متى بالضبط تعلمت الكتمان، وأتقنت حرفة الأسرار؟ حين عُدنا من السفر قالت خالدة: البحر يشهد أولى خطواتنا. قلت: صديق قديم. كان الأمر أشبه بعاشقان وبينهما صديق يعرف كل الخفايا. توجست خيفة ان يفلت لسانك في لحظة سكر، لكنك كنت أذكى من ظنوني، أوغلت في الكتمان، ولقد ساعدني ذلك على المضي قدماً. اعتمدت على قلبك الحجري. كيف لي أن أعرف ماذا كنت تنوي في أخر الشوط؟
حين عُدنا من السفر كنا غرباء أيضاً، وكان أول حب يلزمه شاهد. كن شاهدي يا بحر.

fb/mashro3pdf

-٢-

الحقيقة الكاملة: لن يعرفها أحد على الأرض. حين قالوا أن عالم المرأة شائك ومكُدس بالغموض، لماذا لم يقولوا أيضاً أن عالم الرجل المحض لا يُطاق.

قال: هذا عام البحر يا خالدة، حين يضيق الصدر وتمل العين فعليك بالبحر. قالت: منذ صباي وأنا أخاف البحر، إنه كبير جداً، أزرق وقوي إلى درجة الرعب، هنا على الأرض يمكنك اللجوء إلى أي شيء، الاستناد على أي ركيزة، لكن في الماء، ماذا بوسع المرء أن يفعل؟

لا شيء يا خالدة. هنا أو هناك. لا فرق. اللاشيء ثابت في كل مكان.

أجابت متبرمة: لا أريد الفلسفة ولا أحبها، نذهب للبحر، نجلس هناك معاً، نتحدث كثيراً. نجد الوقت الذي طار منا. أقول لك: لا نفعل إلا ما نحب.

نعم يا سيدتي: هكذا ردد. لقد تصحرت روحي يا مولاتي، أتوقف عن الأعمال وتبديد الطاقة، أحبو في حجرك من جديد، أتعلم كلماتي الأولى، أريد أن أراك من جديد، أتملاك، أتشرب تفاصيلك على مهل.

كأنها بداية القصيدة: قالت. أول موجه من الشعر. علق ضاحكاً: لم لا تحبين الشعر يا خالدة؟ صاحت: أنا! يكفيني حب الشاعر. تعرف: حين اقرأ أحياناً في أوراقك الكثيرة، أكاد لا أفهم شئ، غير أنني

fb/mashro3pdf

أحس بروح الأشياء. هذا يكفي.

بعيد أنا. كأن الخيوط التي كانت تشده للحياة قد ابتعدت. حين يمنحه الزمن الفرصة ليحدق في الآثار يأخذه العجب الأسيان، بين الرفض والقبول مسافات تتحرك فيها الحيرة، تنهض الذكريات، تنام العذابات، يبدو السؤال وكأنه يطارده كمجرم. هه. إلى أين وصلت؟ تبدو النجاحات القديمة وكأنها لا تخصه، فيما تظهر الخسارات البائدة على شكل باهت كسراب بعيد. أين تبددت أجزائي؟ ذهب الذين أحببناهم وأحبونا. غارت اللحظات الحميمة في أعماق لا يمكن استرجاعها. ما بقى قليل وثقيل. يصدق أم يكابر؟ يملأ فمه من طين الدخان القابع في الصدر. يبصق على الأرض الميتة، على الوعي الحاد بالأشياء، على داء السؤال والجواب. على كل شئ. لنذهب إلى البحر. لنذهب يا خالدتي.

fb/mashro3pdf

-٣-

هي قالت ما سبق أن قاله (أودن) النجاة في الحب: إما أن يحب أحدنا الأخر، أو نموت. أتصدق ذلك؟ ليل الكابوس الرحيم. ما هذا الحب أصلاً؟ اسم هو أم قيمة؟ سلوك أم أعراف جري تداولها؟ أم شئ لا يمت للحروف والمسميات بعلاقة؟ هو ما لا يمكن وصفه على وجه اليقين. ماذا فعل الحب في تاريخ الإنسان؟ حكايات وأساطير، أغنيات لا تستر جائعاً، كلمات. مجرد كلمات. أحياناً يختلط الأمر، تسمع هذه الكلمة المقدسة في ظلام الزرائب، خلف الجدران الصماء، في أشد الأماكن نأياً ووعورة. كأن هذه الكلمة مقرونة بعمل الشيطان. يا للشرق السعيد. واصل ولوجك يا رجل. قال: شيئاً فشيئاً تذوي الجمرات، تتضاءل الرغبة في الحيازة، صار هنالك ما يمنعك من الركض وراء أي ظل يتحرك. لماذا تشابهت الأيام، الوجوه، الكلمات، الدروب؟ ايه. كم هي قديمه هذه الحياة. سأحبك من أول الزمان إلى آخره، سأجلس في داري ولن أتحرك. قولي لي يا خالدة. من أي حدائق يقطف وجهك الورد.؟ من أي نبع تغترفين هذا الصفاء؟ احضنيني جيداً. أرجوك. عساني أن أشبهك. تمتزج روافدنا، وماءنا، أعضاءنا. قولي بربك. من أين لك روح العصفور؟ في هذا الليل. الليل الذي تخافين لونه الداكن. تجوسين خلال الفيافي، تمسحين بالأنامل شقوق الرأس المثقل. تقفز الحروف على شفاهك طاقة ومودة جارفة. يسكن البحر الظامئ على شارات أصابعك. في الليل يا خالدة. مسك يحتل الجهات، تتدلي قرنفلاتك

fb/mashro3pdf

في الصدر المحفور كأخاديد. من أعلى نقطة في جبل الروح يبدأ غيث الرحمات. حجر الأسرار يتضوع بالعنبر والكافور. في الليل. الليل يا خالدة. يتحرر الذئب من مخالبه وماضيه، يخلع كل الغابة من قيعان روحه الغائرة. طفل هذا الذئب يا خالدة. أنت تعرفين. دعيه إذن على ربوة البحر، يرتوي من الأمومة الضائعة، من الزمن الدافئ القديم، من كل ما يشتهي أن يكونه. عساه يرضي.

في الليل. كيف يتحد الزمان كله في لحظة واحدة؟ كيف تتحمل روح العصفور كل ثقل هذا العالم؟ لا الدموع من فرح أو حزن تكفي. لا الكلام ولا الصمت يكفي. لا شئ مما نعرف يشبه هذا الشيء. الشيء الذي يتولد فجأة كالأيمان في القلب العاصي. كالنجم في سواد المحيط. خارج الحسابات والمدارات، خارج الخطوط التي يمر عليها الجميع، حتى خارج النفس ذاتها. النفس التي تعي فجأة ميلادها الذي لا يتكرر أبداً.

في الليل. يرخي أصابعه الجافة على ظهر الحنان الحلو. يترك الكون يمضي أو يتوقف. فيما هو يدلف إلى حضن فردوس تم اكتشافه في التو.

fb/mashro3pdf

في فناء النخل البحري، بين ارتخاء أصابع الرمل وبين الموجات الصغيرة نظرت إليه وسألت: كيف كان قلبك يقول لك؟ ماذا لو جننت وذهبت إلى حيث أرادات تلك الشقراء الغريبة؟ تلك البنت؟: عاود السؤال. ردت بصوت أعلى: نعم تلك البنت. تانيا. أليس كذلك؟ لا يملك الإجابة الصحيحة، لاذ بالصمت، عاودت السؤال بابتسامة راضية: حقاً. هل كنت جاداً في السفر؟ ماذا حدث في تلك الأيام بالضبط؟ فكر: لماذا تريد أن تعرف التفاصيل الآن؟ بعد مرور كل هذه السنوات، هي لم تنسى الأمر إذن. حتى البحر تؤلمه أحياناً حصوات صغيرة. واصل الشرود: لم يبق سوي قلب العصفور لديه، لماذا تقلب في كومة القش القديمة؟

القلب الذي اتسع لكل غاراته ومجونه، بحره الذي حفظ الأسرار، وصان له الكنز. قال: ألسنا معاً الآن؟

ألا يكفي هذا؟ أمسكت بالصورة القديمة، تلك التي كانت في دفتر الذكريات. قلبت النظر فيها: جميلة هذه البنت. انظر، ومدت إليه واحدة من الصور. أومأ برأسه دون كلمة. حين قرر أن يعود لم ينظر إلى شئ مما كان، لم ينتظر أحداً قط. في القبور التي شيدها من قبل طمر الأولين والآخرين. كان قد أمسك بمقص العدالة، وتناول اللوحة من كل جوانبها. فكر ملياً: ما لي وما عليّ؟ قال: هذا لا، وذاك لا، وتلك لا، هؤلاء لا، ثم رمي بالكل إلى الريح. لم يبق شئ. لا الماضي و لا المستقبل يخصانه، كل الذين عبروا

fb/mashro3pdf

قد استراحوا في جوف القبور، لا، لم يبق شيء. تانيا؟ لماذا تريد الحديث عنها الآن؟ تانيا؟ تانيا: أخر سطر في كتاب التجليات القديم، النجمة المارقة في محاق البلادة، أخر غارات الذئب على أطراف البهجة. قالت: حقاً كانت ترغب في وجودنا هناك؟ كيف يمكن تصور هذا؟ قل لي. ها؟ قال: بل ربما كانت مجنونة يا خالدة، هؤلاء الشقراوات مجنونات بليالي الشرق القاحلة!

قالت: بل كانت مجنونة بك يا مجنون. هل تذكر؟ لقد تحيرت كثيراً في أمرها، لم يقطع أفكارك المجنونة إلا فأس الشيخ الباترة. قال: ما كنت لأفعل ما يسبب لك الألم. حين عادت قليلاً إلى ربوة البحر، صار وحيداً مع الذكري. مدت اللحظات برأسها إلى الأمام. معقول هذا؟ يتذكر التفاصيل الناتئة. هنا في ذات المكان. قالت تانيا في شبه توسل: أنا أعرف كل شئ، ولا أريد منك التضحية بشيء، فقط تعال معي، هاجر إلى هناك. أقصد تعالوا معي. أنت وزوجتك وأطفالك. لا تفرط في خيوطك الصلبة. أغلالك كما تسميها. قالت باكية: لن يكلف الأمر سوي لحظة القرار. فقط تعال إلى هناك. كانت وحيدة أبيها. والعمل؟ سأوفر لك كل شئ. العمل والإقامة، حتى تذاكر الطيران. استرد كل هذا حين تستقر الأمور. فقط تعال. تبسم شارداً في الحسرة: إنه الحلم يصل متأخراً. دائماً تصل الأحلام في غير موعدها. أحاول: قال. فيما يعرف مقدماً أنه لن يكون. قال: لماذا هناك؟ قالت: كن معي. لا. ليس بالضبط. كن بجواري. في أي مكان تريد حيث أراك.

fb/mashro3pdf

قال:كيف؟ ذهبت إلى خالدة أمام البحر، أمسكت بيديها قائلة: صدقيني يا سيدتي. أنا لا أكذب. لا تصدقي أنني أسرق رجلك. لا. هذا الرجل واسع كالبحر. هل بإمكان أحد، مهما كان، أن يمتلك البحر كله؟ أتعرفين؟ سأتزوج من أول رجل أصادفه لكي يطمئن قلبك. فقط تعالوا معي. لم ينفع شيء. لن ينفع شيء. ويوم غادرت المدينة كان بوداعها. قالت: سوف تري. تلك الدموع الخضراء الساخنة، ذلك الألم الغاضب: سوف ترى. بمقدورك أن ترى قلبك، ومن هناك، وعلى مدى شهور طويلة واصلت النداء، أرسلت الرسائل والهدايا. قالت: تتحول البلاد حولي إلى صحراء. قالت: من أجلي احفظ الحلم حياً. قالت: هل تعرف هذا الشيء؟ هذه كبري خساراتى، و حين قاربت على اليأس أخبرته أنها ستغادر إلى باريس: سأقلب حياتي من الجذور. قالت: إن ذلك يستغرق زمناً، هذا ما أريد فربما أخلق واقعاً جديداً، تفاصيلاً جديدة، حتى موتاً جديد يطمس اللحظات التي تحرقني، كم أنت قاس وجميل.

منذ متى يا تانيا يحصل المرء على ما يريد؟ لم يكن حباً. أنا لا أعرف ما هو الحب؟ كانت لحظات كثيفة من الحياة. في الليل يأخذ جريد النخل شكل المسافرين المتعبين، يهمس الموج بلغة مستحيلة. بجوار البحر تكون اللحظة، ليس للكلمات وللوصف فائدة، كان القلب يصفي متاعه من حوانيت الحياة.

ينبغي عليك أن تتوقف، وهي لتكن نجمة أخيرة في سماء بائدة. البحر سفن وكواسج وأصداف، أمواج وغرقى، جبال وحيتان،

fb/mashro3pdf

صخور وقواقع. البحر. البحر. لا فائدة من عشق الكابوس. لن تقدر أن تصنع بحراً على هواك، لن تستطيع أن تثور، ولن تقدر على أن ترضى، لن تحملك الكلمات إلى جزائر الحرية والمطلق. الشوارع ضيقة، الناس ضيقون، كل شيء يلتف على عنقك كحبل المشنقة. متى تتحرر؟ لأجل هذا العجز أنت على مشارف الشيء. الأشياء تأخذ أهبتها لكي تمنحك المذاق، نشوة بأنك لست هنا، نشوة الخارج من محيط الجاذبية. البحر. البحر قديم. قديم.
لكنه في كل صبح. بحر غير البحر!

fb/mashro3pdf

مساء الأربعاء، ومن التفاصيل الصغيرة تولد الأساطير. كانا قد اتفقا منذ زمن أن هذا الأربعاء يوم سعد لهما، فيما يظل الثلاثاء يوم ثقيل و مر. لا يستندان في هذا الحكم على قاعدة. في هذا المساء حلا ضيوفاً على أقارب لهما، يقطنان على ساحل البحر في غرب المدينة. بين الغرفة التي نزلا بها و بين الماء عشرون قدماً لا أكثر. ممر حجري أزرق. بين فواصل الأحجار الكبيرة أزهار تقاوم الملح والجفاف، حمراء وبيضاء. من نافذة الغرفة يبدو البحر وكأنه يتكسر إلى شرائح من فضة لامعة، وعلى المدى الأبعد تختلط أضواء النجوم المزهرة بالضوء الرجراج لقوارب الصيد. هذه الليلة ساكنة، فيما كانت اللحظة تتوالد. نسمات من منابع هبوبها تصل خضراء ومبتلة، يود البحر يطرق عوارض النافذة بإلحاح، دلافين تتقافز بين حدي الماء، ندى يتكاثف في سقف الغرفة الأنيقة، بخار حار يعلق على زجاج النوافذ، كثافة مالحة تلوح، وهي كانت تتفتح كزهرة الأساطير. يسكن كل شيء، يفر الرمل إلى حيث كان في الأزل. يحدق، يكاد يبصر العروق الدقيقة، تدفق الدم في الشرايين، سرب طيور حمراء صغير يتهادى، تعلو الأنفاس وتهدأ، سفائن محمولة على رقائق من زئبق فوار. ماذا يحدث للمكان؟ ماذا يحدث في اللحظة؟ أين نحن بالضبط؟ كان الصمت أليق الأفعال وأجداها. ما نفع الكلمات؟ تحركت على حافة الغرفة التي مادت تحت سطوة قدميها، نظرت إليه بعيداً وعميقاً، ارتجف من

fb/mashro3pdf

الضوء الساطع يشطره إلى نصفين، ذرات بلا قرار. قال: ما نفع الثوب الذي لا يستر عورة؟ شاهد نفسه عارياً حتى العظم في مرآة تحوطه من كل جانب، لم تترك له مجال سوى العجز المطبق. تدنو الشمس من رأس البحر، أي طاقة على المحو تتجول في فضاء الغرفة؟ أين الجدران؟ السقف، السرير، النافذة؟ أين؟ أين هي بالتحديد؟ وأين كان هو بالضبط؟

ما لا يمكن التعبير عنه ماذا تفعل قبالته؟ دروب هائلة من النسيان، صنوبرات زاهية الخضرة، يتدفق الليل من ثقب الباب، تتكسر قارورة المسك وتسيل على الصدر، يتسلل موج صغير فيأخذ القوائم إلى اللجة. لو تنطق بحرف! لو يستطيع هو الكلام!. لا. عواصف من برق أشهب، تستقر ضربات ناعمة وحاسمة في القاع. في القاع تتبلور كل المشاهد. أعمق من البحر، من طاقة المرء على الهرب، تتسع شرايين ودوده، يدلف إلى التواءات وانحناءات شديدة الحنان، يتمدد بكامل هيئته، ملامحه، تاريخة، يغوص فلا يرى ولا يحس ولا يتذكر، فلتهب العاصفة، العواصف، ليجن البحر، لتنطبق السموات على الأرض. لا بأس. لا بأس. طويلاً وعميقاً. المكان. الزمان. الدرب الذي لا يعود منه السائرون. لو تنطق بحرف! دون أن يدري متى وكيف ستميل رأسه إلى تلك الغرفة، وسيرى كل ما كان يكون، سيعرف أن الوصول إلى تلك الحافة نذير رحيل، وسيرحل الراحلون فيما يظل البحر شاهداً. ربما لا يعرف كيف النسيان. مساء الأربعاء. مساء الخروج من الجنة.

fb/mashro3pdf

-٦-

حين لا تنتظر شيئاً، عليك أن تتوقع أي شيء. ذلك المساء الوردي كان بمفرده على ربوة البحر القديمة. حين عاد إلى بهو المنزل دق الهاتف برتابة، قابل الدقات بفتور مماثل، مد يده متثاقلاً: نعم. أنا عالية الشاهد: قالت. لم لا تأتي الليلة وتسهر معنا؟ قال الصافي: قد نأتي.عالية الشاهد صنو خالدة ونصف روحها المناقض. لكنه سيذهب إلى هناك، لا أسباب تدفعه غير الذهاب وحسب. حين استقر به المكان وسط الدائرة الصغيرة من الأصدقاء والأطفال بادر بالسؤال عن عاكف القصري "زوج عالية «. قالت: إنه غادر للعاصمة لمراجعة الطبيب. مازحها قليلاً قائلاً: لن يضيرك غيابه يوم أو يومين، لقد أخبرني من قبل أنه قد أودعك من السعادة ما يكفي لعشرات السنين. هكذا الرجال دائماً: أجابت، لا يكفون عن التفاخر. لم تكن في حالة قلق وحسب، إنها لا تكف عن القيام والجلوس، هنا مرة، وإلى هناك أخرى، تصرخ في الأطفال طالبة بعض الهدوء، تأتي بالشاي والحلوى، تجلس قليلاً، ثم تهب نافرة. يسأل: أنت متوترة؟ لماذا؟ تبدين منزعجة يا عالية. أجابت بضيق: أنا؟ لا. متعبة قليلاً وهذا كل شيء. بعد دقائق صمت تنطق بالحروف الباهتة: في الحقيقة إن الضجر يقتلني، أشعر أني أختنق، لا جديد في الحياة، هي ألعاب كل يوم. قال: لماذا الضجر يا عالية؟ لا شيء ينقص عندك، كل أسباب الحياة تدور حواليك، ربما هو القلق الزائد على الرجل، لا تخافي سيعود سريعاً يا سيدتي. كل

fb/mashro3pdf

أحد يرى ما يريد أن يراه: أجابته بحسم، وواصلت: لكنني متعبة ولا أريد الخوض في التفاصيل. ينظر إليها وهي واقفة على افريز حديقتها الصغيرة، تكاد تنتفض، تزفر بضيق وتحاول أن تبتسم. تعالي واجلسي: نادى عليها. حين همت بالجلوس بادرته بشبه ابتسامة فاترة: احكي لي أنت، حكاياتك لا تنتهي، أقول لك، احكي لي عنك وعن خالدة، أنت لا تعرف كيف أشعر حين تتحدث عنها، ربما لن تصدق، محظوظون أنتم. قال: ولكنك تعرفين كل شيء، ليس لدينا أسرار يا عالية. يعود الأطفال للصراخ بقربها فتسمح لهم باللعب في الساحة المقابلة، وتعود إلى غروبها القلق. نحن لا نقدر أن نكون مثلك وخالدة: قالت في صمت واسع، وهو أجاب بثقة: تماماً يا سيدتي كما لا نقدر نحن أن نكون مثلك والقصري. لكن الجميع يعرف أنكما سعداء، أقصد عاشقان كبيران. قال: ومفلسان أيضاً يا عالية، لم يبق لنا سوى الحب، إنه متاح للجميع.

كان الليل قد ألقى عباءته على الشاطئ، فيما هي لم تزل راجفة حانقة. دون عناء يعرف أن النهر لم يصل إلى الحواف العالية، أن ظمئًا يشتد ويصرخ في عروق نهمه، أن الحياة مهما كانت عطاياها، تظل هناك أشياء خارجة عن القدرة، قدرة أن تأتي وأن تذهب، لا الثروة ولا السلطان يا عالية يكفيان لشراء تلك الحاجات، لماذا لا يعرفون الحساب الصحيح؟ قطعت صمته الشارد بالسؤال: هل حضرت لتجلس بجواري صامتاً؟ قال: لم لا نسر على الشاطئ قليلاً؟ لم تجب بكلمة، غير أنها نهضت صامتة، تتحرك باتجاه البحر

fb/mashro3pdf

القريب، عاودت النظر إليه، كان يهم باللحاق بها، بدت خطواتها واثبة حيناً وبطيئة حيناً آخر، لم تكن تلك الخطوات عازمة أو مستقرة، كان القلب حائراً بين الاندفاع والتراجع، بدت عاجزة عن الفصل بين الرغبة والخوف، حين لحق بها وصار بإمكانه أن يحدق في الوجه الحاد الصارم واصل الابتسام: حاولي يا عالية ألا يشغلك غير اللحظة، لا تفسدي روحك بالحسابات. قالت: كل شيء كما تقول يدعوني إلى السعادة غير أني لست سعيدة، أشعر بهذا وأخجل من الحديث عنه. قال برفق: أنت مشغولة عن نفسك أكثر مما يجب، ولكن ماذا أفعل؟: تساءلت، كأنني تلميذة محاصرة بالواجبات. قال: وماذا لو ترسبين في مادة من هذه الواجبات فيما تربحين حياتك من ناحية أخرى. واصلت: أنت وخالدة ترسبان أحياناً؟ ضحك وقال: بل راسبون على الدوام، لكن ذلك لا يزعجنا، إننا نعرف طاقتنا.

تنهدت: ولكنك تعرف أن القصري لا يريد أكثر مما اعتاد عليه كل تلك السنوات، لا فائدة قال: لكنه طيب وودود، هذه هي طاقته، كوني سعيدة بذلك. أجابت بحيرة: ولكني أعرف أن هناك سعادات صغيرة لا تكلف شيئاً. إذن تلك موهبتك في الوصول إليها، هي لحظة يا عالية، الزمن كله لحظة، وحين يواصلان السير على شاطئ البحر تتخفف من أحمالها، تغدو حركتها أسرع، يتطاير رذاذ الموج على صفحة الوجه المشتعل، يبتل أسفل ثوبها فتهرب بعيداً عن الماء، فيما هو يواصل غرز العلامات والغوص في قاع البحر، وفي انحدار

fb/mashro3pdf

الشاطئ القريب يصادفان لافتة الفندق الكبير، تحذر من الدخول إلى منطقة خاصة برواد الفندق، بدا وكأنه لا يعرف القراءة، أفاق قلب قديم لا يأبه للمحاذير، فواصل السير برفقة عالية التي شارفت على الخروج من قوقعة أحزان واهية. مالك والحزن يا عالية؟:قال. نحن على هذه الأرض لتلك المهمة المقدسة: قال. لنعاود الطريق الآن. صارت ندية وطيعة، أسلست القياد فقادها على إثر خطوها، يشعر في الأعماق بتغير غريب، رجل سافل ووضيع، يرمقه بنظرة ساخطة، ويبصق على ظله في الماء القريب، يعاود الظل الخروج: كأنك نبي يا صاحبي. منذ متى؟.هة. لا. لست نبياً أيها الغبي، ولكنني أريد أن أظل جميلاً، بمقدوري أن أفعل ما تظن. لا. في منتصف طريق الإياب، ذابت قواها الغاضبة، فتبددت السحابات القاتمة، بدا وجهها وقد أشرق تحت حبات العرق، فيما كان جسدها يتمايل وفقاً لموسيقى بعيدة آتية من أعماق البحر أو من أقاصي نفسها، لم يبق من الطريق إلا ما يربو على المائة متر. أشتهي أن أركض يا عالية، فهل تشاركين؟ قالت: لم تعد لي طاقة. قال: هذا ما أتوق الوصول إليه، عندها فقط تعودين طفلة رائعة وجديدة. شاقها لفظ (طفلة) تفجرت أساريرها بالبهجة. يا قصري هي كلمات صغيرة كل ما أحتاج. تلامسا بالأكتاف على نقطة من الرمل: من هنا نبدأ. سنبدأ العد. واحد. اثنان. ثم ننطلق. جذبته إلى الخلف قائلة: اسمع. لا تعدو بكامل طاقتك، أنت رجل، تذكر هذا. قال دون أن يجيب: أبداً يا سيدتي لا أعدو بكامل طاقتي،

fb/mashro3pdf

خاصة مع المرأة. قالت بصوت كان يخرج من عظامها: واحد. اثنان، وانطلقا. كان ثوبها يعيق قدميها على الركض بكامل حريتها. قال: اجذبيه إلى أعلى، لن أنظر إلى ساقيك، إنني معني بالسباق فقط. أطاعت دون جواب وواصلت الركض، ظلت تعدو أمامه وهو يصرخ من الخلف القريب: لا تتوقفي، في أي لحظة أستطيع أن ألحق بك وأكون الفائز، لا تكوني الخاسرة هذه الليلة.

عندما قارب على الوصول إلى منحنى المنزل، باعد ما بين ساقيه، وانطلق كومضة خاطفة، حين لامسها ربت على ظهرها وواصل الركض متجاوزاً إياها بقليل، عند التواء الطريق ناحية المنزل توقف، كان بانتظارها، كانت تلهث، تكاد تقئ أمعاءها، يواصل الصراخ: هيا، إياك أن تتوقفي، خطوة، خطوتان، مهرة رائعة، غزال رشيق، تقدمي يا جميلة، هيا، هيا، خطوة واحدة باقية، فرد ذراعيه الطويلتان، هيا، حين شارفت على الوصول كادت أن تنكفئ على وجهها، أسرع إليها والتقطها، ضاماً إياها إلى صدره المفتوح كشراع، بدت ثقيلة ومنهكة، تشبث بها إلى أعلى، كانت تتداعى، وكان يوقن أن بإمكانها الصمود،

شدها إلى أعلى، همس في أذنيها: قفي على قدميك، اريني هذا الوجه الرائع، حين سندت قوامها إلى جسدها الراسخ، كانت أنفاسها تخترط شعيرات ذقنه النابتة، ألقت برأسها الثقيل على جانب صدره، أحاط بخصرها وضمها إليه رافعاً، كانت أنفاسها تتلاحق، مرغت وجهها في عشب مشترك، أدار كفيه على منابت

fb/mashro3pdf

ظهرها، يربت ويشد من الأزر المتداعي. قال هامساً: انطقي. ماذا تشعرين؟ بخير أنت يا جميلة. لم يحظ بجواب قط، تعطلت اللغة في فمها، كانت على مشارف الصعود أو الهبوط إلى تلك اللحظة، لم يغفل أبداً عن حراسة الباب الأخير، ذلك ما لن يكون أبداً. أبداً. فيما كل الظواهر قالت أن لن يكون سواه. أمسك بوجهها وأعاده إلى الخلف قليلاً. حدق في العينين السوداويين، مثقلتان بجبال من الحنين. واصل الهمس: أنائمة أنتِ؟ حركت رأسها قليلاً، ثم عاودت الارتماء، حين بدأت أصابعها تجوس في دائرة عنقه، كانت ساقان تنغرسان بين قدميه، فيما صارت أنفاسها نداءً غامضاً و ملحاً. لا. فليوقف السباق الآن. مد يديه إلى خلف ظهرها، انتزعها من لحظة الانكسار الجليل، أيه يا عالية؟ ها نحن على مشارف البيت، ارتد إلى الوراء، يريد أن يرى إن كان بمقدورها مواصلة الوقوف، بدت ذاهلة وغريبة، مسافرة من كوكب بعيد، وصلت تواً إلى باحة الأرض، جلست فجأة على الأرض المبتلة بالرذاذ. قال: هيا. نظرت إليه طويلاً، ثم أدارت وجهها إلى الماء الذي صار أسوداً وثقيلاً. لم يعرف، عاتبة كانت أم غاضبة؟ فيما كان يوقن أن اللحظة مهما ابتعدت في الغياب فلن تجلب الندم إليه يوماً. قامت وقد بدأت في استرجاع حواسها الضائعة. الآن يا عالية. حين اقترب من ضوء المنزل القريب. قالت: ما الذي فعلناه بالضبط؟ قال: لا شيء، لحظة من حياة، ومجاناً يا عالية. قالت: هل كنت تعرف التفاصيل؟ لا: أجاب، لست مهتماً بالسؤال، لكنني أعرف أنك عالية،

fb/mashro3pdf

وأنه القصري، وأنها خالدة، وأنني أنا. أمسكت بيديه، كان يعرف ما تريد أن تقول، قال: لا تخافي، البحر لا ينطق أبداً يا عالية.

fb/mashro3pdf

العابرون

fb/mashro3pdf

-١-

ربيع هو الوقت. بدا وكأن الصافي قد أزمع أمراً. من الآن فصاعداً سيتلو من آيات الكتاب، ربما تختفي كل الضمائر. كلل الغبار أقدامه وهامته، كان يخشى أن يتطور الأمر أكثر من هذا فيموت مغموراً في واحد من الطرق المجهولة، قرر في لحظة لا يستطيع أن يتذكر ظروفها: ثم إلى أين؟ عشرون عاماً تكفي لكي تعرف أنك في الطريق الخطأ، لن يحتاج الأمر إلى أكثر من لحظة، كلمة واحدة، التفاتة واحدة فقط فإذا بك في الناحية الأخرى. قل: كفى هذا، ثم يمم وجهك للجهة التي ترغب. هل أنت حقاً ساذج إلى هذا الحد؟ هل أنت حقاً تعرف ماذا تريد؟ قلت لك: كفى انقساماً على ذاتك التي قاربت على الضياع. غير أنه لم يشعر بالندم. الندم على الهباء الطويل القديم. يقول: ربما كان جزءاً من الطريق، ربما كان ممراً لا مفر من عبوره للوصول إلى هنا. ما أيسر أن تعرف ثم تنسى التفاصيل. لا. لم يكن الرحيل الممتد عبثاً ولا هباء. هذه حقيقة. من العدل أن يعترف أنه لاقى في الدرب، أول الدرب من قدم له النصح والإرشاد، من أخبره بعدم الجدوى وتوفير الجهد المبذول، من العدل الإقرار أنه كان يعرف ويرى تجارب الآخرين، جاهزة كدواء السعال لمن يرغب في الشفاء من داء الحياة. يقول: كنت وربما لم أزل قليل الثقة في عطاء الآخرين. كان يتوق أن يعرف بنفسه، أن يتذوق كل المتاح، ها هو الرحيل قد قاده إلى النقطة الفاصلة، ها هو على مشارف الهلاك، ذاته التي تكاد أن تضيع،

fb/mashro3pdf

وبات هو أول الجاهلين بها. الغبار فقط هو حصيلة الرحيل. ضاعت الخطوات في حين انتهاءها، اندثرت الوجوه وغابت الأحداث. فقط الغبار الداكن، يتجول على هيئة غمام رمادي في سماء باهتة. أن تقول كفى، هذا ليس معناه اليأس، إنه نوع من اليقين المفاجئ، يزهر فجأة في غابة العبث القاحلة. قال: لن يتبقى لك إلا نفسك، نفسك وحدها، حتى وإن كانت جحيماً لا يطاق، فهي أرحم من جحيم الآخرين، ليس أرحم فقط، ولكنها الأجدر والأولى، خاصة وأنه يربطك بها وشائج لن تزول إلا بزوالكما معاً، فليوقف سيل الهجرات، أغمض عينيه وبدا سعيداً، كاد أن يضحك لمجرد عبور هذه الكلمة الشائنة على مخيلته، لنقل راضياً، هذا أقرب للصدق. لن يستغرق الأمر أكثر من لحظة: هكذا قال. مدد قدماه في اتجاه النافذة، حاول للمرة الأخيرة أن يفتح عينيه إلى أقصى مدى، ثم يترك جفونه تتدلى كباب حديدي على الكنز المجهول، تساءل وهو على تلك الحالة: هة. ماذا رأيت؟ أجاب بثقة وسرعة: لا شيء. ثم عاود الابتسام في جلال وهدوء، التفت إلى جسده الملقي حواليه، خاطبه برفق وحسرة: أنت. أنت أيها الظل الذي يربكني، لو أخلصت لي سأقودك إلى نفسك، أيها الوحش الملول ساعدني فقط، ربت عليه وحاول أن يذهب بعيداً في النوم.

fb/mashro3pdf

-٢-

العابرون: يركبون الزمن خفافاً، مسرعون، لا يشغلهم الحيز ولا الوزن، ربما بيقين غامض يدركون إنهم على عجل، لا فائض وقت لديهم ليبددوه، لا خصومة لهم مع الزمن، ولا وشيجة عالقة بالأشياء، محض لمس سريع، من هذه القاعدة تتحرك خالدة، لا تحتاج إلى وقت لكي تؤمن، إن معجزتها واضحة محققة بين يديها، كأنها نبع لا يعرف الكدر، طاقة ضد الأسى والخسران، عابرة على عجل، لا تقيم إلا في اللحظة، هي اللحظة ولا غير، محض مس خفيف. أما هو فكان يغوص وراء الأشياء بحثاً عن معنى أو اسماً أو مذاقاً، أي شيء، يريد أن يقتنص الحياة برمتها، حين لا يجد الأشياء، يخترعها، الخطوة التالية هي شغله الشاغل، أبداً لم يعرف الطمأنينة. بذرتان وحيدتان، غرست كل واحدة منهما في قاع الأخرى، فتشعبت الغابات وتشابكت الأغصان. بذرة الرضا وبذرة الرفض. قالت له: لا تشوش الكون عليّ، لا شيء يرضيك، وفي المنحدر الطويل على ساحل البحر، من باب البلدة البحري يمرقان، يؤلمها ضيق الحذاء الذي تنتعله، تخلعه وتقبض عليه تحت إبطها، يميلان ناحية الساحل، هذا الماء شديد البرودة. يلتقيان بعجوز تقرأ الرمل. نصابون وشحاذون: قال. بل حزانى جياع: قالت. تلتف اللحظة عليهما كخاتم عرس لصيق. معاً لا يحلمان، كل واحد منهما غائص في ماء الآخر بلا حلم ولا حتى أمل. أنت تحلم حين تشعر بالنقص، بالرغبة في شيء آخر، بالتوق إلى شيء ما. معاً، لا

fb/mashro3pdf

شيء من هذا. يلتحمان وينفصلان، قد يجرح واحد منهما الآخر، لا لشيء، فقط للرغبة العارمة في أن يقبل دمه. أهذا ما يقولون عنه الحب؟

الحب. من يعرف له وصفاً أو معنى؟

fb/mashro3pdf

-٣-

لكي تنبت البذرة، لابد من دفنها "جلال الدين الرومي"

أترى؟ أقول لك: هاهنا، انظر، اخبرني ماذا تجد؟ لا شيء. كيف! إنه يؤلمني، بالضبط أعلى الكتف الأيمن. ماذا في أعلى الكتف الأيمن؟ لا شيء. بيد أنها تخاف.

كم مرة يشتكي الإنسان في حياته ثم ينسى شكواه، لكنها لا تنسى. أقول لك يؤلمني. قال: لا بأس، نحن معاً، لا تخافي. لماذا لا تصدق هذه المرة كلام الرائد؟ قالت: أشعر أنني أبتعد، راضية وحزينة، كأن ذراعاي صارت أجنحة يا ولد، أظن أنني سأطير. عاودته السخرية فقال: ليس أبعد من دجاجة. قالت دون أن تلتفت إلى المزاح: أصبحت أخاف كثيراً، لكنني أحبك، متى يرحمك الناس. آه. لكن كيف وهم لا يعرفوك! وأنت تمضي على عكس هواهم. فجأة ينبت للحذر جذور، يشرد طويلاً، يتسرب إليه الداء اللعين: الخوف، يقترب أكثر وأكثر، شيء يدفعه أن لا يفرط في دقيقة من وقت. لماذا؟ لماذا؟ كل دقيقة منذ الآن بحساب. يزيد الألم أم يقل؟: يسأل. لا ينام إلا فاتحاً عينيه، يحدق، يحدق في النذر، يعاود الكتابة من بئر سحيق، يبكي، يبكي ملء الليل والنهار، سيجثو في أشد بقاع الأرض وعورة، تحت نار الشموس ولفح الرياح، يتوسل ويأخذ على روحه أقسى العهود.

fb/mashro3pdf

قال: أقبل المقايضة بروحي يا الله، لم يبق لي شيء، أنت تعلم، لو كان هذا اختبارك الجديد لي، أرجوك، لا تفعل، فوق طاقتي اختبارك هذا، أرضى، أرضى بما تشاء كله، حتى هي، افعل بها ما تشاء، لكن دعها معي، عذاب مقيم. أقبل. أقبل. ربما يا سيدي، لا أستحق رحماتك الوافرة، لكن إلى من تذهب هذه الرحمات ولا مستحق لها في الأرض سواي!

يا سيدي. يا سيدي. هذه البذرة يمكن لها أن تنبت فوق الأرض أيضاً.

fb/mashro3pdf

-٤-

يواصل القراءة من كتاب الكابوس: من المخطئ ومن المصيب؟ ما فائدة الصواب والخطأ الآن؟ ما الطائل من وراء هذه المعرفة؟ سيظل السؤال عالقاً ومعلقاً كحبل المشنقة. أمن الممكن أن يحدث هذا الآن؟ كلهم يقولون: لا، لا شيء، الأمر أبسط من هذا بكثير، الأطباء الكاذبون، الحياة التي تتزين في أبهى أشكالها، الوقت الرخو كنسيم امرأة خرجت تواً من عطر النعاس. فلماذا ينقبض وحده على هذا الشكل؟ من المخطئ ومن المصيب؟ قال: أنت الذي أخطأت، وهم ساعدوك على ارتكاب هذا الجرم، أنت الذي ألصقت هذه الكائنات بلحمك الداخلي عن طريق الصدفة الكاملة، و بحركات لا تتذكرها، في وقت لم يعد معلوماً لديك، فجأة وعلى غير قصد منك عجنت هذه الأرواح في وحلك الحي، واصلت وواصلت في استغراق الزمن واللهو حتى صرت وصاروا كائناً واحداً بأجساد كثيرة. لكن قانون الحياة لا يعرف هذه السخافات. قلت: حتى وإن كانت سخافات، فهي حياتي. قال: التاريخ ساعد على الجريمة. قال له بهمس ناعم كالجنون: بأكثر من هذا مررت، ولم تنفصل مجرتك الحميمة، لن ترى هولاً أكثر مما مر بك، لا تخف ولا تصدق الظنون. هي أيضاً ساعدت، لم تشر ولو مرة واحدة، كان بإمكانه أن يفهم، أن يحتاط، أن يدرب نفسه على السير في وسط الحياة، مسلوخاً كالثعبان العاري، كأي مسخ لا علاقة له بالحقيقة، كأي ظل لجدار، لغراب أسود، لأي شيء. هي أيضاً.

fb/mashro3pdf

نعم هي. قال: حدقت في أعماقه كما كانت تفعل على الدوام ثم انفجرت ضاحكة: يا ولدي سيقتلك الحب، ثم أشارت إليه أن يتقدم نحوها، حتى إذا اقترب من النبع، تلقفته العيون، ودفعت به إلى أبهى الفراديس، غاصت به إلى حيث لا يعمل عقل ولا يفقه قلب. كيف له أن يعرف آنذاك؟ كيف يصدق أو لماذا يحتاط؟ ليس هي وحسب، بل أن الزمن شارك في الملهاة، صور الوقت كأنه غير الوقت. كل شيء. من المخطئ ومن المصيب؟ مازال الخيال يجوس في أرض المحاذير، دلف القطار الأشهب إلى حقل الألغام، توسط دائرة الموت الوشيك. ترى في أي شبر من الأرض ستهب العاصفة؟ انتبهت لديه كل الحواس، تحول وجوده كله إلى لحظة مرتقبة، صار الزمن كله محض انتظار. هل كان الوقت الباقي كافياً للتمرس؟ هل كان بالإمكان إعادة ترتيب الجراح؟ أن يتعلم ما يكفي لمواجهة الآتي؟ هل يسبق الزمن ليرى؟ يرى ماذا يكون الأمر من بعد؟ كيف له أن يصدق ذاتًا ما عادت تدري شيئاً؟ أصرخ أكثر. أكثر: قال، أقذف وجهك الطافح بالنار إلى ثلج الماء، أفق من جمر هذا الكابوس، أجرح لحمك اليابس بأظافرك، أفق يا رجل، أنت مازلت هنا، وهي لما تزل بين يديك، لم يحدث شيء، أفق، افتح عينيك لترى، حتى لو يتطاير قطارك في الصحراء الملغومة إلى نثار ورماد،

أسرع بخطاك إلى هناك. هناك. أين هناك بربك؟. ها هو اللغم الإلهي لا يترك لك حتى طريق الإياب. هناك!! حتى تلك البدايات بادت،

fb/mashro3pdf

لا أحد هناك، مثلما لا أحد هنا. لا أحد. لا أحد. الله هو الموجود وحسب. هنا وهناك. هو الذي أوقفك هنا، مفصولاً عن البداية، والنهاية أيضاً. هنا. فقط. أنت هنا. انتظر ما تجود به عليك اللحظة، اللحظة المارقة من ثدي الغيب، حليباً أسوداً. أسود حتى قبل أن يأخذ لونه الأخير الزائف. لا. لم يحدث شيء.ها أنت هنا وهي أيضاً لما تزل بين يديك. فلماذا الصراخ. آه. لماذا الصراخ؟.

من القائل: خصومة قلبي مع الله؟ حتى مع الله قال: أنا عاتب وحزين.

fb/mashro3pdf

الساعات

fb/mashro3pdf

في قلب العاصمة يشقون الزحام. قال للهاني الذي يرافقه في الطريق إلى حجز زيارة عند الطبيب الشهير: ترى كل العواصم كئيبة كهذه؟ قال الهاني: لا، حتى هذه المدينة بإمكانك أن ترى جمالها لو تخلصت من دخان أفكارك السوداء. حين يصلان إلى واحدة من البنايات القديمة في قلب القاهرة، يصعدان. قال للهاني: ماذا سيقول الطبيب؟ لن يشفي غليلي هذا الطبيب الذي توقنون به، ولكنه عصر العلم يا رجل: أجاب الرفيق. كل شيء يمكن علاجه، إنهم يغيرون الأعضاء بسهولة تامة، يرون ماذا في ظلمات الإنسان وكأنه مسرح مضاء. واصل الرجل، ولكن الصافي لم يزل يتساءل: وماذا يغيرون أيضاً؟ إني أرجو أن يكون في مقدورهم أن يغيروا شيئاً من أقدار البؤس وحزن المصائر، نحن نتبع علامات الطريق وحسب. حين دلفا إلى قاعة الانتظار الخاصة بالناس والمرضى، قال الحاجب: بعد منتصف الليل يكون قد حان وقتكم. يفكر الصافي: شكوى بسيطة في أعلى ناصية الكتف! لا شيء. يحملون في أيديهم حقيبة كاملة من الأوراق و البيانات، أسماء العلاجات التي تم تعاطيها من قبل، بيان بوظائف الجسد كاملة و مصورة، وحين لحقت بهم خالدة مازحته قليلاً: هل تصدق؟ لا شيء يؤلمني الآن، لكنني خائفة قليلاً. يواصل الدهشة: لماذا تخاف من وخز صغير في أعلى الكتف؟

fb/mashro3pdf

لماذا أيضاً يزداد البهاء في صفحة الوجه الملغز؟ حين صرح لهم الحاجب بالدخول، قبض على ذراته الهاربة، ولج إلى كهف العلم المقدس، غرفة نظيفة واسعة تليق بعالم جليل، لم ينس حظوظه من الدنيا، أناقة وعطوراً وتحضراً في الحديث، جلسوا أمامه كصف من العاجزين، أعطوه دفتر من البيانات كاملاً، أضاء اللمبة البيضاء وقرب نظارته من أنفه الأحمر وصار يغوص في الأوراق والقلوب أيضاً، يرجع بظهره إلى الوراء قليلاً، ثم يعاود الفحص في كومة الأوراق، دقائق كالدهر، قال بصوت بارد حاسم: اصعدي سيدتي هاهنا، هل رآها طبيب متخصص قبلي؟ سأل العالم الجليل. قالوا: نعم وذكروا له أسماء غير قابلة للشك في مجال نبوغها وشهرتها. تململ الرجل قليلاً: ولكن هذا غريب، غريب جداً، الأمر واضح وجلي، كان بالإمكان تدارك الأمر، ماذا كنتم تفعلون من قبل؟ كنا نبحث عن الأمل عند كل باب يا سيدي. ولكنها الرئة؟: قال الرجل ولاذ بالصمت. الرئة؟ ماذا يعني بالرئة؟ إنه وخز بسيط في أعلى الكتف! لا وقت عند العلماء ولا مشاعر. قال: الأمر يتطور سريعاً، لن يجدي العلاج في المنزل، نحتاج إلى إمكانات وملاحظة، لن تتوافر إلا في مستشفى كبير، ستكون تحت ملاحظتي الدقيقة، لن أترك فرصة لاحتمال واحد، سأفعل ما يمكن عمله كما لو كانت ابنتي، هذا الجمال الرائق لا يحتمل العذاب، كوني واثقة قال لخالدة. هذه نهاية تموز القائظ، وهذه أيام للبلاء المقيم.

في قلب القاهرة الجميلة تتوزع الحياة إلى شرائط، هناك بعيداً في

fb/mashro3pdf

الشرق، في المشفى الكبير، في الشوارع التي لا تدري بما يجري لروادها، بالانكسار العظيم الذي حل بقلب الصافي، والجمال الذي بدا يتكاثف بشدة كهالة من نور وروعة حول خالدة وما يخصها، وفي أول يوم في الإقامة بالمشفى. قالت: لا أستطيع النوم. قال: نسهر معاً. قالت: متى نخرج من هنا؟ قال: نحن في أول يوم يا خالدة، بعض الصبر ثم نخرج يا أختي، وتواصل مستندة برأسها على أعلى كتفه: اسمع يا ولد، سأقاوم كل شيء لنخرج من هنا، معاً يا ولد، لكن هل تعرف كم أحبك! و لكنه بدلاً من أن يجيب، أخذ يشهق بالبكاء. عندها قالت: لا. لا تفعل من أجلي.

الثاني من آب / أغسطس.

تتوالى ابتسامات الأطباء، ممرضات يستعرضن قوامهن ويوزعن الأمل، لا يتقدم غير القدر في مجراه، واثقاً، صلباً، لا يأبه بأحد، وهي تزدان بالبهاء كاملاً ولا تكف عن السؤال: متى نخرج ونعود؟ سنخرج يا سيدتي. بشر بلا حصر ولا فائدة، أهل وأصدقاء، أطباء من كل الجهات، يصلي المحبون ويواصلون الدعاء: الله قادر. نعم. نعم.

fb/mashro3pdf

العاشر من آب / أغسطس.

تدنو الشمس أكثر وأكثر، تضيق القاهرة وتتسع، صلوات وعذاب، تنحدر الأيام والليالي. إلى أين يا رب؟ ملتصقاً بالهاجس الحي. ترجع بالزمان إلى بدايته، ولا تكف عن المرح: متى نخرج؟ قال العالم الجليل: هذا برنامجي، أنتم على اتصال يومي بي، اذهبوا إلى هناك، ربما هذا يساعد في المقاومة، لكن حتى هناك لابد من مشفى لائق، اسطوانات الهواء، الملاحظة الدقيقة. الله كبير. قالت: عذبتك كثيراً معي، ولم يقدر أن يجيب.

رافقها إلى الطريق الذي سيخرج بهما من القاهرة، كانت الطائرات تهبط وتصعد من المطار الكبير. قالت له: كادت روحك تزهق حين صعدت بنا الطائرة. أتذكر؟ ليتها زهقت يا خالدة: لكنه لم يقل. فكر في أن يقول شيئاً، لكن ماذا يقول، وكل الكلمات باتت صغيرة عديمة الجدوى.

fb/mashro3pdf

الخامس عشر من آب / أغسطس.

قالت: أحبك. أجاب بصمت يتسع لعشرون عاماً من الحب.

العشرون من آب / أغسطس.

قال: أذهب قليلاً وأعود. قالت: لا، لن تذهب أبداً، معي كن. قال: فليكن.

قالت: ماذا ترى؟ قال: لا شيء غيرك.

قالت: لكني رأيت أشياء غريبة. قال: ماذا تشتهين؟

قالت: لا أريد أن أموت. قال: لن تموتي. أنت خالدة.

قالت: في هذا الأمر لا ينفع الشعر. قال: قد ينفع الحب.

قالت: ليته ينفع. قال: ما جدوى الحب إذن!

عصر الخامس والعشرون من آب / أغسطس.

في باحة المشفى الذي يطل على الصحراء، يرى الهاشم يستند إلى باب سيارته، يناديه قائلاً: هيا بنا، أريك شيئاً هناك ونعود سريعاً، يستقلان سيارة الهاشم ويهبطان الطريق المتعرج خلف البلدة النائمة على أحداثها الصغيرة. واجماً كان كالحجر، ردد دون أن يلتفت للسائق بجواره: كل شيء سينتهي. لم يكن بحاجة للمشاركة أو حتى للحديث. أه. كل شيء سينتهي، بدت الحياة ليس أكثر من مقبرة، نهض الموتى في تربة روحه ثم تدفقوا على شاشة عينيه اليابستين، الأحباب والأصدقاء والمجهولون حتى، كل الموتى نهضوا بغتة إليه. ماذا عليّ أن أفعل؟ قال. ليس أكثر

fb/mashro3pdf

من حصر الجثث الغائبة. من هنا؟ تساءل الهاشم. أجاب: نعم. ليس إلا هنا. خطوات وصاروا وسط المقبرة اليانعة بشتلات الصبار الحادة. وقف أمام الباب الحديدي الكبير، عالج المزلاج الملتف بجنزير حديدي، ودلف إلى صدر الباحة المكتظة. كانوا هادئين ونائمين، قبور متراصة في نظام صارم، طويلة وقصيرة، سميكة ونحيفة، بأسماء ومن غير أسماء، هاهو بداية الغروب، شمس تنزف آخر قطراتها فوق ثوب مهترئ، صعد التل الصغير ولم يلتفت إلى الهاشم، لم يبصر غير الطوفان. كل شيء سينتهي. آه. هكذا بالضبط. تجاوز بعض القبور بحرص زائد حتى توسط دائرة من الرمل الفارغ. ربوة فارغة من القبور. عالية ونظيفة. جلس في وسط الدائرة التي خط محيطها بباطن قدمه. من هنا يمكن له أن يفتح النافذة على بيت الصمت. فجأة قال للهاشم: هاهنا، أخضراً وطويلاً، يزهر في قلبي يا هاشم، لقد رأيته، أخضراً وطويلاً. هاهنا، و دون أن ينظر إليه، هز الرجل برأسه وتابع خطوه المستقيم، هبط من التل عائداً إلى الباحة، أمام الحجارة الحمراء توقف، أووه يا أخي، وقف ساكناً ثم مد يده إلى زاوية الحجر من ناحية اليمين، ربما لامس كتفه الآن: "تراك عرفتني أم طال بي عنك الغياب؟ جلس وأسند رأسه إلى رأس الحجر الأحمر، صامتاً، صامتاً وحسب. الصمت: ليس أن تكف عن الكلام والحركة، الصمت هو أن تموت تماماً، هكذا كما يموت الآن وحده. مرر يده مرة أخرى على ظهر الحجر الناعم، قال: أنت قلت أيضاً يا أبي. كل شيء سينتهي. أنت

fb/mashro3pdf

يا أبي من حرمني أن أظل كما أهوى، وحيداً بلا أعباء ولا أحباب، أنت الذي قاومت رغبتي في السفر، قلت لي: لا ترحل، أبق معي، ها أنا قد بقيت، ها أنا معك يا أبت، فيما أنت لم تسأل أبداً، وأنا من سيبقى معي؟ يتدفق السيل ويغمر كل السدود، مادت السبل والكلمات، كل ما تبقى يا سيدي لا يسند ظهراً يتداعى، ولا يمسح دمعة ولا يوقف رمحاً يقسم القلب إلى هباء، لا شيء ينفع مادام الطاعون لا يموت. لايزال الهاشم يحدق في الصمت والدهشة، فيما هو يواصل العذاب: هل جاء أوان الحساب إذن؟ ماذا فعلت لتهب هذه الحرب المقدسة؟ حدق بعيون صارت كالشمس المذبوحة إلى أعلى. قال: افعل ما شئت، أنت تقدر على كل شيء، وأنا لا حيلة لي، أنت لا تأبه لي، ليكن، لكن ما جدوى الرحمة لمن لا يحتاجها؟ أنا أتوسل للعظمة الكاملة، للجبروت الذي لا يقهر. ما الذي حدث لكل هذا؟ لماذا الصراخ قبل الطعنة؟ قال الهاشم برفق: لنخرج من هنا. أجاب في استقامة القبور التي اعتدلت أمامه: لنخرج، لكننا سنعود، بل سأخرج وحدي، أنت إلى دارك يا هاشم، وأنا إلى العراء، ليكن.

fb/mashro3pdf

صباح الثامن والعشرون من آب / أغسطس.

على بشائر صباح مريض، وقف منفرداً تحت نافذة الغرفة البحرية، بدا الأفق كله، كذلك الاتجاهات وكأنها نقطة واحدة، لا تتحرك ولا

تزول، ولا تغادر الرأس المحموم.

الحديقة واسعة وباهتة، درجات من رخام مائل للحمرة، بهو مصقول بالمرايا ورائحة المطهرات، على طريق الحديقة من ركنها الغربي مسجد صغير. لماذا دائماً تقبع المساجد بجوار المشافي؟ يحاط المسجد بعتبتين من طوب أحمر، ليظل منتصف الدائرة مأهولاً بالمبنى القديم، محصوراً من الشمال بشارع البحر ومن الجنوب بشارع الصحراء الطويل. تأمل قائلاً: لماذا تبدو الشمس عريانة ومرتجفة؟ بيد أنه لم يكن الصمت اللاذع، ولا ظلال السرو الداكنة، سحب رمادية تتكاثف فوق المبنى، زم شفتيه متبرماً: أُتمطر في آب؟ كانوا كثيرون في باحة المشفى، عدد بلا فائدة، هاهو يعرف ما كان يعرفه على الدوام، لا فائدة من أحد، طالما أن أحداً لا يملك أن يفعل شيء. سار قليلاً بمحاذاة السور الغربي، حين سمع وقع أقدام تدب في الخلف: لابد أنهم الأطباء يهبطون من مبنى قريب، ستراتهم البيضاء، نظارتهم السميكة، الجدية المرسومة على وجوههم بعناية وتدريب متقن. الأطباء! من قال أنهم يستطيعون مواجهة أحكام الحجر المقدس؟ وهم سخيف، ليس أكثر من المحاولة في جعل الضربات هادئة، والصراخ غير مسموع. أنت لم تطلب أكثر من رغبة روحك. حين فكر أن يستدير، توقف، كان قد شارف العتبة الأخيرة من ذلك السور، هائماً لا يعرف ماذا يدور: لماذا كل هذه السحب الكثيفة؟ تهطل أمطار من عظم جاف، آخر ما تبقى من طاقة الحجر على ذرف الدموع، كان قد عاد بوجهه

fb/mashro3pdf

إلى الوراء كاملاً. لا. لم يكونوا كما طاف بذهنه سابقاً. ليسوا بأطباء. لا.هو الصوت الذي يحصره في مكانه كالأسير: نريدك معنا، نصف ساعة فقط. تساءل مندهشاً: أنا؟ لماذا؟ يأتيه الجواب رحيماً قاطعاً: نحن لا نعرف لماذا، هي نصف ساعة من زمن. صار ينقل بصره بين الرجلين الغريبين، كأنهما بلا أقدام، حين ركز عينيه عليهما. قال: لا، هم بالفعل بلا أقدام، لا أرجل لهما تلامس الأرض، وذلك الدبيب الذي استمعه من قبل، لمن كان أيضاً؟ هادئون، عيونهم تشغل أكبر مساحة من الوجه الأملس، عيون مستديرة واسعة، ساكنة وخاشعة، كأنني لم أرْ شيئاً أو استمعت لشيء، سأعود إلى هناك، حين رفع قدمه عن الأرض ليهبط تلك الدرجة، كانا قد صارا في مواجهته تماماً، حملاه بين أصابعهم الطويلة، كأنها ُسرر من شموع بيضاء، لم يزل يحدق في الأرض التي صارت تنأى قليلاً. قليلاً. تيقن الآن: نعم، بلا أرجل هم، قدر أنهم يسافرون في اتجاه الشمال. لماذا؟ تلك النسائم اللدنة لا تأتي إلا من هناك. الزمن؟ لا زمن الآن يعرف، هو يحدق وحسب. الآن هم فوق البحر يسبحان في هواء معجون بالأسرار، تبدو الأرض على زاوية العين حصاة آخذة في التلاشي. أمتعب أنا إلى هذا الحد؟ أم هي نوبة أخرى من الهذيان؟ ليس سوى الماء يحيط من كل الجهات، لكن الخجل لمّا يزل يداهمه، ماذا لو حدث الآن شيء، وأنا هنا لا أعرف لماذا؟ يهبطان قليلاً باتجاه وجه الماء، فيما بدأ الماء في الانشطار بطيئاً ليصعد منه لسان حجرى طويل وأخضر، حين مد

fb/mashro3pdf

واحد منهما أصابعه الشمعية إلى طرف اللسان الحجري المتصاعد. تجمد اللسان. صار كتلة راسخة كأنها صنعت من ملايين السنين. عاوده الداء اللعين: لماذا أنا هنا؟ بنفس الصوت الرخيم أجابا معاً: لا نعرف شيئاً، نحن نفعل ما نحن مأمورون به، هذا هو الأمر كله. علق واحد منهما: أنتم لا يعذ بكم على هذا الكوكب التعس إلا كثرة السؤال، متى تتعلمون؟ قال: أريد أن أعود، لقد تركت ورائي. أشار إليه أحدهم أن يصمت. قال الآخر: دقائق وسنعود جميعاً، لكنك ستعود وكأنك إنسان آخر، لن يتغير فيك من الظاهر شيء، بينما في الحقيقة كل شيء سيتغير، أبصر ذاته ممداً على طاولة من العشب المجذوذ، شعر أن عظام صدره تتفكك كألواح من الخشب الهش، شعر بأن أناملهم تجوس بين ضلوعه، لا يتألم، ولا يستطيع الكلام، ينزعون من قمة اللسان الحجري الصلب صخرة صغيرة ناتئة، يفركونها بين أصابعهم فتغدو مسحوقاً داكناً بلون العشب، يبصرهم يحثون ذلك الرماد في صدره المفتوح كالمدى، يشعر بالثقل الجديد، لم يتغير فيه شيء، إنه يرى، يسمع، يدرك، فقط لا يفهم ما يدور، وماذا في ذلك، إن أحداً لم يفهم أبداً في الوقت المناسب. عاود السؤال: أريد أن أعود. أجاب أحدهما: لقد انتهينا يا أخي، هذا ما يخصك في هذا الصباح. يختلط عليه النبض كما لو أن قلبان يخفقان في صدره، اتسعت حدقتي واحد من الرجلين، قال لصاحبه: كيف عرف؟ أجابه الآخر: هو هكذا، دائماً كائن مختلط، يعرف ولا يعرف، هنا، وهناك، معنا ومعهم، لكن ما أنجزناه اليوم

fb/mashro3pdf

قد يساعده في غد الأيام، لقد صار يعرف أنه منذ اللحظة صار يحظى بقلبين، لكن الذي سيعرفه لاحقاً سيكون دون جدوى. حتى في مدار القلبين مازال يصرخ: أريد أن أعود. لكنهما يبدآن في الصعود مرة أخرى، وهو لمّا يزل بين أصابعهم الطويلة، حين يرتفعان قليلاً يتحرك اللسان مرة أخرى، يتفكك الحجر الطويل إلى زبد أبيض هش، يغوص، يغوص حتى لا يبقى منه سوى فقاعة سرعان ما تذوب، مازال في السماوات القريبة يجول، فيما يتساقط الماء من ريش جناحين هائلين من الزرقة والسواد، وحين يستنشق رائحة اليود والمطهرات مرة أخرى. قال: كأنني أعود. يقبضان أصابعهم البيضاء الطويلة فيتوقف الهواء، يسكن السحاب عن الحركة، سحاب أبيض ناصع لأنه بلا شك بعيد كفاية عن أنفاس البشر. أية يا أنا: هكذا تنهد بحسرة ووجع. ما هذا؟ ما هذا؟ كأن جداراً قام بغتة أمام عينيه، حروف مرصعة وبارزة، حمراء، حمراء، فيما ظلت السحب تلف المكان من خلف الجدار الناشئ في التو. قال واحد من الرجلين: ليقرأ هو بنفسه، هذا حقه. يقرأ حروف متراصة ولامعة،كأنها عناوين ُسطرت على مدى الأفق كله (لقد انتهى نصيبك من الحب) تبقى ولا تبقى، تكون ولا تكون، فيما باقي الأيام جسر للوصول. لقد انتهينا يا أخي: قال أحدهم. نصف ساعة أم دهر من العمر؟ حين لامست قدماه الأرض حدق حواليه فلم يبصر شيئاً، هاهي الحجارة الحمراء، الممرات الطويلة، والمبنى الضخم، دلف إلى الغرفة كرصاصة عاشقة، كان الطبيب

fb/mashro3pdf

هناك، وجهاز القلب المثبت على الحائط يرسم خطوطا بلا معنى، حين رفعت عيناها إليه. قالت: أين؟ كن معي. قال: إنني معك. واصلت: لقد رأيت أشياء غريبة! يعرف ما تقصد، ويصدق ما رأت: لكن الوجود كله غريب. يراوح بين الغرفة والبهو الممتد أمامها، يرسخ بين العجز والانتظار، لن يسبق، ولن يتأخر، يفكر: ماذا سأقول للأطفال غداً؟ ماذا سأقول لنفسي؟ غداً؟ أي غد سيكون؟ أما باقي الأشياء فلقد بدأ القلب الجديد في التعامل معها: لا شيء: هذا كل شيء.

هذا هو صراخ العشب الذي بدأ التنفس في أحشائه.

<u>الرابعة مساء الثامن والعشرون من آب / أغسطس.</u>

في شهر كهذا، يشحب وجه الأرض، يسكن الشجر عن الحركة، يذبل المساء كأنه على وشك السقوط. ماذا؟ أتمطر في آب؟ عليه ألا يفكر فيما لا جدوى منه أبداً، عليه أيضاً أن يكف عن الأسئلة لأن جوابها مهما كان لن يكون شافياً، وعليه للمرة الأخيرة أن لا ينظر إلى أعلى، أو إلى أسفل، لا أحد يمد يد المعاونة، كأنه ثأر قديم! ماذا ينتظر، يثقل الهواء فجأة، يصيخ السمع إلى وجيب القلب. أي قلب منهما يجأر الآن؟ يتقدم الوجهان الأملسان. متى عادا إذن وأين استبدلا ملابسهما؟ يلتصقان بالحائط المقابل من الغرفة، في يد كل واحد منهما حقيبة سوداء، كأنهما قادمان من

fb/mashro3pdf

سفر، أم هم على وشك البدء في العمل؟ أخفى وجهه بيديه، خرج الطبيب من الغرفة ساكناً، لا يلتفت إلى أحد، لم ينظر إليه: ماذا بحوزة هذا المسكين! وضع رأسه بين كفيه، أكان يخشى على عظامه أن تذوب؟ من بين أصابعه ينظر إليها تبادله اللعب، يودان أن يضحكا ولا يقدران، يخرج. تدخل. يخرج، يقترب طبيب آخر منه، يقف إلى جواره ويربت على ظهره برفق، يهب ساخطاً كمن لدغه عقرب: لا تلمسني: قال.

طالما أن الله هناك فالأمل لا يموت: يقول الطبيب برفق. يرد: الأمل؟ ذلك السرطان الأجوف، ما لي والأمل، يفتح فمه يريد الهواء، أقسم: لا يمكن أن يكون هذا الهواء هو الذي يتنفسه الأحياء، ثقيل ومريض، يوجد خائن يتجول في الميدان، حتى إذا تحركت الأشجار فجأة، فهو هناك إذن، يهرسها بين أنيابه الحادة القاطعة فيسَّاقط النوار داميا على الأرض المبتلة بالرعب، تصفق النوافذ بشدة، ترتج الأبواب بعنف خاطف، تنكمش الأشياء إلى حد الزوال، الرجلان يهبطان من الحائط، يفتحان حقائبهما السوداء، سريعين ومهرة، صمت سرمدي، وتتوقف الحياة.

fb/mashro3pdf

في الخامسة والنصف من مساء الثامن والعشرون من آب / أغسطس.

لا يعرف من أين جاء، من البحر أو من الصحراء، أو من أين بالضبط؟ أسود. أسود. أكثر حلكة من الليل الحزين، خمدت الأنفاس، ران الصمت الأكثر عمقاً، تلاشت اللغة، ماذا يفعل بالضبط؟ ماذا فعل الأطباء بالضبط؟ العلم، الصلوات، أي شيء، أي أحد، طليقاً وحده يفعل ما يشاء.

دلف إلى هناك، حدق في السرير النظيف، نظر إلى روحه فوجدها قد غادرت الحياة، كاد أن يبتسم. هاهي معجزة أخرى تقوم، روحه تموت وجسده يتحرك، وإذن: من سيدفن في التراب غداً؟ ومن سيبقى ظلاً لحياة غائبة؟ آه. هذا هو الموت إذن. غادر الرفاق على عجل، دائماً هم يغادرون، غير أن هذا ليس بالموت، لن يخبر أحداً بما عرف وما هو الفرق، من يريد أن يعرف فليعرف على طريقته، أخيراً يا سيدتي سنخرج، لم العجلة؟ في البدء كان الخروج، دائماً سنخرج، طائعين وكارهين سنخرج، من الوهم والحقيقة سنخرج، من الأمل والألم سنخرج، تقوض كل البنيان: ألم يكن جميلاً؟بلى، حتى للخراب فضائله.

يخرج، لم يرْ أحداً وما كان ليقدر أن يرى، هناك كانت المدينة تجتمع، الشارع يغص بالناس، والصراخ، والصلاة! حين شاهد الجميع، كان قلبه الثاني يعمل بحياد، تساءل: لماذا كل هذا

fb/mashro3pdf

الحشد؟ ماذا يفعلون؟ وماذا عليّ أن أفعل لهم؟ هم حائل بيني وبين الوقت الجديد، جلس نائياً، حدق في الأطفال، بإمكانه أن يعشق ظلال الكارثة، احتمل طفلاً بين ذراعيه، اشتم الموت شهياً وطازجاً، لعق وجه الطفل بدمة، ولعق دموع الصغير، حلوة ومالحة، من حليب قلبي هذه الدموع، دائرة يا صغير، ارتطم الماء ببعضه، بحراً بلا ساحل، فيما تشبث هو بالحجر الذي نبت فجأة بين ضلوعه، واعتصم من الطوفان، ليل شديد الصفاء.

ماذا، أُتمطر في آب؟ آه يا رب، لقد أمطرت في آب يا سيدي، بيد أنه مطر للخراب الوفير!

منتصف الليل في الثامن والعشرون من آب / أغسطس.

هاهي الطفولة تنام في مرقدها الأول، في فناء الدار شجرتا نخل وتين، يتكدس في الممر الطويل الضيق خلق كثير، في أول الممر من ناحية اليسار غرفة واسعة، ينتصب بها سرير نحاس قديم، له درجات من السلك المقوى، فيما تحوط أركانه قوائم نحاسية، تتدلى منها ستائر بيضاء تقارب أرض الغرفة ولا تطالها، وقف راسخاً أمام باب الغرفة، غير منشغل بشيء، كان قد هبط إلى أودية سحيقة، كأنه تجمد في اللحظة الراهنة، فيما يندس طفل أشقر بين قدميه ويبكي، سيدة كبيرة تجلس على أول مقعد في الممر، يصّاعد من جوفها دخان أسود مكتوم، يتشكل أحيانا على

fb/mashro3pdf

هيئة حروف مدغومة: "يا أمي "، ليس للوقت بدايات أو نهايات أو حتى معنى، يتذكر، قال الأجداد عن اللحظة إنها ظلام طويل، ُترى من أين تشرق كل هذه الشموس؟ تساءل في بحر الصمت: حقا! هل مضى عشرون عامًا على اللحظة التي تقف على عقربها مثلما تفعل الأن؟ بين حواف الظمأ وبريق الري عمر من السرابات يتكدس، يواصل الغوص: كان خجولاً في ليلة البدء، وكانت حائرة بين الرضا والخوف. قالت: كن أخي هذه الليلة. قال: أكون كل ما تشتهين. بمقدوره أن يعود كما كان، لم العجلة؟ فيما ارتسم على المحيا سمة الرضا التام، وانتفى الخوف الذي كان يجول في العينين الضيقتين اللامعتين، لم يكن أحداً في تلك اللحظة، أبداً، مثلما لن يكون في لاحق اللحظات أحد قط: أتعرف؟ كأنه زفاف للمرة الثانية، ما الذي تغير غير الوقت، كم قال من قبل: نحن منذورون للزحام، أينما كنا أو نكون. يتحرك الفراغ بولادات غامضة ليمتلئ الحيز علينا من حيث لا ندري متى أو كيف؟ تلك الليلة كان في المنتصف، دائماً في قلب الرحى، حيث يكون القتل أشهى، تائهاً عن الحشود بألم يتدفق من جوانبه، كان خاتم العرس خاصتها واسعاً قليلاً، لذا سرعان ما استقر في إصبعها دون عناء، فيما هي عاودها الارتباك حين أدخلت الخاتم الذهبي إلى إصبعه الذي قاوم المجد قليلاً. أحس بيدها تقبض على ذراعه بوجل، سريعاً ابتسم لها، وأكمل البرهة الناقصة: لا تخافي، حدق في العينين اللامعتين، كان نقياً وجسوراً، رأى حجره المقدس يلمع

fb/mashro3pdf

في أعماق بلور شفاف، لكن هذه اللحظة لم تكن هناك قط، بعد ساعات من الزحام كانا على مائدة اللحظة بمفردهما، عبقت الغرفة بشذى ورد ثقيل، همس: من أين يفوح المسك يا بنت؟ كانت خجلى وراضية، وصوت فيروز يحلم بالرجوع إلى الطفولة، قبل أن يهم بفك ربطة العنق الحمراء، دق الباب بعصا الشيخ الذي رافقها إلى الدار، هب مسرعاً وفتح الباب. قال الشيخ: أردت أن أبارك لكما وأدعو لكم بالبركة، انحنت على يده الكبيرة القابضة على العصا وقبلتها بحنان، تفكر في الزمن، الزمن.هي اللحظة لم تنفصل، هاهما الآن في تمام أوجهما، وحيدان في غرفة أخرى بسرير نحاسي قديم، وقد انفض الزحام من حولهما، دائماً لم يبق لهما إلا أنفسهما، دلف وحيداً إلى العروس المثقلة بالنعاس،

دفع الباب وأغلقه خلفه: أليس هذا ما يفعله الناس عادةً؟ وقف بعد أول خطوة، ورنا بذاكرته في محيط الزمن الذي سكن تماماً، آه، قال: هي اللحظة ذاتها، حتى وإن استغرق دورانها حول نفسها عشرون عاماً يا رب. لا، لم يكن وجلاً أو غارقاً في الحزن، هذا ليس الأوان، فقط يتهدل ويشيخ، يلاحظ ذلك ولا يقاومه، شعر أبيض يتصلب في مفرقيه فجأة، خطوط متعرجة كدرب النمل تنحفر في وجهه اليابس كقطعة الحجر، ينسحب الضوء من عينيه إلى أفق بعيد، تثقل أعضاؤه، ويشعر بدبيب القلب بطيئاً وثقيل، فيما يرى رأسه من الداخل كمعجون ثلجي أخذ في التجمد، خطوة أخرى أيضاً: ما قيمة الليل والنهار لمن شارف على الخروج من دائرة

fb/mashro3pdf

الزمن؟ حين شارف الوصول، عاود الوقوف أمام الستائر المدلاة على جوانب السرير النحاسي: آه. هي. هي. لم يتغير شيء يا إلهي، قال: فقط عروس تتجلى في لحظة، وفتى لا يقدر على مقاومة الجمال، فيما حتى الأصوات الهادرة بالخارج قد غادرت إلى الأبد، تاركة كل المجال لتوحد اللحظة بينهما، أو توحدهما هما في اللحظة.

في قميص وردي خفيف، مزدان بوردات زرقاء وحمراء على مقدمة الصدر، كانت شبه مضطجعة، انفرجت الشفتان قليلاً فبدت كبرعم وردة ناضجة، صفحة العنق تضج بضياء نفاذ، فيما العينان قد أسبلت على حقل من نداوة و رضى، ليس أكثر من تعال: ظن أنها قالت، اندفع غارقاً في النداء، مد يده اليمنى إلى تحت الرأس المضمخ بالنداءات الغامضة، رفعه إلى صدره فمالت معه إلى اللحظة الواقفة كسكين، حدق في الوجه الباسم فرآه عفياً ودافئاً، مولعاً بالأسى والدلال، أسندها إلى صدره الحجري فاستندت إليه خفيفة ولينة، قد فارقت الخوف الذي لازمها ربما منذ ولادتها، ربما أومأت إليه، لا، ليس ربما، هذا ما حدث بالضبط، فألصق فمه بوجهها مبتدئاً من الجبهة الناتئة، مروراً بعنب الخدين، الأنف الصغير الرقيق، استدارة الذقن، أصغى إلى ذاته بكامل وجودها. قال: كيف يقولون أن كل شيء قد انتهى، فيما هاهو الأمر يبدأ في التو؟ تدفقت الشموس إلى عروق سوداء، وخشنة، قبض برفق على الأكتاف البارزة وغاب عن الأرض، كانت تستمع إليه بشغف عاشق، قال معاتباً: أهكذا؟ عاودها الخجل فلاذت بالصمت. قال: ما فائدة

fb/mashro3pdf

الحب إذن؟ ازدادت الدهشة على فمها. قال: وحدي أشهد قيامتنا، كل شيء يتقوض: الزمن، والحركة، الأرض وما فيهما. قال دون أن يفتح فمه: ماذا عليّ الآن أن أفعل؟ هه، كان الصمت فوق طاقته على الاحتمال، أمسك بوجهها بين يديه. قال: ها أنت ترين ما يحدث، إنني أولد من جديد، بإمكانك أن تفعلي كل شيء الآن، أنا وحدي لن أفعل شيء، أي شيء، لماذا أفعل يا رب؟ أنا فقط سأنتظر، ليس في الانتظار أي نوع من الجريمة، فيما كانت يدها البيضاء الحنونة تتدلى على ظهره وكأنها تربت عليه، الخاتم الذي كان متسعاً قليلاً في إصبع اليد اليسرى خذيه إذن إلى هناك، أنت قريبة جداً من اعتقادك الحي، أنا؟ أنا لا يهمني القرب أو البعد، فقط سأنتظر، سأنمو في ذات الاتجاه، وأنتظر أن تكمل الثمرة نضجها التام، ربما تسَّاقط يوما هاهنا، جوارك، اذهبي، اذهبي هذه المرة حتى دون استئذان، لكنني من الآن فصاعداً سأنتظر، وسأكتب عن السعادة، نعم السعادة.

حتى لو يرحل جدار من روحك، حتى إذ يخف وقع الحياة على قلبك وتصير غباراً، ما الذي يعنيك من كل هذا؟ لا ذنب لأحد فيما جرى، أعرف، أعرف، لكن ما ذنبي أنا أيضاً؟ العزاء! أي عزاء يكفي؟ هو فقط يقدر. الله. هذا هو المبرر الوحيد لقبول لتلك الطعنة، أراد أن يحتفظ بالجمال دون شائبة من أذى، لو تستمر الحياة سيلحق بالقمر الحذاء، طبيعة الحياة الأذى، هذا تكريم للجمال إذن، و عقوبة مواتية لي، أنا أقبل العقاب يا سيدي، أنا أريد أن

fb/mashro3pdf

أصدق أن خلان الدنيا هم خلان الوقت الأخير هناك، أريد أن أحيا ما بقى من وقت أسيرا لهذا الحلم يا سيدي، قالوا لي: حتى الموتى يحلمون، ماذا تظن أنت؟

صباح الأربعاء آب / أغسطس.

يوم بلا حياة، لكنه الأربعاء! نعم الأربعاء، هو يوم من تلك الأيام في كتاب العهد الجديد، يذهب ليستحم، يزيح ملابس كثيرة بلا هدف، يعثر على ربطة العنق الحمراء، يتعطر من زجاجة خضراء صغيرة، يُلمع الحذاء الأسود بعناية، يحلق ذقنه بهدوء، وربما بحرص خشية أن تمرر شفتيها على صفحة الخد، وحينها لن ينجو من تعليق لاذع، حين أنهى ارتداؤه لملابسه، حدق في مرآة الغرفة، أومأ برأسه: جيد هذا.

إن كل ما لفت نظره في المرآة أنها كانت مطفأة فبدا لنفسه كأنه قادم من حقل للغبار. لا بأس: قال. حين هم بالخروج أدار عينيه في أرجاء الدار، ظن أن أحداً ينادي، لكن لا أحد هنا: أجاب على هواجسه بحزم. لا صوت هناك ولا صدى، أنت وحدك هاهنا، ثم تعلم يا أخي أن لا تلتفت إلى الوراء، ولا إلى الأمام أيضاً، من الآن فصاعداً لن ينتظرك أحد. آه. هذه هي الحقيقة، سكنت جوارحه لهذا التعليل، فبدأ يقين العدم في الازدهار.

ماذا سيقول الشيخ "الشروان " للنسوة؟ إنه يسمع رنين صوته ولا

fb/mashro3pdf

يصغي إليه: الصبر. الصبر. إنه الحق / الموت / القبر. ماذا يمكن للشيوخ أن يقولوا أكثر من هذا؟

العاشرة / صباح الأربعاء من العهد الجديد.

في الطريق الذي يشبه غليون عجوز ينحدر جمع غفير من الناس، متلاصقين صفوفاً وراء صفوف، يمتلئ الشارع بحفل طويل، حتى إذ يمرون على مقهى أو حانوت يهب الجلوس واقفين رافعين أصابعهم إلى أعلى، فكر: إلى من يشيرون؟ لكنه لم يسمح لنفسه بالإجابة، وسط الحشد يمضي ساكناً، يقبض في يده على كتف صغيرة يتيمة، فيما يد الصغير الأخرى قد قبضت على باقة من جلنار أحمر: إن الجلنار يا ولدي يليق بأمك. يصعد الجميع الدرب في طريقهم لمقبرة المدينة، سار في هذا الطريق آلاف المرات، لكنها المرة الأولى والتي صار الطريق فيها هو طريقه الوحيد، لا يكف الناس عن ذكر الله، ثم ينخرطون في الهمس الحميم، قبل ذلك ربما كان يشاركهم الحديث عن الغلاء وخصومات الميراث، ارتفاع أسعار مواد البناء، أثمان الأراضي على البحر، ربما يواصلان حديثهم الآن، هل يتغير من الأمر شيء إذا تحدثوا في موضوعات أخرى؟ في أعلى نقطة من رأس المقبرة، أشار إليهم: هناك، ومازال يقبض على الكف الصغير، فيما هم يسارعون بحماس لا يعرف من أين يأتيهم للخلاص من حياته بكاملها.

fb/mashro3pdf

من هذه الربوة العالية، جلس على ركبتيه وأحاط الصغير بكلتا يديه، حدق مشدوها أسفل الربوة والزحام، مرتاعاً. آه. تعال يا أبي وانظر، كان الشيخ يخرج من عباءته البيضاء ممسكاً بعصاه الداكنة، هرع إليه محتضناً صدره العريض، أشتم عبير الصحراء القديم، تلك الرائحة التي تفوح عندما تعرق الجبال أو تتنهد الأرض، غاص في الصدر الرحيم كسنبلة مالت في حقل كبير، كان الشيخ حزناناً وصامتاً، فيما صعدت على أثر خطو الشيخ، ملاءة سوداء يانعة يتضوع من حفيفها ريح نبات السعد وحنان رث، تمسك في يدها اليمنى بإبريق ماء،

جلست إلى حيث جلسوا جميعاً، على استحياء استدارت الأم جانباً وأخذته في صدرها، ألقمته الينابيع الحارة من حنان مسحوق، أفاق برهة وقال: أرأيتم؟ ثم عاود الارتماء في تلك البحار، التفت إليه الناس فلم يجدوا منه جواباً، عرفوا أنه ليس هنا، نادوا عليه بتلك الأصوات الخاوية، ولم يرد جواباً، كان مشغولاً، مشغولاً إلى حد العمى بالأسرة التي اكتمل عقدها على مائدة القبر!

أول سبتمبر/ أيلول من العهد الجديد.

ماذا تبقى من الساعات؟ قيلولة دائمة، حشد فارغ، هواء يجلد الوقت، كان للولد الصغير ما يشغله. قال: أنت سترط لي خيط الحذاء في الصباح؟ أومأ برأسه: نعم. عاود الولد السؤال: ومتى تعود

fb/mashro3pdf

إذن؟ لم تكن الإجابة بعيدة، لكن ما أهمية أن تخبر طفلاً أن ما يذهب لا يعود! إن كل الأجوبة الأخرى هي محض كذبات فجة. كم كانت الساعة الآن؟ حين تلفت حواليه، كان الناس قد غادروا عائدين إلى شوارع الحياة القديمة، قال: معقول جداً هذا المصير، مهما كان الاحتياط ومهما كان السخف. هذا هو. يعودون وعليه أيضاً أن يعود إلى جهة ما، قبل ذلك التفت إلى الربوة العالية، فارغة من الناس التي كانت تحيط بها، فإذا بمتر من الأرض الخضراء يشب هناك، قبض على كف الولد الصغير: لنعود. غادر الحياة فجأة، عائداً إلى المقبرة القديمة، في الطريق برز السؤال على قارعة الشوارع. آه. ما المانع لو نبدأ الحياة الآن؟من آخر سطر في الكتاب؟ ما المانع حقا؟

fb/mashro3pdf

البحر ثانيةً

fb/mashro3pdf

-١-

تكومت الذكريات حتى غدت مفسدة للحياة. أليس هذا ما يبدو؟ نعم، لم تكن ذكريات وحسب، إنما لا تدري بفعل ماذا من الأشياء صارت تنمو وتتشكل حتى أنها لتأخذ في النهاية ذات القدرة التي يمتلكها الفعل، وتظل تنمو وتزدهر إلى أن تغدو كائناً مستقلاً حتى ربما رغماً عن إرادتك.

في هذا الوقت يكون بالإمكان لك أن تتلاشى أو تذوب، تصير واحداً آخر، في المقدور أيضاً على هذا النحو أن تشاهد ذاتك وهي تحارب باقي ذواتها. يا للخسران!

ربما هذا عارض ويزول: قال لنفسه، ربما فسر الناس ما يجري بأنها وطأة الأحداث وسرعة التحول من حال إلى حال. لا. هذه خدعات قديمة، لنراقب هذا الشيء، نراقب ما يجري في نهاية كل مائة خطوة مثلاً، في ختام كل يوم، عقب أي ليلة من الليالي لنعاود النظر إلى مركز أقدامنا، إلى دقات قلوبنا، حتى إلى ملامحنا التي صارت تبتعد وتقترب أيضاً، كأنني أسير على قدم واحدة، فقدت اتزاني في آخر المطاف، إنه لنجاح صغير. قال: سأفحص أثر خطواتي على الأرض، الأثر لا يكذب، فرد يديه ولمس قدميه الاثنتين.آه. اثنتين، ثم تحرك ببطء وتركيز شديد. خطوة. خطوتان. توقف واستدار إلى الخلف، حدق في الأرض حيث سار من برهة. قلت لك. فكر في نفسه. قدمان اثنتان وليست واحدة، وتذكر فجأة: إن أحداً من قبل لم يخبرني بأنني أعرج! وفي ذات صباح شتائي

fb/mashro3pdf

والأرض مبللة بالغسل الإلهي، عاود النظر إلى نفسه مرة أخرى: عن ماذا تبحث بالضبط؟ لا. لا شيء. كان كل شيء على ما يرام. كيف لامرئ أن يقول هذه السخافة؟ لكنه أراد أن يقولها، تحرك للأمام عشرون خطوة كاملة. واحد. اثنان. آه. عشرون. تمام هذا. عاد على أثره بالضبط، كل قدم على الأخرى، بثقل وعزم. واحد. اثنان. تمام. عشرون كاملة. أغمض عينيه لحظة ثم عاود النظر إلى الطريق الذي خطه بقدميه ذهاباً وإياباً: هه يا سيدي! فرك عينيه جيداً، لم يكن هناك أثراً لشيء، ما الذي يخوفك الآن بالتحديد؟ هل تعرف أنك لو واصلت الأمر بهذه الطريقة لانتهى بك الحال إلى الجنون. اسمع. أنسى الأمر. أنسى الأمر. هذا كل ما تحتاج إليه. لكن السؤال يدق: لماذا لا تصدق أن كل شيء يتغير؟ الزمن، الشارع العام، الطريق، لماذا كل هذا القلق؟ على أي حال سنتدبر طريقة ما للمرور من هذا الوحل. هذا يكفي.

fb/mashro3pdf

-٢-

المدينة تبدو كمريض خرج تواً من عملية جراحية كبرى، لم يكن هناك أثراً أو علامة على حياة، ما الذي حدث للناس والحياة؟ كأنه يكتشف في التو أنه تعرض لحادث سطو شامل. مكيدة مذهلة يرتب لها شيطان بلا قلب. ماذا يدبرون الآن؟ يتحسس جسده المثخن، في أي مكان ستكون الطعنة؟ يقرر: لن أتكلم مثلما كنت أفعل من قبل، تلك اللغة أيضاً ما عاد لها وجود، سأفعل مثل ما يفعلون بالضبط، سأغدو طيباً وحلواً، مثلهم تماماً، هؤلاء الأبرار القديسين، أنا أعرفهم، ولأنني سأغدو مثلهم غداً، ومن الناحية الأخرى دائماً عرفت أنه هناك ناحية أخرى، سأفعل ما يحلو لي، سألقي حصاة وراء أخرى في البئر المظلم، لا لكي أفسد على الناس آبارهم، ولا لكي أمنع الآخرين من ابتلاع الطعم المقدس، لا شأن لي بهذا، ولكنه الزمن الجديد. عليّ اكتشاف لغة ووسيلة لهذه الأيام. قانون ما بعد الحياة!

أربعون يوماً بالتمام والكمال، والسماء لمّا تزل على حالها، رمادية ومغلقة، طيوف من العشب تمد خيوطها باتجاه البحر، كانت الشوارع أيضاً عاصية على النسيان فبدت جاحدة وجارحة، لم يبق في الذاكرة الملعونة غير البحر، وحين شد الخطوات إلى هناك، كان الماء على حاله، عاصفاً وفاقد الرغبة في اللهو، في ربوة البحر قلب يصارع الموت والحياة، في عريضة النهار صارت المياة تنأى شيئا فشيئا حتى لا تكاد تراها، وهي تمعن في السفر، فإذا أقبل

fb/mashro3pdf

الليل توحشت، غادرت أسرها الأبدي، زاحفة تعود من كل الأقطار، ضاحكة وباكية، ساخنة وباردة، تزأر في عنف وحقد، فاغرة فاها حتى لتكاد تبتلع الحياة بمن فيها، يوشك أن يغرق في بحر عرقه المسفوح، ويغوص في اللجة السوداء حتى آخر ذرة في قاع الماء.
ينام أو يموت.

fb/mashro3pdf

-٣-

أنت لا تعرف ماذا تعني جدتي؟ جدتي التي غادرت الحياة قبل ميلادي بأكثر من خمسة وعشرين عاماً، أنا اعرف جدتي في الروايات والتفاصيل، في التاريخ الذي يأبى أن يذهب مع صاحبه، ويبقى يمخر في عباب الزمن، أي زمن من التفاصيل والحكايا، من الأحداث الصغيرة والكبيرة التي صاغها، من الآثار التي خلفها حتى يومنا هذا، لقد شكلت لها صورة ما في ذهني، صورة من كثرة ما ألفتها صارت عندي كالحقيقة التي لا تقبل الشك، سألت الشيخ من قبل: ألم تكن لها حتى صورة قديمة؟ قال لي: كانت هناك واحدة، كانت مدسوسة عند ابنها الكبير، سألت كل الأبناء والبنات والأحفاد، بحثت كثيراً عن ذلك الوجه اللغز، وكانت النتيجة دائماً: لا شيء، ربما لتظل الصورة التي صنعتها بخيالي أكثر شمولاً وقدرة على استيعاب المزيد من التفاصيل والحكايا. جدتي، فأنا مثل كل الناس لي جدة أيضاً، في هذا المكان الذي تربض فيه الآن، على ربوة البحر العالية، أنت في أثر من آثارها، أنت في الأرض التي آلت إلى الشيخ من وراء الجدة العاصية، كان الليل قد جاء كالعادة، فتوحد في ظل النخلة التي تتوسط باحة الدار الصغيرة، هي ليلة من ليالي الصيف والوحدة، جالساً يحدق في سعف النخيل وينصت إلى موسيقى البحر، يداوي الجراحات بالصمت العميق، يمعن في القراءة بصوت عال ليسكت تلك الأصوات التي تتدافع داخله في فوضى واجتياح. آه. ليت الناس حين يموتون، تموت

fb/mashro3pdf

حتى ذكرياتهم، فلا يعرفون المجيء في الأحلام والكوابيس، متخفين في أشكال عجيبة من الحياة، ينغصون عليك البقاء فلا أنت تنساهم ولا هم يتركوك لشأنك. جدتي؟ هذه بلادك يا جدة، ثم يغوص في الليل الذي يتكاثف حتى يطمس عليه رؤاه، هل كان الوقت منتصف الليل؟ أنا لا أعرف ما الوقت، ولم تكن معي ساعة حين فتحت عيني تحت لسعة البرد الزاحفة، كانت سيدة طويلة عارمة، تفترش الأرض في ملاءتها السوداء، طويلة كأنها نخلة مؤبدة، حتى وهي جالسة على الأرض بدت عالية وطويلة، فيما بدا وجهها مستديراً كطبق معجون بالشمس والطين، قوية غير هيابة، حدقت مذهولاً في السواد الساكن وهي حدجتني بنظرة المتأمل العارف. آه يا ولدي. قالت: أنا جدتك! في سرعة البرق دارت المخيلة حتى استخرجت الصورة التي كونتها من قبل. هه؟ ما الفارق يا ولدي؟: تساءلت. ربما كانت هي حقاً: قال. هؤلاء القدامى لا يعرفون التزوير، وانتحال شخصيات لا تخصهم. جدتي وبدا أن الأمر قد لاقى قبولاً لديه. استكان في مجلسه، لا يرفع عينيه عن الوجه الذي قطع الزمن والموت وجاء ليصنع من أمسيات البحر ساحة للمحاكمة. حزين أنت يا ولدي: همست، ثم واصلت: لكن لا شيء في هذا الكون صافياً تماماً. أتعرف؟ كان لا يزال يفكر: من أين جاءت بالضبط؟ أي الطرق سلكت حتى وصلت إليّ؟ لكن صوتها يتدفق: وجعك يأتي من هنا وأشارت ناحية القلب،

fb/mashro3pdf

لو أدركت مبتداك لنثرت في وعاءك اللدن ما يحفظ عنك هذا العناء. جدتي. لا شيء يبقى: قال، وهي تجيب: لكن كل واحد منا يحمل في بذرته مكمن داءه، أنت يا ولدي لم تكن منصفاً. أنا لست صانع البذرة يا جدة، وتقول هي: لا، مازلت تحدق في أثر أبيك، وأنت سواه، ظن طيلة حياته أنه من طينة أخرى، كان وكأنه قد صنع من حجر، أتصدق ذلك يا ولدي؟ لا، بل كان قلبه عامراً بالفجوات، هو فقط لم يكن يحب الاعتراف بهذا، يكابر، يكابر، أتدري؟ الحزن لا يسكن في القلوب الصغيرة. ردد هامساً: بل رأيته يبكي في أحد المرات، فررت لحظتها من أمامه، ظننت أن الحياة قد انتهت. قاطعته جادة: وبإمكانك أنت أيضاً يا ولدي أن تبكي، كانوا يقولون لنا: في البكاء راحة، وما نفع البكاء يا جدة! أنت لا تدري يا ولدي، هذا جيد لك.

إن ما تراه أمامك يا ولدي ليس إلا نصف الحقيقة، دائما هناك شيء خلف الأشياء، اسمع، اسمع، أتعرف كيف يزرع هذا النخل؟ تحت جذع هذه النخلة، روح تتسرب في الجذور، قال: ربما هي روح الأشياء. لا، ليست الأشياء، ردت غاضبة: أقول لك روح، مثل روحك، مثل أرواح باقي البشر، روح شابة عفية، إنها ابنة أخي تحت هذا الجذع الطويل تنام، آه، كانت شابة وصغيرة حين شاهدها زول الهجانة من فوق ظهر جمله وهو يمر على الساحل، سقط من يده الكرباج السوداني الطويل، وكاد أن يلحق به على الأرض، كأن مساً من جنون قد أصابه، أنت تعرف، هذه الأشياء لا

fb/mashro3pdf

مجال لها في حياتنا ولكنها رغماً عنا تدور، كانت صغيرة، ربما ألجأها الخوف إلى الكتمان غير أنه بعد شهور قليلة بدأ العذاب يستدير وكأنه بطن يتلوى بدواء أو داء لا يحتمل، حدث ذلك في الوقت الذي غادر فيه الزول المكان، عائداً إلى بلاده، الرجال دائماً هكذا، يحرثون وينسون، لكن الأرض الخصب لا تنسى، البذور لا تنام طويلاً يا ولدي إلا إذا كانت ميتة، ولقد حاولت والله قدر جهدي في تطهير الماعون دون جدوى! كانت البذرة قد شدت وثاقها بلحم عفي، قاومت السقوط قبل الأوان، قلت للبنت: لماذا يا حزينة؟ لكنها ورحمة أبوك لم تجبني بغير ضحكة هازئة، ثم رددت في وجهي السؤال: حقاً يا عمة. لماذا؟ كان الأوان خلال شهر الصوم، في ذلك العام جاء صيفاً، قدرنا لو أكملت الفتاة دورتها مع الأيام لجاءنا غراب أسود يجلل أفق حياتنا بالنعيق والفضيحة التليدة، أسود، أسود يا رب! أخبرني يا ولدي، هل رأيت أبوك من قبل كيف يزرع النخيل؟ آه، هكذا، حفرة طويلة، طويلة، عميقه في الرمل حتى يبدأ الماء في البزوغ، الأن فقط يمكن حمل الفسيلة الوارفة لترسو على النبع الحلو، ثم تطمر بالتراب الأخضر، على أمل لحياة مديدة. آه. يا جدتي. هكذا. هكذا.

في صباح واحد من تلك الأيام، قلت للبنت: غداً صباحاً تأتين معي، نذهب للساحل معاً، كان أخي جالساً لا يفكر في شيء، بعض الناس يا ولدي يولدون ويموتون، لا يحملون حتى عبء أنفسهم، هذا عدل الله، فلماذا نئن! والبنت للحق لم تبد اعتراضاً

fb/mashro3pdf

أو قبولاً، وكأن الأمر لا يعنيها، حين وصلنا إلى هناك، كان يوجد صف طويل من الحفر التي أعدت للزراعة، جلسنا في آخر الصف الطويل منها، عند حفرة ملاصقة لكثيب الرمل، أعددنا إفطارنا بنار الحطب اليابس، وشربنا شاياً أسود، كانت البنت تقوم على خدمتنا في كل شيء، أشرت إليها أن تذهب إلى الحفرة الأخيرة وتحضر لنا دلواً من الماء، تناولت الدلو الأسود وذهبت مباشرة إلى حيث أشرت إليها، كنا قريبين جداً والكثيب أيضاً كان قريباً، قبل أن تميل برأسها إلى أسفل وتدلي الماعون إلى الماء بقاع الحفرة، التفتت إلينا، هزت عنقها الطويل، وضحكت، حين مالت بنصف جسدها الممتلئ بالخراب إلى أسفل، لم يكن الأمر صعباً، وبعدها لم نشعر بالتعب حتى أكملنا غلق الحفرة بالرمال. قال أخي: هل تبق في كوز الشاي شيء؟ ناولته فنجاناً صغير، تجرعه في رضا كالعادة، وتمدد على الأرض يحدق في سماء فارغة وربما كانت ملأى، لكنه لم ير شيئاً!

في فزع المقهور على امره قام من مجلسه حتى هبط على الأرض مفترشاً قدميه في مواجهة السيدة الصلبة: قاتلة أنت يا جدتي.

أنا! قاتلة يا ولدي؟ كيف؟هذا قديم، لكن الغريب في الأمر ليس ما رويت لك. أهناك شيء بعد ذلك يبقى: قال. لم تلتفت للسؤال وواصلت: الزول السوداني كان هو الغريب في الأمر يا ولدي، بعد عام ونصف هبط البلدة فجأة، ذهب مباشرة إلى دار البنت، سأل أخي: أين التوح؟ أجابه: لقد ماتت. مكث يومان في البلدة و هو

fb/mashro3pdf

يسأل، ثم ذهب إلى قسم البوليس يبلغ عن اختفاء التوح: زوجتي أمام الله يا ناس: قال. قال له الصول سالم: هل معك أوراق لهذا الزواج؟ أجاب: أقول لكم نحن زوجان والله يشهد على ذلك، لا قيمة للأوراق عندنا. كان زولاً صعباً وسيئاً، قال لهم في آخر الأمر: أروني شهادة موتها! أقول لكم: أروني قبرها، تطوع واحد من الأقارب و قال: تعال أريك قبرها. قال: لا، ليس قبل أن تتوضأ وتقسم في المسجد أن ما تقول صحيح، تراجع الرجل، كانوا فيما مضى يا ولدي يخافون الله، يؤمنون أنه قريب وقادر، حق هذا والله، لم ينفع الأمر، وحين طلب الضابط أخي للشهادة كانت الواقعة، كان الضابط أيضاً هو القاضي:سأل أخي: أين التوح؟ زوجة الرجل. قال أخي: هناك. إين هناك؟ قال: في السرداب الشرقي للنخيل، أنا دفنتها هناك، هكذا دون ضغوط من أحد، ثم رافق اللجنة إلى هناك حيث توقف بالضبط. هنا، آه هنا، تحت هذا الجذع من النخل، هل تعرف؟ لو لم يكن المحامي الذي استأجرناه للدفاع عن أخي ماهراً، لقد شكك بقوى الرجل العقلية، ونال عن دفاعه ثلاث جنيهات كاملة، اكتفى الضابط القاضي بحبس أخي ثلاث سنوات يا ولدي، خرج بعدها ليواصل عمله القديم في حفر وزراعة النخيل، ُشرب الشاي الأسود بعد غرس الأشجار ورسوها على النبع العذب، كان وقتها قد أمعن الليل في السواد، لملمت الجدة أطراف عباءتها على كتفها الأيسر، مدت يدها الكبيرة الخشنة وأحاطت برأس الذاهل من حكايتها، رأس طائش بالأفكار ظل يحدق أمامه في

fb/mashro3pdf

غابة النخيل المتراصة، كأن كل نخلة قائمة في هذه الغابة تستند بجذورها إلى قلب حي، قلب يدفق بالحياة والحب! الحياة التي يتم دفنها في سهولة ويسر ثم يعقبها صب الشاي الأسود في فناجين صغيرة كهذه الفناجين تماماً، رفعت الجدة واحدة منها ودفعته إليه: أشرب يا جدتي، أشرب، القهوة جيدة للرأس.

دارت الأيام على الذهن المكدود، في نهاية هذا الشهر يميل لون ثمرة البلح إلى الزرقة القاتمة، إنه يبدأ في التحول، يا الله إنه مثلنا يتحول ثم قليلاً قليلاً يميل إلى الحمرة ثم يشتد أكثر فأكثر ليبدأ السواد في الزحف من أسفل حتى يطال الجسد المبروم بكامله، ها نحن قد وصلنا إلى صحائف الرطب الجنية، هل يحدث هذا الأمر حقاً بفعل الشمس وحدها أم أنها فناجين القهوة والشاي الأسود ؟

آه حقاً، ألا تكبر الحياة إلا بفعل جريمة كبرى، ما الحياة هذه؟ قال، ثم بصق على الرصيف الجاف!

fb/mashro3pdf

-٤-

متى ستجيء؟ كان هذا هو السؤال الجديد، من أين له أن يعرف متى تجيء؟ لا يعرف الأحياء متى يذهبون وكذلك ربما لا يعرف الموتى متى يأتون! لا أحد يعلم شيئاً عن ذلك الأمر.

في بداية المساء كل ليلة، يفترش الكرسي الكبير في الباحة، في مواجهة الرصيف الحجري، يتجهز لعواصف الليل والبحر، ماذا يريد المرء أكثر من هذا؟ تبغ وماء وحروب لا تنتهي! كان قد مر أسبوعان كاملان حتى كاد أن ينسى الأمر، هذه المرة كانت من ناحية الباب الخشبي الصغير، لاحظ انفراج الباب دونما سبب واضح، يقيناً أنها جالت في المكان من قبل أن تأتي، لزم الصمت المطبق حتى تثاقل الطيف وصار لحماً وعظماً، تناولت سجادة صغيرة من على حافة السور الأصفر، افترشتها فوق الأرض بمواجهة الكرسي الكبير وجلست، هاله الصمت المتواصل، بدت ناكسة ومهمومة، تساءل في نفسه: هل هناك أيضاً ما يستوجب الحزن؟ تنهدت وهي تنظر إلى الحائط الخلفي المكسو بأحجار بيضاء ناصعة، خرجت الكلمات من فمها بطيئة وعميقة: أرأيت الغريق الذي طفا جسده على طرف اللسان الشمالي؟ قال بصدق: لا، لم أهبط للساحل، غير أن هذه الالتواءة في جسد الماء تجلب غرقى كثيرون. ردت بدهشة: كما ترى، البحر لا يستطيع أن يهضم الموتى. قال: لا أحد يستطيع. بحدة أجابت: أنتم تستطيعون، الناس أقصد. يمتد الصمت القائم بينهما، اقترب حتى أشتم رائحة الغبار الذي يزين ملاءتها السوداء.

fb/mashro3pdf

بمودة تساءل: تبدين حزينة يا جدة؟ ما الذي يمكن أن يحزنك هناك؟ هناك! قالت: لا شيء يا ولدي، الحزن للأرض ومن عليها فقط، قد لا تراني بعد هذه الليلة، لكن إياك أن لا تصدق رؤيتك لي فيما بعد، لا تخبر عني، لا تقل كان حلماً، ذلك افتراء بعيد، هاك يدي، المس أصابعي، يقبض على الكف الكبيرة الخشنة. آه، يدك يا جدتي، لا ليس حلماً. أنت تعرف، نحن أيضاً مأمورين يا ولدي، غير أنني رأيت قبل قدومي إليك ما أثار دهشتي، على ذلك الطرف الأقصى من الماء، شاهدت نساءً لم يدركهن الموت بعد، عيونهن شديدة الجسارة، رددن اسمك في وجهي مرات كثيرة، عرفت أنهن قادمات في يوم ما، ها أنا أحذرك، إنهن كاذبات، قليل من النساء يا ولدي من يعرفن الصدق. لماذا يا جدة قد لا تعودين؟ إنني وحيد: اسمع يا صغير، هناك في الحياة بعض الدروب، بعض الأبواب، بعض القلوب لا تتسع إلا لوحيد، ثم من قال لك ذلك، وها نحن وراءك نركض! حين نهضت لتغادر كان الأسى قد غطى كل ملامحه، توقفت برهة، عادت إليه ومسدت بكفها الكبيرة رأسه العاري: سأجلس لفترة قصيرة: قالت. إن النهار على وشك القدوم، لا طاقة لنا بنهارات الحياة، يبدو أن في رأسك حكاية، أكمل سطورها كيف كانت، لا تهتم إنها حكايتك، الناس تحيا مرتين في الحكاية، مرة حين كانت الأحداث تجري في الحياة، ثم مرة أخرى حين تسيل من الذاكرة الواقفة على حد الموت.

قالت: كان واحد من أعمامك يا ولدي صانع للحكايات، حتى إذا

fb/mashro3pdf

جلس ليرويها تظن أن ما يقوله حقيقة لا مراء فيها، الشيء الوحيد الذي كان يأخذه مأخذ الجد هو الحكاية، إن الناس تعرف ذلك عنه. قالوا: إنه الأفيون الذي لا يفارقه، غير أن أحداً من الناس، ولو مرة واحدة، واحدة فقط حاول أن يوقفه، كانوا يضحكون كثيراً وكان هو يستمتع أيضاً، لم يختلفا أبداً. قال: ربما كان ذلك وسيلة حياة يا جدة. قالت: لا، حاولت كثيراً أن أدفعه للحياة، هل تدري؟ فكرت مرة أن أجمع كل ما أملك في يدي ويخصني، أحوله إلى نقد ميسور ثم أجعل واحداً من أعمامك تاجراً كبيراً، قلت أن ذلك سيفتح الطريق للباقين، سيفك الجدار الذي دار فيه الجميع، وبدا كأنه قدراً لا فكاك منه، كان لي خلخالين من الفضة، خاتم ذهبي عثرت عليه يوماً في قمامة دار المأمور، وبعض المشغولات النقدية القديمة، كان حلماً كما قلت لك، بعت كل هذه الأشياء بسبعة عشر جنيهاً ودفعتها إلى ولدي الحسن، كان يعرف القراءة والكتابة، أوصلناه إلى باب القطار الذي سيقله للقاهرة ليشتري ما يشاء من بضاعة. قلنا: هي الخطوة الأولى لعائلة من الأثرياء، عرفت فيما بعد أن الثراء يا ولدي قضية لا شأن ولا دخل للمرء فيها، كنا وجميع أخوته على ساحة المحطة القديمة، بدا طويلاً وعريضاً، أحمر الوجه كأنه باشا من الأتراك، تحرك القطار و هو يلوح لنا بعصاه من النافذة، ونحن نمزق سواعدنا بالإشارة إليه، لكن ما حدث أنه قد عاد إلينا بعد شهر طويل من الغياب، وذهبنا مرة أخرى لنكون في استقباله وحمل البضاعة التي يحملها، وحين أهل علينا من باب القطار،

fb/mashro3pdf

أطلقت الفطوم أخته كل ما تطيق حنجرتها من زغاريد وغناء، وهو لوح لنا بيديه وجلبابه الأبيض النظيف ورأسه الذي اكتمل الآن بطربوش أحمر قان، وما أن هبط بقدميه على الأرض حتى غاص في عناق الأشقاء والأحباب، سألته عن البضاعة؟ قال: في الدار سأشرح لكم كل شيء. توجست من الإجابة العائمة. ابتسم واثقاً: يا أمي، لا تخافي، كل شيء على ما يرام. فيما بعد أحضر لنا فسيلة صغيرة في جوال أبيض. قال: أتدرون ما هذه؟ قلنا: لا. قال: إنها شجرة جوز الهند، شجرة عظيمة،

هل تعرفون سعر الحبة الواحدة منها؟ إنها بجنيه كامل أو نصف جنيه على أقل تقدير، وإذا كانت الشجرة في عنفوان نضجها تثمر أكثر من ثلاثين أو أربعين واحدة، تخيلوا أنتم مقدار الربح الذي سنحصل عليه. قال: لقد أشاروا عليّ بهذا، الأصدقاء في مصر. واصل الشرح الأخرق: آه، هذا الجذع الأملس؟ لا، ليست مشكلة، لقد فكرت في هذا أيضاً، أعرف أن لا أحد يستطيع أن يرتقي هذا الجذع الأملس و لذلك اشتريت قرداً صغيراً بجنيهين كاملين، يكون في أوج قوته ونشاطه حين تبلغ الشجرة تمام نضجها، آه والله لم أترك شيئاً خارج الحسبان، غداً سيصعد القرد إلى أعلى الشجرة، يقذف لنا بحبات الجوز ونحن نبيع، كم ستكون الحياة رائعة!

أتدري يا ولدي، واصلت الجدة: لقد ألجمتني الصدمة، عرفت أنها الخيبة الكبرى، فغرقت في الصمت والحزن، ذهب المصاغ سدى،

fb/mashro3pdf

لم يبق لنا غير القرد، فيما قال أخوال الحسن: ربما يصدق هذا الأحمق، فقاموا بزرع الفسيل الصغير بين حدي الأرض حيث تراها الآن واقفة جرداء، تبعث على الضحك.

قال الصافي: ربما هذا ما أراد ولدك يا جدة أن يتركه، ربما كان عبقرياً في غير زمانه. قالت: لا أعرف ما تقول، لكنه لم يكن من الذين خلقوا ليفعلوا شيئاً ذي قيمة.

قال: في واحدة من المرات القديمة يا جدة، أمرني أبي بحمل حزمة كبيرة من الحطب وأن أذهب بها إليه وأن أبلغه السلام وجهاً لوجه، لا أعرف لماذا كرر عليَّ أبي (وجها لوجه) ذهبت بحملي لمنزله، وطرقت الباب،

فتحت لي زوجته رشيدة ـ صغيرة الحجم ـ سألت عن العم. قالت: إنه في غرفة التفكير. كنت صغيراً ولم أفهم، غير أنني أصررت على السلام عليه وجهاً لوجه كما أوصاني أبي، قادتني المرأة إلى غرفة صغيرة تقع بين المطبخ والحمام، كانت تلك الغرفة أضيق من أن تسمح بذلك، ثم باب صغير قصير، دقت هي على الباب، وما من مجيب، دقت ثانية وثالثة، ثم انصرفت و قالت لي: لا فائدة. لم أجد بداً من دفع الباب الصغير بقدمي فإذا بغمامة من الدخان الكثيف تصدمني، والغرفة كأنها كانت تحترق، ليس سوى الدخان الكثيف حتى أنني ما كدت أتبين ملامحه. ناديت قائلاً: يا عم. جحظت عينيه دون أن يلتفت: من أنت؟ قال. أجبته بالرسالة الأخوية. أجاب بحنق: ماذا تريدون مني؟ قلت مسرعاً: لا شيء. قال: اذهب

fb/mashro3pdf

إذن. تساءلت رغما عني: ماذا تفعل يا عم في هذا الدخان الخانق؟ قال:اذهب ودعني أفكر، أفكر فيما يفعله أبوك وأمثاله (أغبياء) كان ذلك وصفه لكل الذين يأخذون الحياة مأخذ الجد. نهضت وهي تقول: مات فقيراً مثلما عاش. أجاب: عند الموت يا جدة الجميع فقراء. قالت ـ فيما دفعت الباب الخشبي الصغير وهي على أهبة الرحيل ـ : حين بات عندنا أول ليلة لم يكن مهموماً، لكنه عرف أن تلك الحكايا لم تعد لها فائدة في العالم الآخر فلزم الصمت. أجاب الصافي: بل كنت واقفاً عند رأسه الأحمر حين شارف على المغادرة، أوصى بولده الوحيد خيراً. قال: أنتم تقدرون على ذلك، أما أنا فلم أستطع أن أكون غير ما كنت.

اسمع يا ولدي، لا تحدق فيّ وأنا أذهب، أحفظ عيونك على الأرض: قالت وهي تطوي ملاءتها السوداء.

في لحظات مثل هذه لا جدوى من الكلمات، فقط ينظر وينتظر، دقيقة تمر ولا يكون في الباحة سوى العبق القديم، أودية فسيحة من التساؤل وأكمل: لماذا أنا هنا وحدي؟

fb/mashro3pdf

-٥-

تلك الليلة، ليل عارم يتمطى فوق البحر الذي بدا أسوداً فوق العادة، صفوف النخيل تهتز كأنما بفعل فاعل. حين تسرب هذا المناخ إلى نفسه أحس بالبرودة المفاجئة، هب ليأتي بدثار من الداخل، كأن كل شيء كان يذهب. يا ربي كأنني ولدت هكذا، بلا أهل ولا أصحاب، كأنني منذ قليل كنت أحادث نفسي، قام وأضاء جميع أنوار الدار، ماذا يهم في هذا الليل؟ هل لاحظ أن الظلام يتقدم إليه بعناد؟ أم أنه الوهم الطاغي ولا غير؟ حفيف لا يمكن إنكاره، همهمات أكيدة تحاصره، طلقات رصاص مكتومة تئن، آهات مختنقة تهب من ناحية المسجد الغربي، جنود ذاهلين يدسون رؤوسهم في أشواك شجيرات الليمون المغروسة في السراديب البحرية، سكان "الريسة" القدامى يتوافدون واحداً بعد الآخر، أبو ماشي ينيخ ناقته البيضاء على باب المنزل، يحمل بطيخاً رمادياً وصفيحة من التين الأسود، رائحة شواء السردين على الصاجات الخفيفة والملح النافذ تلف المكان، عرائش توقد نارها لطهي لقيمات بجمر الحطب الساطع، لتناول الشاي مع ضيف وافد، أو حتى لا لشيء، ربما لطرد الشيطان من الناحية، مهرة أبو قادوس الحمراء تصهل بانتشاء، صناديق البلح الخشبية تتصاعد حتى تلامس السقف، عائشة، عائشة الغريبة التي تأبى أنت تتزوج

«لأن مراد القلب بعيد يا صغير»، هدير حلقات الذكر يتعالى خلف سياج من نبات "الأرطة"شديد الخضار، أمي. أمي ناوليني يدك

fb/mashro3pdf

وأنت تصعدين أمواج الكثيب الرملي ذاهبة إلى أقراص العجوة المعجونة بالسمسم، أيه يا رائحة "السعد "الغالي، في مهرجان الجنون هذا، أين أنت يا خالدة؟ يتصبب عرقاً، يجف ريقه فيصرخ: ماء، ماء يا رب، أين الماء؟ على حين غرة تتقدم نساء شبه عاريات مندفعات إلى صدره المفتوح كمتاهة، يحدق بذهول، هل يمكن الفرار؟ إلى أين؟ ماذا أتى بهن إلى هنا؟ ريري واقفة على سطح الذكريات، يلفح الهواء تنورتها الصغيرة فتصرخ فيما كان هو يطير بين الأسطح البعيدة ليرقد بين شفتين عابثتين، ثلاثون عاماً على اللحظة الحاضرة الآن. ليلاه، شاهدة، لمي، تضيع الأسماء في ذاكرة ملتهبة، يدخل في وادي الهلاك دونما أمل في النجاة، تتواصل صفوف النخيل في الزحف، ليس سوى الأرض قرار، يجلس مبهوتاً: آه. أحياء وأموات، رجال ونساء، حيوانات وملائكة، يختلط الزمان والمكان، يكف الهواء عن المرور في أنفه فيكاد ينفجر، تمسه أيدي النسوة العاريات فيصرخ: لا، لن أموت هكذا، لا، إنهن يعرفنه، كل شيء هاهنا بات يعرفه ويريده، لا فكاك من جنون هذه الليلة، إذن تحول المكان بكل أشخاصه وأزمنته قاعة لمحاكمة الغريب. يصرخون: مذنب أنت؟ قال، أو ظن أنه قال: ربما، لا أعرف، ربما، لكن في كل الأحوال: لا.

كان يريد أن يصفو لذاته حين فر من المدينة إلى ربوة البحر هذا، عبث كل الأحلام، هذه ارض للذبح، العقل؟ هذه الشعرة الواهية لا تدري متى تحترق فيصير الكل لا شيء. من يعرف؟ تريد

fb/mashro3pdf

أن تصفو إذن؟ هاهنا ولدت البذرة، وعلى ما يبدو فهاهنا أيضاً منتهاها.

الآن ينتهي كل شيء. دائماً أنت على موعد مع النهايات. هنا كان الرهان، العري، الربح، الخسارة، معارك القلب الواسعة. هنا. كل شيء هاهنا حتى شذى المسك الضائع يمكن له أن يشارك في الوليمة! المكان؟ ما المكان؟ كل الأمكنة سواء، أنت المكان والزمان، كل شيء ثابت راسخ ما عداك أنت، أنت كارثة تدور، أنت حيوات مادت في التفاصيل حتى لا تدري مكانك فيها بالضبط. تريد أن تصفو إذن؟ تعال، لو كان بمقدوره أن يغادر، يغادر كل شيء إلى أين؟ أين؟ ألا توجد في الأرض بقعة تأوي هذا العذاب؟ لا، تطفو تلة الذئب على آخر نقطة في الدم المشتعل: هناك إذن، في الرمل الأصفر النيء، لو قدر له أن يرى الصباح مرة أخرى لن يمكث غير ساعة، يحمل أشياءه ويهجر البحر والبدايات وكل شيء، يهجر الطوفان الذي يترصده في كل جذع من النخل القائم أمامه، إلى هناك، إلى هناك، ربما تكون الرمال أكثر حناناً عليه من هذه المياه المتوحشة: تلة الذئب. آه. حيث شاهد هناك لأول مرة في حياته ذئباً خلف شجرة خروع يستريح من رحلة غامضة. هيا. اذهب. فلعل شجرة ما هناك تنتظر ذئباً آخر. ماء، ماء يا رب، أمي، أمي، حين فاضت عليه الشمس بأول خيط من شعاع بدا وكأنه تلون بلون ليلته الفاجعة، رأى بكل ما يستطيع به الرؤيا. البحر. البحر الذي عاد إلى مجراه الأبدي، كان ساكناً هادئاً،

fb/mashro3pdf

ربما أنهكه صراع الليلة الفائتة، النخيل الذي عاد منتصباً كما كان بالبارحة فيما ظلت الساحة عامرة بأشلاء المعركة، أما هو فكان يجر خطواته إلى عرض الطريق، صعد الشارع باتجاه الغرب، حين وصل إلى أعلى نقطة يمكن له منها أن يرى المشهد كاملاً، توقف برهة، تنفس ببطء الراحلين، استدار وألقى بكل رغباته هناك في البحر، في الرمل، في الجذوع القائمة، بدا هذا المكان نصلاً لا يستريح إلا في روحه المنهكة. ماذا يقول؟

هذا صباح أخير يا بحر! اذهب. اذهب. آه. تلة الذئب لما تزل هناك. اذهب!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تلة الذئب

-١-

عند بلوغ الخمسين من العمر، أنت تعرف على وجه اليقين، أحد أمرين: إما أنك قد نجحت، أو إنك لن تفلح أبداً. ليمر النهار: قال وهو يتهيأ لبلوغ الوقت المضروب للذهاب إلى نقطة التماس. أليس هذا هو الأربعاء؟ جيد، إنه يوم صيد ملائم، كان الأربعاء دائماً، كنز الذاكرة، وفير العطايا، لا يعرف السبب، ولا يريد حتى أن يعرف. حين تكون وحيداً إلى هذا الحد فلا ضير من الحديث مع نفسك كالمجنون، وهكذا تساءل: كيف ستكون بانتظاره؟ وأجاب أيضاً (حيث لا أحد سواه بإمكانه الإجابة، حتى لو كانت خطأ): لماذا القلق ونحن مازلنا في ظهيرة النهار؟ ستكون كيفما تكون، ولأن السلسة تتدحرج في مخيلته، قفزت حكاوي السابقين، عاد إلى منصة الأحداث طيف بغيض (رشود الزنان) ثانية؟ ُترى،أهي الغيرة أم وخز الفشل الممض فيما أفلح فيه ساقطون وأوباش؟! أليس في هذا الاختلاط شبهة للحب؟ أم هو الذي يعرفه عن ذاته كعادة لا تموت في طبع دنيء: عدم التحقق. ليس أكثر من هذا، يكفي أن تظهر عارية أمامي، اقترب من الهدف حتى أكاد أدس أصابعي في جميع فتحاته، ثم أمضي، أو يمضي هو، بلا خجل أو إحساس بالخسارة والغضب. هذه المناورة الشاسعة متى تنتهي؟ قديسة وعاهرة! أما أنت فتظل في الحقيقة هو أنت، أكثر منها عهراً وقداسة. يكاد يضحك على مرور خاطر عابر في الرأس المشغول بموعد غرام.

fb/mashro3pdf

لكم نشبه أنفسنا، وإذا بنا في النهاية وحل مترابط الأجزاء. لن ينظر في المرآة قبل الذهاب، هو يحفظ داخله وخارجه عن ظهر قلب. جميلاً أو قبيحاً؟ هل هذا سؤال لائق لرجل مثله؟ سيتذكر ما قالته له ابنة العاصي منذ أكثر من عشرين عاماً: لو تصدق رأي الناس فيك لانتحرت في التو. ما عليك إلا أن تؤمن بأنك الأجمل في كل شيء، وماعدا ذلك سخافات لا تلق إليها بالاً. هذه قاعدة حياة لأجل المرور السريع، ماذا ستقول في البداية؟ لا تقل شيئاً، هذا الأمر يقول كل شيء من تلقاء ذاته، ثم كأن هذا الأمر يحدث للمرة الأولى. ماذا دهاك بالضبط؟ لا شيء. قال صافياً: أعدك، كل شيء سينتهي في لحظة التحقق. هل تعلم؟ رغماً عني والله أذهب! ذلك سيفسد القليل من الشفافية التي تدخل وتخرج بها من محرابك، يقيناً أن هذا هو العدل التام، وإن لم يمض كل شيء على ما يرام فهذا معناه فقط أن الله يتدخل في الأمر مباشرة، وبإمكاني في هذه اللحظة أن أتحلل من عقدة الفشل بضمير مرتاح، إذ ليس من المنطق في شيء أن تعتقد في نفسك حتى هذا الحد!

fb/mashro3pdf

-٢-

في المساء الخريفي الصامت حتى هذه اللحظة، قرر أن يسلك الطريق الخلفي من وراء البلدة القديمة. هكذا تصير المدينة غرب الطريق، بينما تتعالى الكثبان الرملية الصفراء الناعمة على الناحية المقابلة من الطريق، وقد بدأت هذه الرمال في الذوبان، تحت جنازير عملاقة، تمهدها للزراعة والبناء، حتى صار هذا الشريط الرملي، المنسي منذ مئات السنين، تربة واعدة للثراء والوجاهة لكل من يملك مالاً وقلباً جسوراً.

هذا الطريق سيوفر عليه الكثير من العناء، لا، ليس في الوقت، إذ ماذا يعنيه من الوقت؟ طويلاً أم قصيراً، ثقيلاً أو خفيفاً؟ لا فرق في الحقيقة عنده من هذه الأشياء، إن وقته بعيد، بعيد جداً عن هذه اللحظات، إنما سيكون النجاح في أنه لن يلاقي الكثير من البشر، ماذا عاد عليّ من البشر سوى التعب؟ لن يضطر إلى التوقف لكي يبادل أحدهم التحية، أو يخوض معه في حديث يعرف مقدماً أنه لا طائل من وراءه؟ متى يكف الناس عن الشكوى؟ حين يموت لديهم الأمل، ولما كان الوقت لا يزال مبكراً حتى يقصد ذلك الباب الرمادي ليدفعه سريعاً، داخلاً إلى الممر الضيق، صاعداً الدرجات حتى يصل إلى الطابق الأول، ثم ينظر يميناً فيجد المفتاح الصغير معلقاً في ميدالية زرقاء في ثقب الباب من الخارج، ثم. ثم ماذا. توقف، نهر نفسه: كأنك تشي بنفسك يا مجنون. نعم توقف. لينتهي كل شيء. آه. لكم أرهقني هذا الأمر.

fb/mashro3pdf

دائما في هذه البلدة ستصل إلى البحر، لولا البحر لجفت هذه القرية وأهلها وباتوا في عداد الرمال التي تتسع لكل شيء، وعلى كرسي أصفر خشن وجد المكان ملائماً ليجلس قرابة الساعة يعب من يود البحر اللاذع، والخلوة المترعة برذاذ الموج والترقب. كل شيء يتشابه في آخر الأمر، كم من الوقت أنفق ليدحض هذا السخف؟ حلمت بالسفر ولم تسافر، فيما سافرت كل القيود التي أجبرتك من قبل على الإقامة. سافر الآن إذن، أنت حر، هيا أرني ماذا ستفعل؟ لماذا أبدو وكأنني أحارب نفسي؟ متى أقر على ناحية وأموت؟ يا الله، كم كرهت هذا القابع فيَّ، ولكم أحبه أيضا. لا مفر. ها أنت تسافر بطريقة أو بأخرى، فيما لا تغادر قدماك الأرض، ولكنني أسافر، هذا هو المهم.

رحلة طالت بعض الشيء، وهل (لولا) إلا واحدة من الرحلات؟ ها أنت على مشارف الوصول، قَاوَمَت طويلاً لكي تظل في ذاكرتك نقطة بيضاء ناصعة، كم مرة أخبرتها أنك تكره حتى الحليب لمجرد لونه الأبيض، ثم من أعطى لهذا اللون الأبيض الحق في أن يكون رمزاً للنقاء؟ النقاء الذي لا أعرف له معنى أو لوناً! لا شيء سيوقف هذه الخطوة، وعلى مشارف الهاوية، فالحمقى وحدهم يتشبثون بالأشياء!

لا تسعه الذاكرة، ولن تسعفه لحصر الرحلات التي قام بها منذ أن تعلم الاشتعال هناك. حتى هذه النجوم تسافر وتشتعل، أنا فقط لا أعرف كيف، هل هذا يجدي؟ ولكن ما هو الذي يجدي

fb/mashro3pdf

في الحقيقة؟ أنت تعمل بإخلاص، هذا مهم للغاية، تزرع بإخلاص، تصلي لله بإخلاص، تضاجع زوجات الأصدقاء بإخلاص، يقين العابر لا بأس به، ولن أكون كاملاً، الكمال في الحقيقة لا يخص إلا الأشخاص المرضى، غير أني لا أصدق أنني لا شيء، في هذه النقطة تحديدا أرضى بكوني أنا وحسب، غير أن كل شيء يحمل جوهر بذرته، ربما هذا هو جوهر البذرة، ما ذنبي إذن؟

قبل عشر دقائق فقط يتيقظ للوقت، استدار صامتاً إلى الطريق، وعلى مهل قاد الخطوات إلى الباب الذي لم تغفل عينه عن مراقبته لسنوات خلت، توقف و لم يكلف نفسه حتى عناء الالتفات إلى الشارع، إن كان غاصاً بالناس أو خالياً منهم، كان في جوفه ما يكفيه من العزم على المضي إلى آخر الشوط، صعد الدرجات النظيفة ببطء، الإضاءة واهية، والصمت لا يشكل عائقاً، على آخر درجات السلم من الطابق الأول توقف، نظر إلى ناحية اليمين ولاذ بالصمت الثقيل، كان كل شيء حتى هذه اللحظة مواتياً، لكن الآن، ماذا عساه أن يفعل أو يقول؟ كانت سيدة في منتصف العمر بملابسها السوداء تقف قبالة الباب، لا تتحرك، ما معنى هذا؟ وقبل أن يفيق أتاه الصوت السميك: أنت الصافي، أليس كذلك؟ حدق صامتاً دون جواب، واصل الصوت الفحيح: (لولا) بالداخل تنتظرك هناك، وأشارت إلى الباب الذي تسده بجسدها العريض، وفيما تستدير للدخول قالت: الرجل داهمة تقلص الكلي، وليس من أحد معها، لم تنتظر السيدة جوابه، إن كان هو الصافي أم لا؟

fb/mashro3pdf

دلفت إلى داخل المنزل، ومن البهو الطويل قالت: تفضل، خطا بعض خطوات قليلة، مازال يسأل: لماذا؟ لماذا يداهمه التقلص هذه الليلة؟ ألم يكن من المفترض أنه على سفر؟ لماذا لم تخبره من قبل أن يأتي؟ هل عاد الله ليتدخل حتى في هذه الأمور؟ وبهذه الطريقة؟ ثم من تكون هذه السيدة البدينة؟ دقيقة تمر حين تهل لولا بروب أزرق ثقيل يلف الجسد الفارع، لم تكن في حالة فزع أو قلق، كما لو أن الأمر طبيعي، غير أنها بدت جادة وعابسة، بادرت السيدة التي كانت في الحقيقة شقيقتها الكبرى: تأكدي أن الأطفال نائمون، عاودت النظر إليه: إما أن تذهب به إلى الطبيب أو أن تحضر له طبيباً في الحال،كان الرجل يجأر بالصراخ، يعرف الصافي أن هذا التقلص مؤلم، لكنه الألم في كل الأحوال، وهو الإنسان الهش المتداعي. واصلت: لا يحتمل الألم مع أنه صبور في العادة، انظر إليه، يكاد ينفجر، فيما كانا قد وصلا إلى غرفة نوم المريض، حين حدق فيهما الرجل، قالت: اتصلت به كي يأتي لك بطبيب، لم يكن على وجه الرجل أي تعبير غير الألم، قال الصافي سأذهب في الحال، لا تقلق، خرج من الغرفة لا يعرف بالضبط في ماذا يفكر أو بماذا يشعر! أنت قلت: كل شئ سينتهي، هاهو فعلاً كل شئ ينتهي، فقط ليس كما تشتهي! ما الجديد في هذا؟ لا بأس، كما لو كانت السماء تناصر هذه العاهرة! لست منهزماً تماماً، فحين أعاون في نجدة مريض فإني أعمل لحسابي في الناحية الأخرى، إذ من المستحيل أن لا يحسب هذا الأمر لي،

fb/mashro3pdf

حتى ولو لم أرغب في القيام به من الأصل، لكنني أفعله، المهم هو الفعل.

في الطريق القصير على ساحل البحر، كان الصافي يعرف طبيباً جراحاً، أوجز له حالة المريض، ولو شاء لساعد أيضاً في كتابة العلاج اللازم، أقترح على الطبيب أن يحمل مسكناً قوياً يساعد الرجل على النوم، مع ما يلزم لهذا التقلص الغادر، قال الطبيب بأنه يحمل في حقيبة الطوارئ كل ما يلزم، وكعادة أهل الشرق السعيد، لم يفت الطبيب أن يسأل: لكن ما علاقتك أنت وحمدان الشهري؟ ولما لم يجد الصافي جواباً، فلقد واصل الصمت الثقيل وصعود الدرجات. في غرفة المريض كانت لولا قد ألتفت برداء صوفي طويل، داكن الزرقة، فيما كانت السيدة لما تزل تجول في المنزل هنا وهناك، علّق الطبيب كيس المحلول ومزجه بالعديد من الأدوية، قال سأعطيه أيضاً واحدة بالوريد، ليضغط أحد منكم هنا، أعلى الساعد، بادر الصافي بالجلوس إلى جوار الشهري، قابضاً على ساعده الأيسر، دقائق ويكون أفضل: قال الطبيب، ومع نهاية المحلول سيكون على ما يرام، ليكن أحد إلى جواره عند انتهاء المحلول لينزع الإبرة العالقة برفق، من هنا ثم يضغط قليلاً بقطنه صغيرة مبللة بالكحول. في قيام الطبيب للمغادرة رافقاه إلى باب المنزل العلوي، قالت لولا: خذ أختي لمنزلها، لقد تأخرت عن أطفالها، اسمع، أرجوك تعال لتنزع إبرة المحلول! حين عاد من جولة الليل، تساءل: لماذا أعود؟ لكن ألسنا مازلنا في ليل الأربعاء؟

fb/mashro3pdf

صعد إلى المنزل هادئاً ساكناً كأنه يؤدي عمله المعتاد، حين دلف إلى هناك لم يكن غير الصمت جالساً يؤنس لولا، المتربعة على كرسي وثير قبالة الشهري وقد فكت حزام الأزرق فاكتفي بإحاطتها، بدت متعبة وساهمة، لم يبق بكيس المحلول إلا قطرات قليلة، قال: أنت تعرفين كيف تنزعين الإبرة؟ شارفت الساعة على الثانية صباحاً، ولم يتلق جواباً، في طرف الحجرة الواسعة، بجوار الدولاب الأبيض الكبير، ينهض رف طويل من الخشب، يبدو وكأنه كان خزانه للكتب، قالت وهي تنهض: سأعد لك فنجاناً من القهوة، بتراخ توجهت صوب رف الخشب الطويل، حاولت من أعلى نقطة في الرف التقاط علبة البن الصفراء، لم تطل أصابعها العلبة، كان الأزرق قد آثر أن يبقي على ذلك الكرسي الوثير، تقدم الصافي للمساعدة، لم يشغله المريض كثيراً، ولم يكن يرغب في القهوة، وكان القميص أيضاً لا يريد أن يستر شيئاً. حين عاودت المحاولة لاقتناص علبة البن، تجمعت الحواس كلها لديه ليحدق في مرمر مصقول، أخذ القميص الخفيف في التباعد عنه كأنما كان يفر من حريق، بدأت حروف الأسود في البروز، آه هذه الأرض مستديرة، ألذلك نعشق الأرض؟ حين أقترب منها ندت عنه التفاته بلا وعي إلى وجه الراقد على السرير، كان فاغراً فمه، يتنفس بصوت بدا وكأنه آتٍ من صدر خشن وضيق، عاود النظر إليها، قال: دعي عنك البن، كانت لازالت في مواجهة الرف الخشبي، فيما كانت المسافة بينه وبين ظهرها الذي بدا يتعرق برائحة العشب الندي قد تلاشت

fb/mashro3pdf

تماماً، ومثلما يمضي الزمان دائماً في عجلة من أمره، فإنه يحلو له أحياناً أن يتمهل، كانا فيما مضي يتساءلان: من منا الأكثر طولاً؟ هذا أوان رائع لقياس الحقيقة، تهدل شعر بني كث على أكتاف مضمره تكاد تشع، ماذا لو يدس أنفه في عشب الحناء هذا؟ هذا ليس تجاوزاً لطبيعة الموقف، يداه جامدتان إلى جواره، حين التفتت إليه بعنقها الطويل دون أن يتحرك جسدها قيد أنملة واحده كان البحر على وشك أن يبتلع اليابسة، لم يعد للهواء متسع للمرور بينهما، هل كان بارداً إلى درجة التجمد؟ هل كان ساخناً إلى حد الغليان؟ أشبه ما يكون الآن باللغم الصامت، ما عليك إلا أن تهز تلك الإبرة الرفيعة، ولسوف تري ما يكون.

من أين يبتدئ الطوفان؟ همس كأنه يختنق: هل هناك شئ؟ هل كان ينتظر المباركة؟ هل كان يستكشف الطريق؟ حركت رأسها ببطء، علامة الرفض، هواء مثقل بجدل السنوات الطوال، يرتعش على شفاه مرتبكة، عميق ذلك الأخضر في العينين، طرى حتى كأنه كاد يسيل، ربما خيط هواء أو اثنين، كانا لا زالا شاخصين في المنتصف، عبر بأنفه مدار الجمرتين إلى صفحة العنق المتوهج فكاد أن يفقد القدرة على الكتمان: هبي يا ريح الخزامى، ألصق فمه المشتعل بأسفل أذنيها: ربما لا أكاد أصدق، ربما أجابت دون أن تهتز: بل أنت لا تصدق غير هذا، مضي كسحابة غائمة مثقلة، ُتري، في أي شبر من الأرض سوف يهمي مطر الأربعاء؟ هي اللحظة لم تتغير، راسخة كحجر من أزل، حين بدا للقوسين أن

fb/mashro3pdf

ينفرجا قليلاً، ترتفع وتنخفض الدائرة، الأرض في قشرتها الزرقاء لم تزل تدور حول قطبها في استكانة وهدوء، لا أحد يدري؟ كم يحتاج الأمر من زمن ليدخل خط الاستواء في قلب الدائرة؟ و تسكن الأرض في نومتها الأخيرة، استدارت الآن بكاملها إليه، أرخت عينيها إلى منتصف جسده، كان نافراً في عتاده، بدا كذئب يتجمع للحظة القنص، ولم تكن هيابة أو مترددة، عاودت النظر إلى زجاجة المحلول المعلق قبالتها، تحركت باتجاه الرجل القابع على السرير، كان يواصل إغماضه من الألم والنعاس، نزعت الإبرة في سكينة، قالت: أرجوك، ناولني زجاجة الكولونيا، هي بالصالة هناك، ذهب إلى الصالة، وحدق في أرجاءها، لم ير شيئاً، ولم يكن باستطاعته أن يرى غير ما يتوق لأن يراه، وقف في مكانه وأشار إليها: لم أجد شيئاً، أومأت برأسها أن الأمر على ما يرام، تمدد على أريكة رمادية في البهو، لو ترك الأمر على سجيته، لعاد إلى عاداته السخيفة،لأخذ العقل الحكيم يسأل ويجيب، خرجت من الغرفة، وأسدلت الستارة السميكة على القاطع الحجري الذي يفصل بين الغرفة والبهو، اقتربت قليلاً وتساءلت: مازلت لا تريد القهوة؟ كان سؤلاً أكثر إلحاحاً يطرقه من ناحية أخرى: ماذا تنتظر؟ مد يديه إليها وهي واقفة في مواجهته، حين قبض على أصابعها الطويلة الرخوة، جذبها إليه، اتسعت الحدقات الخضراء، فيما كان الحقل بأكمله يتهيأ ليسلم الزمام إلى راعيه.

هبطت حانية على أوتاد الأرض الصلبة، أزاح الغلالة قبل أن يقذفها

fb/mashro3pdf

إلى بئر الليل الواسع، حين تجلى له الأسود، صغيراً، يانعاً، ومخضلاً بندى شفيف، كاد أن يشهق! أخيراً يا بدر التمام، مادت الأفكار والمشاعر في رأسه: بإمكاني أن أقفز فوق اللحظة، أعود إلى سابق الأيام وأتذكر، بإمكاني أن استشرف اللحظات الآتية، بيد أن هذه اللحظات التي تستغرق زمناً في القبض عليها تستحق شيئاً من الاحتفال، هكذا ظن.آه. ليس الأمر كما يبدو، وأنه امتطاء واحدة من المهور الأصائل، إن الأصل في الفرحة هو المعاناة، لأن ما يأتي رخيصاً فسوف يذهب كذلك، في المقدور أيضاً أن يتذكر، سنوات وهو يركض في غابة تفضي إلى لا شيء، كانت تستميت في دفاعها لدحض هذه اللحظة، وكلما كان الصيد ثميناً فإن هضمه يستغرق وقتاً، كل شيء يتداعى، غير أنه كان يريد أن يظل واعياً، يؤسس في الذاكرة لمجد اللحظة.

حين تكاثف الليل عليه، كانت تدفعه برمحين ساطعين، امتص القصب النابت على الأطراف، صعد الرافدين زاحفاً عشبة. عشبة. حين أهلَ على باب الفجر، لم يطق صبراً، كان مستديراً كأنه شفق تولد في التو، ألقى مرساته في غياهب الماء اللزج، تأوه النبع الضاج، فعاد إلى الوراء قليلاً، حدَّق الأخضر ذاهلا، فأعاد قذفه بالماء الحار، امتلك الخاصرة الناتئة، وجذبها بحدة إلى صلب التوق، ندت صرخة عميقة: حيوان!! آه يا حلوة، هذه ليست سبة، كلنا أبناء غابة واحدة، ومن هاهنا عبر الذئاب، لكم قلت: لست مثلهم، وكم مرة قالت هي: الآن لا فرق.

fb/mashro3pdf

أن أذهب أو أن أبقى، أن أكون ذئباً أو تكونين قديسة، ما نفع السؤال الآن؟ ما جدوى الإجابة؟

حين اعتدلت سكرى، كان لم يزل في توق لأن يخرج من الباب الملكي، أن يعبر من ألق النافذة الصغيرة. قالت: لا. كان الباب الرئيسي مزداناً بشقائق النعمان، بدا ذابلاً ومنتهكاً، وقد غطت أوداجه قطرات فخيمة من الطل، تلفت فلم يجد غير ثقب صغير، في استدارة الخاتم، كان يكفي للمرور، قالت: لا، لم يحدث قط. قال: هذه المرة فقط، لا أستطيع أن أتنفس حتى. اذهب. أعادها إلى أمها الأرض الوارفة، استلقت على وجهها مضمخة بعبير السنوات والعرق، كان قد تمدد فوق حواف الهضبة، جذبها إلى أعلى قليلاً، صلصالاً عاد الأمر، ليناً وهشاً، حين اكتمل ميل السفينة إلى الأمام، مسّد على الظهر المبتل بحنان الراعي، فكر: لو يستغرق الأمر وقتاً لانتهى كل شيء بالفشل، لن يحتمل المهر الكي، مرة واحدة وحسب، بلل الجرح الصغير بريقه اليابس، وردياً كان وطازجاً، فيما زهرتان بنيتان قد التمعتا على جانبيه، أمسك بخاتم الذكرى الطويل ودسه إلى آخره في برعم الوردة. هكذا. مرة واحدة وحسب. حيوان. حيوان: رددت وحين لم يجد طريقه تمدد بكامله فوق الحقل ليكتم صرخاته.

بخفة اللص أو بحذر الذئب دلف إلى الغرفة، وتناول الأزرق النائم على الكرسي الوثير، عاد وناولها إياه، حدقت ولم تقو على الكلام، منذ بعيد يا قلبي، وأنت تطرب لمشهد الأرض المحروثة، كانت

fb/mashro3pdf

بشائر النهار تضرب النافذة، فيما يقيناً أنه كان حتى هذه اللحظة، يعرف طريق الإياب!

استقبل بشائر الصباح في عرض الطريق، كانت الحياة قد بدأت في الدوران كعادتها، تذكر ما كان الشيخ يردده على الدوام: عند الفجر، يوزع الله الأرزاق، من كان حاضراً يأخذ نصيبه من الجرن الإلهي الوفير، إلا من يأبى، ويظل في فراش الخيبة حتى شروق الشمس. تبسم راضياً: صدقت يا أبي، لقد كنا هناك عند الفجر، وتسلمنا ما يخصنا من نصيب! في عرض الشارع يمضي مأهولاً بالنشوة والغبار، فيما شاحنة خلفه يتعالى صراخها، يترقب سائقها أن يحيد هذا الأحمق عن التماوج في بحر الطريق، انتبه أخيراً لزعيق الشاحنة فأخلى لها الدرب، حين عبره السائق، مد عنقه من النافذة العالية للشاحنة، وصرخ فيه: حيوان. ابتسم دون غضب وهمس لنفسه: أنت أيضاً! من أنبأ هذا السائق الجاهل بصفتي وقد حزتها منذ دقائق قليلة فقط!

fb/mashro3pdf

-٣-

فجأة سأل نفسه: أين النبوءات القديمة؟ اعتصر ذاكرة هرمة علَّ واحدة من تلك النبوءات القديمة تهل، وإلا ما فائدة الأحلام؟

في دفتر المراجعة يتوقف على دوائر من هلع! الرفاق القدامى: خيوط لا تكاد تميزها العين من شدة التغير الذي طرأ عليها خلال الموكب الطويل.

أقول لك: كل شيء تغير، مناخ الأشياء تغير، إن المناخ نفسه خضع لسيف التبدل هذا، المنازل والدروب، اللغة المعجونة بمائة لهجة و أكثر، ميزان الحساب بين الناس، هل معنى أن وجود سماء عالية وأرض واسعة وبشر كثيرين أنك تمضي باتساق في تلافيف الجسد بدون ألم؟ يبدو أنك سلكت الطريق الذي لا يصل إلا لنفسه، ولماذا لا؟ أقل شيء كان بمقدوره أن يسبب لك الندم، غير أنه الآن لا ندم البتة. أنت أيضاً، انظر إلى نفسك جيداً، هل أنت على حالك التي تعرفها عن نفسك؟

يبدو الوجه متغضناً،

الأصابع مفرودة ولا تقبض على شيء، كسولاً تنهض وتتحرك في كسل، ولّى ولعك بالأشياء، كن على حذر فهذا نذير، لعلك أنت أيضاً على مشارف السفر، هكذا حال المتعجلين دائماً، وبعد شهور قليلة تنقضي ألفان من السنوات لتبدأ واحدة جديدة، أين سنكون نحن بالضبط؟ إلى أين يتجه الذئب؟

ومادامت الذاكرة لا تسعف بالنبوءات القديمة فاجلس في تلتك

fb/mashro3pdf

النائية، تلفع بصفائك الأثير، وانتشل من قاع روحك بعض السطور الغائمة، يقيناً أن أملك لن يخيب، خاصة وأنك لا تأمل في شيء.

fb/mashro3pdf

-٤-

أسبوع قد مر بالتمام والكمال على أربعاء السعد، مضى الزمن فيه وهو كالجمل الذي اكتفى باجترار ما ناله من طعام، بدا الأمر غير لائق أن لا يسأل عن صديق مريض، في سكينة البراءة المستقرة أدار قرص الهاتف على الرقم الذي تلوكه أصابعه حتى في الظلام الدامس، أجابه الصوت الرخيم: نعم، من تريد؟ قال في نبرة حياد القاتل: أليس هذا منزل السيد / الشهري؟ ردت بالإيجاب: إنه هو. أيمكن أن أحادثه يا سيدتي؟ تبادله حياد متوجس: ولكنه الآن نائم. شكراً يا سيدتي، أخبريه أنني هاتفته للاطمئنان عليه. ثم دلف إلى الصمت في انتظار خطوة تالية، قبالته واصلت الانتظار أيضاً، رفضت أن تمس بالقناع، أراد أن ينتهي فقال: أخبريه أن الصافي قد اتصل، دقيقة مرت ساكنة، أجابت على مهل: ماذا أقول له يا سيدي؟ آه الصافي، جميل أن تفعل هذا، قال: نعم، هذه هي الأصول، نفد صبرها على اللهو السخيف، احتد الصوت وعاد إليه انفعاله البشري المشحون: أين أنت إذن؟ قال: هناك، ولم يزد، واصلت: أهذا كل ما عندك؟ قال: لا، وإذن؟: تساءلت، كيف بدا لك الأمر؟ وكان هذا بالضبط ما لا يعرف له جواباً صحيحاً، قال في سكينة بعيدة: أكثر مما يتخيل البشر، قاطعه الصوت الحانق: ألهذا بادرت بالاتصال بعد أسبوع كامل؟ قال صابراً: هذا أقل زمن يلزمني للإفاقة! واصلت الحديث: يبدو أن الشهري قد استيقظ، قال: إذن أحادثه لو تسمحين! حين سمع صوت الرجل في الهاتف

fb/mashro3pdf

تحير: كيف للمرء أن ينتقل من هنا إلى هناك دون أن يتغير، منذ متى بالضبط تعلم الإنسان الكذب؟ فاجائه الصوت العميق: لن أنسى ما حييت ما صنعته لي تلك الليلة، ود الصافي لو أجاب: لا أحد يستطيع أن ينسى يا سيدي، لا أحد، واصل عرفانه بالجميل، كان حاراً وودوداً، أكثير من الرجال على هذا النمط يا رب؟ واختتم الحديث الدافئ بضرورة أن يتناولا العشاء معاً هذه الليلة: لا تكن بخيلاً: قال الرجل، وأجاب الصافي: ما كنت أبداً كذلك يا سيدي، ليكن.

بعد أن أغلق الهاتف تساءل: لماذا فكر بالاعتذار؟ هل حقاً كان ينوي الاعتذار أو يرغب فيه من الأصل؟ ألم يكن يود أن يراها ثانية؟ أنت المزارع الجيد تعرف أنه لابد من المرور على الغرس بين وقت وآخر لترى، لتراقب، أنت المجرم السافل تعرف أنه لابد من المرور على مسرح الجريمة، لألف سبب تود أن تعود، فيما ظاهرك المخادع يبدو وكأنه يفر من هذه الرغبة، آه فلنعد: قال.

ذلك المساء لم يكن مرتاباً قط، ذهب بقلب الصديق وحده، وذاكرة الفاتحين القدامى. على عتبة المنزل من الخارج تلقاه الرجل محتضناً إياه ومرحباً، قاده في الصعود إلى الطابق الأول، حين دلف إلى بهو المنزل واضعاً ذراعه على كتف الضيف، أمام الأريكة الرمادية الضيقة توقف الصافي ثم جلس مشحوناً بحرارة استقبال الشهري، والميدان الذي بدا هو الآخر لا ينسى شيئاً مما كان، في أول التفاتة من الصافي في أرجاء البهو الواسع وقع نظره

fb/mashro3pdf

على زجاجة كولونيا فوق منضدة سوداء صغيرة، كانت تقبع في ركن البهو كأنها كانت تحدق فيه، كأنها شاهدة إثبات على انه كان أعمى، وبفرض أنني رأيت الزجاجة في تلك الليلة؟ ما الذي كان سيتغير؟ قريبة تدور في المجال، حدس الصافي بذلك، حين تلسعه ريح الخزامى فليستعد، ولم يطل الانتظار حين دلفت قاطع المنتصف، كانت تمخر في عباب زينتها، فستانها الأسود الطويل، وذراعيها العاريتين، حديقة الحناء وتلك التلال الرابضة المستفزة، حقاً إنه لشرف لك أن تجوس خلال هذه الديار. يختلط السؤال عليه: لم كل هذه الحشود؟ ربما للتأكيد على أن كل شيء على حاله، وأن خطوة مهما كانت لا تفسد درباً، ربما للبرهان على صحة رأيها القديم أن لو ظل الأمر كما كانت تشتهي لكان أفضل لكلاهما! من قال هذا السخف؟ أفضل! كيف يكون أفضل؟ وحين مدت يدها إليه لتصافحه بدا كل واحد منهما وكأنه يتعرف على صاحبه هذه اللحظة فقط، طويلة ويانعة، مشرقة كوردة أشبعت ضياءً وشذي، فكر في نظرياته التي يوقن بها دون سند من علم أو قانون، قال جازماً دون أن يلفظ بقول: أنا شريك في هذا البهاء العظيم، أنا واحد من العناصر التي دفعت بهذه النجمة إلى الضياء، لو تطالها أظافري الآن لشممت رائحتي تهب من كل الأجزاء، هذه المرأة من نوع الزهور التي تتأثر بالري سريعاً، إن سبعة أيام ليست مدة طويلة لكي يجف دمي في هذه الأيقونة! أفاق من شروده الطويل على صوت الرجل يدعوه للعشاء، تناولا طعاماً أعد

fb/mashro3pdf

بإتقان رفيع، احتسيا شاياً أخضراً، قال الصافي: أنت الآن أفضل كثيراً، أجاب الرجل: أشعر أنني ولدت من جديد تلك الليلة، لقد ساقك القدر إلي، ثم نظر إليها ممتناً: لكِ فضل الفكرة حين طلبت منه القدوم، قالت في دلال: لقد فعل ما لا يفعله إلا رجل حقيقي، صار الصافي يدور بين أربعة عيون متناقضة، يجيب: لا، ما قمت به تلك الليلة أسعدني من القلب، أنتم أخوتي، تواصل الحدقات الخضراء حصار الكلمات، أخذت تتشكل مع الوقت بما يزيدها طغياناً وبدا أنه لا يحتمل المزيد من الضغط، قام الرجل ليرد على هاتف قريب، مالت جوار أذنه وتساءلت: ما رأيك؟ قال: آه واكتفى بالضياع في العبير الخفيف، كأنها جديدة تماماً، لا شيء يتشابه قط، حتى الزمن الذي يبدو للناس متشابهاً ورتيباً فإنه يعود كل مرة بذاته فقط، لا يحمل حتى شخوصه القدامى، تساءل صامتاً: متى؟ قالت دون جواب: من يدري؟ عاد الرجل سعيداً ضاحكاً، بادرته قائلة: أظن صديقك هذا أفضل أخ لنا، قال الصافي: نعم، بمقدوري أن أكون دائماً أخاً لأجمل أخوين، يشعر بالرغبة في الرحيل، يريد أن يتحرر، أن يخلو بها ولو من الذاكرة القريبة، أن يعب من هواء البحر ما يزيح هذه الرائحة الطاحنة، رائحة لا تترك لك المجال إلا أن تتعرى، كأنها ريح الغابات الأولى! حين وقف للمغادرة صافحته بحرارة الأخت الباردة، عانقه الشهري وقبله: ربما في نفس المكان يا أخي، إنهم شركاء، لا ينكر ذلك إلا جاحد، ومضى الصافي يتذكر باسماً: أخوتي، أخوتي حقاً من أمي وأبي،

fb/mashro3pdf

كم عام مر علينا ولم نلتق؟ ليكن هذا المساء إذن مساء الأخوة الجميلة، في طريق العودة كان مذياع السيارة التي تقله يسبح في مجال الترتيل "وجاءوا على قميصه بدم كذب " تذكر الشيخ خلف السنوات البعيدة حين كان طفلاً ويقول الشيخ: أتعرف قصة "يوسف "يا ولدي؟ آه، الكذب في هذه الدنيا قديم، قديم، انظر ماذا يصنع الأخوة ببعضهم البعض! ولا تنس أنهم أولاد نبي أيضاً، آه يا أبي، هل تعرف أنت أيضاً؟ نحن الآن أخوة ونصنع ببعضنا ما لا نعرف له اسماً دقيقاً، وإننا لسنا أولاد أنبياء أيضاً، نعرف، نعرف، والله دائماً رحيم. أليس كذلك يا أبي؟

fb/mashro3pdf

-٥-

هنا. ماذا تعني هذه الـ"هنا" ؟ ليس للأمنيات قيمة حقيقية غير أننا لا نكف عن الوثوق بها. ظل يتوسل إلى الله أن يظل البحر لا يغادر مجراه هناك، ألا يلحق به في هجرته الأخيرة إلى التلة، أن يفعل النسيان مفعوله، ليس لأيام الرعب في البحر فقط، ليته يستطيع أيضاً أن يتوغل أكثر وأكثر حتى لا يعود يتذكر شيئاً، أي شيء، آه نعم، أليس هذا ما فعله النسيان برأس هانيبال حين أوغلت به السفن إلى مياه عميقة؟ وغدت "قرطاجة" محض اسم بلا قيمة!

يعتقد بقيمة الفعل، ليس لغرض التأسيس بل بقيمة الفراغ الذي يلزمه كي يتحقق! فأن تعمل لابد من وجود حيز للحركة، هذا الحيز لن يكون إلا على حساب أشياء قائمة! وحين تدور الآلة في صخب فأنت غير معني بالمنتج، أنت فقط منتبه إلى الضجيج الذي يأكل الحواس والوقت، في نهاية الأمر، هذا ما يبحث عنه: ماذا بوسعي أن أفعل في التلة؟ أفعل مرة أخرى! أنت لا تتعلم أبداً، ولكنك لن تنام طوال الوقت، لابد لك من عمل ما، أنت تعرف أنك لم تتقن حرفة من قبل، لكن ـ ساخراً يمضي ـ لماذا لا تمتهن الطب أو الهندسة؟ الرسم أو التفرغ لقراءة الحظوظ واستجلاء الغيب! لماذا أيضاً لا تحاول أن لا تكون شيئاً على الإطلاق؟

لكنه حتى العدم، يلزمه عمل كثير!

fb/mashro3pdf

في كل مريضة يسوقها الألم أو الأمل ـ سيان عنده ـ تطرق بابه باحثة عن أشياءها، كان يجعل منها حالة لسد جزء من تلك الهاوية، الهاوية التي باستماتة يجاهد كي يعبرها بسلام وهدوء.

آه يا "خالدة" سأدفن نفسي في كل قبر ألقاه، سأجعل من كل تلك الأجساد محض درجات للهبوط / للصعود، لا أدري، ربما، أقول ربما، في واحدة من الخطوات أتعثر بظلك، ظلك فقط، أنا أعرف إلى حد اليقين أنكِ بلا شبيه، سألهو وحتى في هذا اللهو لن يفوتني أن أكون دائماً مخلصاً للسراب البعيد.

كطبيب هاو يعمل، بلا ترخيص لمزاولة المهنة، هل يلزمه حقاً ترخيص من أحد؟ وأولئك الذين امتلكوا السند لهذا العمل، ماذا فعلوا له من قبل؟ يبدأ الفحص بالسؤال، يمهد الطريق بخبث لا يخلو من متعة، كل المرضى متشابهون، ربما لأن الألم هو مصدرهم الوحيد، بارداً يحدق في عينيّ حالته الماثلة أمامه، يعتصر الزمن لكي يعرف، منذ متى كف عن التعاطف مع آلام الآخرين؟ آه يا سيدتي: كيف تشعرين؟ بالليل أكثر أم طوال الوقت؟ يمد يده كعصا الراعي الواثق: هاهنا؟ أليس كذلك؟

على طاولة الفحص يتمدد مرضاه، مرات كثيرة كانت الطاولة أرضاً جرداء، جذع شجرة، سريراً بلا وسائد، أريكة سيارة، عشباً يسكنه دود ونمل، لم يسأل المرضى: لماذا؟ وهو كان يملك الدواء الذي يقضي على تلك الأسئلة السخيفة، عراة كانوا كما ولدتهم أمهاتهم،

fb/mashro3pdf

الخجولون منهم فقط كانوا يغمضون عيونهم، فيما كان يشد عنهم آخر ما يستر أجسادهم العليلة وأرواحهم الضائعة، يستغرق في العمل بإخلاص نادر، ربما سيقولون أنه كان جارحاً وفظاً، ملولاً ولا ينطق بالكثير من الكلمات، ليقولوا مغرور وجلف، ماذا سيعود عليه من أقوالهم؟ غير أن آخرين بدوا غير مهتمين بالأمر مادام هذا العمل يؤدي إلى نتيجة أفضل، كم مرة طاف بالأجساد من أقصاها إلى أدناها؟ تتبع مسير النبض في العروق، قاس الحرارات وهي تعلو وتهبط، حتى إذا اقترب من مثلث الصدر توقف برهة، آه هنا، هنا بالضبط، هاهي الرئة اللعينة! يلصق أذنيه على الصدر النابض، إنها تعمل، نعم تعمل، كل الرئات سليمة إذن! فقط لماذا توقفت رئة خالدة عن العمل؟ لماذا لا ينسى هذا السؤال الأحمق أيضاً، لماذا؟ لماذا غدت كل الحالات مجرد لوحات زائفة بالمقارنة مع الأصل؟ ذنب من هذا، ثم أين القسم المقدس يا طبيب؟ أنت تعرف أنك كاذب، وأنهم حمقى: وماذا في ذلك أيضاً؟ هم كذبوا عليّ من قبل، وأنا كنت أحمقاً! هذه المهنة عاقر، ولا تلد غير الأوهام! وما دام الحجر المقدس لامعاً على الدوام فإنه يظل هو الأجدر بالعناية. ستمر أيام طويلة قبل أن تمل روحه قبل أصابعه تلك اللعبة الشائنة، ستظل الرئات تدق يا صافي، بعضها أيضاً سيتوقف عن العمل، وأنت بارد أكثر وأكثر، تغوص في برودة القاع، تهجر اللوحات الزائفة: لو أعمل رساماً، ربما في واحدة من اللحظات الغامضة أصنع ما يرضي ظمأي للأصل الضائع! لا ترهق روحك

fb/mashro3pdf

وبدنك في البحث عن الحظ، لقد صادفته من قبل دون خريطة ولا دليل، الحظ يا صاحبي هو الله، وهو موجود في كل مكان وزمان، وحين يريدك فحتماً سيصل إليك!

fb/mashro3pdf

-٧-

لو ستقوم بحساب السنوات التي تكدست في هذا المكان، في هذه التلة بالتحديد لفاقت عمرك مئات بل آلاف المرات. ويلي، كم أكره الحساب، آتياً من كوابيس المياه، مذهولاً وراجياً، تطل على حديقة في حقل من ركام: من أين أبدأ يا رب؟ تساءل في حيرة واسعة، كيف سأفصل الزمن المتداخل في كل شبر من الأرض؟ المناخ، الوجوه، الجدران، الأشجار، البهائم، الزمن آه، الزمن: هذا العدو الذي لا يقهر، ربما كان غاضباً بعض الشيء، ربما لا يزال يعرف كيف تأخذه الدهشة، وهو ينظر إلى ذلك الشريط المحروق، تذكر مرغماً حين قال لنفسه: أنت من صنعت كل هذا: حياتك؟ الماضي الطويل المكتظ، الحاضر المسلوب بأنياب إلهية! أنت، أنت ولا سواك من قام بهذه الكارثة، ألا تعرف أيضاً أن كل ما مر بك، مر مثله بالآخرين، لا جديد في هذا، الحياة كما هو شائع قديمة جداً، أنت حتى لا تعرف كيف حدث كل هذا، نفخت في الرماد العادي روحاً من أزمنة معجونة بالنار الغريبة، شكلت من أوهى اللحظات تاريخاً مجيداً، لهوت بالأشكال، الناس، اللحظات، التجارب، لم تلمس شيئاً وتركته على حاله، كأنك مسكون بلعنة لا تدري ما هي! مسرعاً، مسرعاً تسابق نفسك المدفوعة بالكشف: عن أي شيء كنت تبحث إذن؟ حتى هذه نسيتها، نسيت أنك لهوت بكل شيء، ولكن في الحقيقة، ربما لم تله إلا بنفسك! هكذا تظن! لا ألم الآن يوخزك، مات الألم أيضاً، والتلة: منفاك الأخير، استراحة

fb/mashro3pdf

الغريب المحارب، وإذن، ها أنت هنا، من جديد أو قديم، أنت الذي كان من قبل، أو أنت الكائن الآن، أو، أو ماذا أيضاً تريد أن تقول؟ هنا أرجوك، لا تنس هذا الآن، هنا.

fb/mashro3pdf

-٨-

نهار أول:

جذب كرسيه الخشبي الواسع، وجلس أمام هيكل الخزانة القديمة، في مواجهة الأشجار العالية: أووه، تنهد ماداً بصره في المجال الأخضر الفسيح، غرق في محيط من التفاصيل والعجز، كادت الأرض أن تتحرك تحت قدميه، والأشجار تنطق بما جرى، الجدران تموج بالذكريات، افترشت العجوز الأرض إلى جواره ساكنة، حدق فيها برهة ثم استدار ببصره إلى الأمام: أهذا كل ما تبقى من الجيش يا وفية؟ فيك الكفاية يا بن عم: أجابت، إنه أمر الله وكفى، ثم رفعت صوتها الخالي من أي انفعال منادية على ابنتها: يا بنت، هذا عمك قد جاء أخيراً، أشعلي النار، وأعدي له قهوته. وقت قصير، ويصحو على وجه "الصافية "، يحجب عنه أقرب شجرة من ناحية الشرق، قالت البنت: القهوة يا عم. آه، تبسم قانعاً، وتناول الفنجان القديم، حدق في حوافه الرمادية فظهرت عروق يد الشيخ البارزة، الحنون "كل مطرود ملحوق " (كل مطارد سوف يُدركَ) أليس هذا ما كنت تقوله على الدوام؟ نهض متكاسلاً حائراً، ودب بقدميه فوق الأرض الخجلى كجندي عاد من الأسر يتجول في أرض المعركة، ما الذي تغير؟ لا، ليس هكذا يكون السؤال، بل: ما الذي بقي على حاله دون أن يدركه التغير؟ هرمت يا أخي أم هي الأرض شاخت! بدت الشيخوخة على الأشجار، لون الحيطان، العجوز التي تزحف على الأرض، كل شيء فيما عدا "الصافية "،

fb/mashro3pdf

الصافية وحدها لا تعرف ما الزمن، لا تعرف منه أو عنه غير لحظته الراهنة، أذلك حظها الجيد أم تمام البؤس. من يدري؟ كان النهار جلياً ووادعاً، لم يكلفه النهار في أول يوم له بالتلة غير اليسير، الليل أيضاً عساه أن يكون رحيماً بضيف قديم.

__نهار قديم:__

العجوز "وفية "عبرت الستين بقليل، هي قريبة صميمة، ولأسباب لا دخل لها فيها صارت هنا، تزوجت من ابن الشيخ الكبير، أنجبت الأطفال في ظل العائلة الكبيرة، وسار بها الزمن دون أن تعرف أن تكون غير ما هي عليه، الزوج يعمل موظفاً حكومياً، يقرأ الكثير من الكتب والروايات، كان يتمنى لو صار ضابطاً، وحين تعذر عليه ذلك تقرب من الضباط حتى صار واحداً منهم، ذو فطرة عارمة وذكاء مشبوب، لكنه فجأة أفاق من ري النكاح المبكر على تمرد فج. قال للشيخ: أريد أن أتزوج ثانية، ما أنا فيه لا يعدو أكثر من لهو أطفال، كنت صغيراً ولا حيلة لي في شيء، سأتزوج، عارضه الشيخ طويلاً، وحين لم يجد بداً أوى للصمت فتزوج الولد البكر، وثانية أنجب الأطفال، فيما كان قد نسي تماماً زوجته الأولى وأطفاله منها. قال: ماذا ينقصهم وأبي يتكفل بكل شيء؟ خاصمه الشيخ بحدة، طلب منه طلاقها أو العدل بينهما، قال: لا، هذا مستحيل، ثم الله يعلم كل شيء، قال الشيخ: لماذا لا تعرف أن الله يعرف كل شيء إلا في هذه المرأة وأولادها؟ أما هي فانتظرت طويلاً عسى أن يتغير

fb/mashro3pdf

الحال، لكنه لم يتغير، اشترت جلبابين جديدين، ودهانا للشعر، لكن ظل الرجل الآبق في كل صباح يدخل للاستحمام ويخرج أمام عينيها، لم يتبق لها إلا أن ترفع يديها إلى السماء وتدعو عليه، وعلى كل الرجال في الدنيا، قام الشيخ بعرض الخيارات على أبيها وعليها بين الاستمرار هكذا أو العودة إلى منزل والدها، قالت: لا، أبقى لأولادي، لا فرق بين هنا أو هناك. ستمضي السنوات لأنها لابد أن تمضي، تزوج أولادها ولم يتبق منهم إلا الصغيرة "صافية"، مات الكبار من الأهل، ورحل من رحل، الصافية تعرف أباها من شكله فقط، غير أنها لا تصدق أكثر من ذلك، تقول: منذ متى كان أبي؟ أنا لا أعرفه، لم يلمسني أو ألمسه، حتى وإن كان ما يقال صحيحاً فأنني شربت من ثدي أمي كل المقت، ولا حيلة لي في هذا، وعلى هذا سارت الأيام الكثيرة، صارت وفيه والصافية إرثاً وجده الصافي غير قابل للتفريط فيه.

fb/mashro3pdf

-٩-

مائة وعشرون متراً هي ارتفاع الكثيب الرملي الأبيض الذي بدا رابضاً كعجوز بهامة طويلة شقراء، في قاعدة الثوب الرملي صف طويل من أشجار الأكاسيا العملاقة تلتف حول التلة كالسوار حول معصم صغير، فيما يمتد مجرى عميق صنعته أخاديد المياه التي تتدفق في مواسم السيول النادرة، على تلة من الرمل أعلى من مجرى السيل وأدني من هالة الكثيب تستدير تلة الذئب في ركن الحقل الأخضر، وعلى مهل في صباح ناعم طري يصعد إلى ذروة الكثيب الممتد في السماء كرمح أصفر، من هناك، إذا نظرت أسفل عينيك مباشرة بدت لك التلة كأصيص من الزرع اليانع، حتى إذا استقام نظرك طولياً ظهرت لك المدينة بأحجارها وألوانها ومآذنها، أما إذا رفعت عينيك إلى آخر نقطة في المدى الفسيح فهنالك يطالعك الأزرق سابحاً في غمام رمادي، البحر نائم في ملكوت السر. أووه يا بحر: قال، ومن ناحية الشرق فليس إلا الرمال، بيوت من القش والجريد والوبر تتناثر هنا وهناك بلا رابطة، ليس في الجهات الأربع ما يشده على وجه الخصوص، أين الحياة يا الله؟ خجل من صيغة السؤال فأطرق بنظره إلى الرمل، لكن حين يتسع لك المكان والزمان إلى هذا الحد تنمو في رأسك الأسئلة السافلة: ماذا أصنع؟ فرش متاع، هكذا يقولون في الخدمة العسكرية حين يريدون حصر الموجود وبيان الفاقد، الأمر بسيط، ليس أكثر من أربعين عام فقط، لن يستغرق الأمر أكثر من إغماضة عين ثم تصحو على

fb/mashro3pdf

هذا الشيء: هنا. أهكذا ينتهي بك الحال؟ تقول ينتهي؟لماذا؟ بدا لنفسه معروفاً جداً ومجهولاً تماماً في ذات الوقت، لقد انقسمت الذرة في طور باكر من الحياة، أربعون عاماً فقط مذ وعى تلة الذئب لأول مرة، ومنذ ذلك الحين والذرة تتشكل في المنافي والوحول، المناخات الحارة والرطبة، بين الأنياب والنهود، من الطهر إلى العهر، بذاءة وقداسة، من كل شيء، كل شيء، أتفهم هذا؟ حين أنظر خلفي لا أشعر بأنني قد تركت فراغاً أود العودة لأملأه. لا، لم أحن إلى شيء ضاع، ولم أتشوف إلى الأكثر، دائماً، دائماً كنت مكتظاً باللحظة، ومسرعاً كأنني على موعد هام، حتى ذلك الشيء ـ ما تسمونه المستقبل ـ بدا لي كاختراع قديم، طبق من السلطة الشهية، لا يفسد الحياة إن ضاع، ما هذا المستقبل بالله عليك؟ أليس هو ذلك الشيء الذي يقبع في نهاية كل طريق؟ امضِ وحسب! فلسوف تصل إليه حتماً، ستصل إليه حتى لو كنت نائماً، مستقبل!! شيء عجيب والله.

fb/mashro3pdf

-١٠-

كانت طاولة بيضاء من البلاستيك وثلاث كراسي شاغرة تتوسط في دائرة من الرمل، لا تبعد عن ماء البحر أكثر من مترين، جلس صامتاً يحدق في حركة الماء، كأنها الحياة تأتي وتذهب، فيما تناول الشهال الكرسي من الجهة المقابلة وتهيأ للجلوس أمامه ليظل الكرسي الثالث شاغراً، بعد دقيقة من الصمت قال: لماذا يظل شاغراً يا رب؟ صامتان يأتنسان بالرمل والماء.

تساءل الشهال: كيف الخروج من هذه الهاوية؟ كان مدفوعاً بضغط الأزمات التي تتوالي، لا أحد يلتقط الأسقف المنهارة، ماذا فعلت لكي أصل إلى هذا الحضيض؟ أجابه بهدوء: رحلتك الطويلة أقصر من حلم. قال الشهال: حتى ترف الحلم لا أملكه الآن، قد أسقط حتى أخر القاع ولن أعترف، هل تفهم؟ على أقل تقدير، ليس من أجلى، ما ذنب هؤلاء؟

أجابه: منذ بدأت وأنت تحلم بالصعود، ها أنت صعدت بما فيه الكفاية، لكن، ماذا يمكنني فعله لأجلك، أرجوك لا تغضب مني، نحن صديقان، أنت تعرف ما يروقني فيك، أنك لازلت تقاوم، مازال لديك الحلم حياً، أنت رجل مسكون بالأمل. واصل الشهال حيرته: ما البديل إذن أمامك أو أمامي؟ لن يرحمنا أحد حين نتهاوى، سيمرون فوق عظامنا وينسجون آلاف القصص، تعرف، لو أقتضي الأمر أن أهبط للقبر سأهبط واقفاً. أجاب الصافي لاذعاً: واقفاً! آه، جميل هذا الوضع، استمر يا أخي لكنني لن أصدق جدوى

fb/mashro3pdf

ما تفعله، أنت حر يا صديقي، لكن، لماذا لا تعود إلى هناك؟ إلى أيام سعدك في الغرب. أجاب الشهال منفعلاً: أعود! يردد الكلمة بدهشة وحنق، الآن أعود! أنجو بنفسي تاركاً كارثتي لمن لا ذنب له فيها، حتى لو عدت الآن، كل شيء تغير، هناك أيضاً ما عاد الأمر مثلما كان، ثم أنا، أنا تغيرت يا سيدي. قاطعة: إذن بإمكانك أن تتغير الآن أيضاً، عاود المحاولة من هنا، أنت هنا ترفض أن ترضى. قال الشهال: وأنت؟ أنت لا تقدم سوي النصائح. أجابه: ليس عندي ما أقدمه، إنني أسف لهذا الفقر، حتى حماسك لا يروقني.

ـ بربك أذن، ماذا تفعل بالحياة؟

أفعل بالحياة؟ ما فعلته الحياة بي، لا شيء، فقدت الرغبة فتساوت المعروضات!

عادا للصمت العميق، وظل الصافي يغوص في فراغ الكرسي الشاغر: لماذا هو شاغر يا أخي؟ لكم يشبهني، ربما كان ينتظر أحداً ما، ربما هو لا يعرف ما الانتظار، لكن حتى لو جاء إليه عابر ما ولامس هذه القوائم الباردة لبرهة من الزمن، حتى لو أحس بدفء المشاركة قليلاً! ثم ماذا بعد؟ أهذا مدعاة للفرح؟ وحين يذهب ذلك العابر، لابد أن يذهب لسبب ما، فهل ذلك سبب كاف للحزن؟ ربما كان هذا الكرسي الشاغر أنا ـ أنا بالضبط ـ هكذا في لحظة أصير كرسياً شاغراً، هذا لطيف ويستحق الابتسام، لكن لماذا أنصح الشهال بالبدء من جديد؟ لماذا أكذب وأواصل اللهو بالكلمات؟ يبتدئ الطريق مرة أخرى! لماذا؟ هي نفس المسافة

fb/mashro3pdf

من تلك النقطة حتى هذه، أخر الأمر سيصل إلى هذا الكرسي أمامي، يحزن ويتألم، وأنا أواصل عبثي ونصائحي، هاهو هنا وكذلك أنا، نعود! لماذا؟ يا للأمنيات السخيفة، كم أنا ملول وسيء الخلق. عاد مرة أخرى للتحديق في ذلك الكائن الأبيض الشاغر، هبط بذراعيه عليه واحتضنه، مال بشفتيه ولامس حوافه التي ابتلت بالندي والملح: بماذا تذكرني هذه القبلة المالحة؟ ليس مهماً، همس في أول ثقب صادفه: حزين أنت؟ لا، لا يا أخي، لا تحزن، ها نحن معاً، أنا مثلك أيضاً شاغر ووحيد، لست وحدك يا أخي، هذا الفراغ العظيم يتسع لنا جميعاً.

fb/mashro3pdf

-١١-

ألو / نعم. هذا أنا.

كانت هويله على الطرف الأخر من الهاتف، تقول أن لديها مفاجأة، تطيل الحديث للتشويق، بعد دقيقة من الزمن ستعرف انه لا فائدة. قالت: ماذا أفعل لك يا أخـي؟ قال: لا شيء. هتفت: لماذا لا تحاول مرة أخرى؟ أنت لازلت قادراً على فعل الحيـاة. قال: أووه يا أختي، جيد جداً أنا، بل أكثر من هذا، ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟ ثم أنني مازلت في الحياة. هل تعرف أن لمي عندي هنا؟ تريد أن تراك! ثم ذهبت في سكينة الصمت تنتظر. لمي؟ يتساءل، فلتراني إذن! يتمدد في الأريكة الخضراء سابحاً في هُلام الزمن الغريب، منذ عشرين عاماً كانت لمي، منذ ثلاث سنوات أو أقل قليلاً حدث ما حدث فتشابهت الدنيا في عين الأعمى، فقدت الأسماء معناها وصارت التلة منذ الآن مسرحاً للعبث، كم لمي جاءت وكم لمي ذهبت ولم يتغير فيك شيء؟ لماذا صارت كل الشخوص مجرد لحم سميك؟ كيف وصلت إلى ذروة التخمة فعافت نفسك حتى ابتلاع الهواء؟ أنت تخمن، لا، بل أنت توقن، هناك شيء ما تعطل، حاسة أو أكثر قد غادرت مركزها وأصابها العطب. لمي! ماذا ستفعل أو ماذا يمكنها أن تقول؟ آفاق على صوت نحاسي يجأر في الهاتف: متى نلتقي؟ قال: اليوم إذا أردتم، غداً، متى تشاءون، إنني هنا. قالت: إذا غداً نتناول غداءنا معاً على شاطئ البحر. قاطعها: لا، البحر لا، البحر لا يرحم يا أختي، تعالوا إلى التلة غداً، هنا رمل

fb/mashro3pdf

وافر وفسيح، و في ظهيرة اليوم التالي حين عاد إلى التلة متأبطاً حزمة من الجرائد والكتب، دلف إلى الممر الضيق الذي يشق قلب التلة، شاهد ولداً صغيراً، وفتاة وسيمة يجولان بين الأشجار، قال: لقد وصل الضيوف إذن. تساءل: هل عليّ أن أتهيأ؟ نعم، نعم، لكن ماذا عليّ أن أفعل؟ بعد برهة من الزمن جاءه الجواب الحاسم في صيغة سؤال بارد: لماذا؟ يقترب من درج البيت، أسمع: لم لا تراقب نفسك وتري كيف يتم الأمر؟ قبل أن يتلفت في الاتجاهات ويصعد إلى أول درجة. هتفت السيدة: آه، يا للزمن! كيف أنت؟ قبضت على يده، بدا تائهاً في المجال. قال: أولادك رائعين. قالت ساخرة مستفزة: أولادي فقط يا رجل؟ قال: بل كل شيء يا عزيزتي. ثم ماذا بعد؟مضت الساعات في الحديث والذكريات، تختلق المساحة الخالية لتكون أكثر قرباً، مازالت وسيمة وفاتنة، مازالت ضحكتها المشروخة تشرق في حقل من دلال.

لمَ لمْ يدركها الزمن مثلنا؟ و حين تيقنت أن الأشجار قد ضربت عليهما سياجاً من الكتمان، رفعت يدها وأحاطت بها الكتف المائل قليلاً، توقف برهة، ظن أنه يبتسم، عاود السير إلى جوارها، بعد خطوات قليلة أوقفته بجذبة يد خفيفة: إيه، إيه يا أنت؟ ماذا حدث بالضبط؟ ألا تراني؟ أنا لمي؟ هل تذكرها؟ بدا كصبي وقع في ورطة، بماذا يجيب، آه، كيف أنسي؟ أنت لمي، وأنا هو أنا، لم يحدث شيء، الأمر أنني لا أعرف كيف أشرح لكِ، تميل بوجهها ناحية الزوال الذي اكتنف وجهه، يحس بالأنفاس الحارة، كانت

fb/mashro3pdf

نظراتها توخزه، إنها لمي، يتذكر، لكن أين هو؟ قدم تندس بين ساقيه، ماذا أفعل؟ يريد أو لا يريد؟ عليه أن يعرف أولاً، فاشلاً رائعاً صرت يا صديق، لكن لماذا؟ منذ متى كنت تسأل عن هذا السخف؟ خجل من النداء الصارخ والعجز التام، خطر له أنه قد نجا من درب لا يهب لعابريه غير المزيد من الظمأ، الله الله، تكاد أن تطير من على الأرض يا شيخ! ربما ستذهب راضياً وقبل أن تنام في ساعة الليل الأخيرة ستعيد مشاهدة الشريط كاملاً، لن تكون وحيداً بالطبع، سيشاهده أيضاً من لا يغيب ليلة واحدة عن مراجعة الشرائط كلها، ستعرف أنك فزت بالقليل لكنك لم تخسر المزيد، الله أيضاً شاهد كل شيء كالعادة، وفي كل الأحوال لن تذهب في الصباح البارد للاستحمام أو التقيؤ، سترحم الذاكرة الهرمة من مزيد من أحمال لا تستحق الحمل! غنائم بلا حصر، لمي! لماذا لم تعرف بعد أسباب العطل؟ لا يتغير الناس طواعية. هي تبحث عن لحظة مستعادة،وهو كذلك كان يبحث عن لحظة لا تموت، لا تريد أن تموت، حتى وإن بدت للناس أنها غارقة في الموت، لكن منذ متى كان الناس يرون ما يراه؟ والوردة الحمراء التي لم تفارق يدها قط، ماذا عساها أن تفعل يا لمي؟ إن القبور ليست في حاجة إلى ورود بل إلى رحمات واسعة. النساء لا ينسون، الرجال وحدهم قادرون على الغرق، وعلى دخان سيجارتها الحمراء يقطعان المساء المثقل بالرغبات والظنون، يعودان خطوة خطوة. فائزان؟ خاسران؟ ماذا يهم؟ همست: لم يبق منك إلا

fb/mashro3pdf

هيكل قديم، يا للخسارة! أجاب بوقار: أحياناً أكون جميلاً، حن إلى ابتسامة نائية، وجدها على زاوية فمه اليابس فابتسم. لكن ماذا تفعل بجسدك حين يشتعل؟ لا تقل لي أنك ميت. يضحك، يضحك حتى تشعر لمي بالخجل من سؤالها الدنيء. حين أشتعل؟ رغبتي؟ إنها تمضي فاترة قديمة، هي الأخرى تنتظر.

ضحكت بمرارة: أنت تكذب، دعني أري. عاود الضحك الحزين: ماذا تودين أن تري؟ لا، لم أقصد الزهد والعفاف، لن يصدقني أحد، فلقد مضي الذئب بشهرة التاريخ، فيما هو في الحقيقة يتعرض لما تتعرض له أدني الحشرات، لا، لا، قلت من قبل، هناك عطل ما، مراكز تعطلت، جربت مئات المرات، هيأت نفسي لأدني اشتعال، ألقيت بنفسي كالبضاعة المشاع في كل الحوانيت، استدعيت الماضي بأقذر التفاصيل، هل تعرفين ماذا حدث؟ قالت ليّ «السناء ": لا حول ولا قوة إلا بالله، ترحمت ومضت، لولا أيضاً لا تحب المرضى، «ريري»تزوجت من أمام مسجد وقالت: لا فائدة، فتيات صغيرات ركضن في مروج الحقل حتى إذا أدركهن الليل فزعن من الغابة وعويلها، صرت كالحديقة العامة، لا أبواب ولا حراس، لا شيء، لا شيء، تلوث هواء الأيام أكثر، لم يعلق في صدر السفينة حتى طحلب ماء، آه يا لمى.

قالت:أخيراً أصاب اليأس هدفه، فهمت. أجاب راسخاً: اليأس مازال بعيداً يا لمي، مازلت ألهو، واليائسين لا يعرفون اللهو، مازلت عازماً على الحياة، نعم بلا طموح، نعم بلا أشياء كثيرة، لكنني هنا، لن

fb/mashro3pdf

أفر. قالت ـ و كأنها تسحب الكلمات من بئر عميق ـ : قلت لي من قبل أن في الحياة دائماً ما يستحق. نعم يا سيدتي، دائماً كان فيها ما يستحق، حتى وإن صار بعيداً عن متناول أيدينا. أطبقت بكفيها على جانبي رأسه، قبلته بغتة على شفتيه، وانتظرت. ماذا لو بادلها قبلة مماثلة وبلا انتظار أيضاً؟ لا نار هناك ولا دخان، لا مجال للمقارنة بين قرون الزمن، فرت الاستثارة إلى أعماق نائية، تشتت القلب فضاعت عزائمه، أصابته خالدة في كل مراكزه، هي ليست ميتة، وإلا من يفعل به كل هذا؟ وهو لا يقاوم هجوم الليل، لا يريد أن ينسى، لماذا وكل البدائل تدفعه للأمام في دربه المفرد الوحيد؟ من دفء خالدة كان يسعى ليدثر كل المرتعشين في صقيع الحياة، الآن أيضاً من غيابها يأخذ ما يكفيه من الصمت لينثره على المارقين في شوارع الحياة، ليعودوا قبوراً بلا معني. تسأل لمى: وماذا بعد؟ يرفع حاجبيه ويمضي، صوبا خطويهما تجاه المنزل صامتين، أمام ساحة البيت زحام، أطفال وشباب صغار، دس نفسه في قلب الحشد. قال في نفسه: هذا أفضل، حين يتوزع الثقل على أطراف كثيرة يسهل حمله، في بوتقة الألوان هذه، من سيبحث عن لوني؟ آه، هذا أفضل، أفضل بكثير، فيما ظلت لمى جالسة أمام حديقة النعناع، تلهو بأوراقها الخضراء العريضة، تمضغ أحياناً ورقات أو ترفعها إلى أنفها الدقيق ثم تنظر صوبه في حيرة واسعة. ما الذي جري له بالضبط؟ قالت عيناها و هي تنظر إلى نفسها: أم أني ما عدت لائقة لاستثارة رجل كان يطير

fb/mashro3pdf

من نصف ابتسامة؟ وعندما تلتقي عيونهما فجأة، تغوص عيناها في جذوره بحثاً عن ولع قديم، تنفخ في رماد اللحظات العاتية، فيما يفر بعيونه إلى الجدار الملاصق: آه، أنتِ، أنتِ، عما قليل تبسط له يديها من الجدار الصامت فينطلق إليهما مذعوراً، مرتجفاً، ببطء وحذر، ببطء وحذر، تغادر الجدار وتهبط إلى الأريكة الخضراء، فيزحف سريعاً كطفل لاقى أمه بعد طول غياب، يدس أنفه الراشح وعينه الذابلة في فناء فستانها الأزرق المجدول من قطيفة ناعمة، يرفع ذيل الفستان إلى أعلى قليلاً، يشتم عبير روحه المسلوب، يلصق فمه على نبض الساقين البرعمين، يغرز أصابعه القذرة في الماعون الطاهر ويبكي: أمي أمي، خالدة خالدة، فيما يعاوده السكون شيئاً فشيئاً، تطاله الأيدي الناعمة الرحيمة، تمسح شعره الخشن الصغير، تفرك أذنيه، تمسد الجبهة المشتعلة، تربت على ضفتين من شوك وعناء، يرفع عينيه ولا ينطق، هو الليل جاء: قالت له، لا تلهو بعيداً عن البيت، لا تعرض صدرك الخفيف للرياح الباردة، هز رأسه بالموافقة، سحبته من يده الخشنة إلى سريره القديم، شدت الغطاء حتى رأسه وظلت تتمتم بالهديل حتى غالبه النعاس، فيما كان أخر ما تبقى من وعيه الخافت صعودها الرقيق إلى برواز خشبي في الجدار المقابل. هنا سأبقي: قالت، أنظر أليك، لا تخف، نم عميقاً، وأعمل كما تحب.

رجع الغرباء إلى منازلهم، لم يشعر بهم، فيما أشرق عليه صبح اليوم التالي، تحسس نفسه، شعر بالبلل على وسادته، رائحة الروح

fb/mashro3pdf

التي لا تغيب، أثار الأصابع على رأسه وجسده، حدق في الجدار، أومأت إليه: نعم، أنا معك، لا تخف، لا تخف يا صغيري.

fb/mashro3pdf

في كومة أوراق قديمة وجد مزق من أوراق صفراء شبه بالية، ربما كانت رسائل قديمة غير مذيلة بتوقيع، ولا تحمل تاريخاً، ربما كان هو كاتبها ولم يعد يتعرف على حروفه القديمة، لو صح ذلك فإنه ضائع حتى عن نفسه، جلس على الأرض وتلى بصوت خافت من الورقة الأولى:

(أكره الأقلام الجافة، إنها لا تسيل معي، تحتاج إلى مجهود إضافي أفتقده، كما أن لونها يشبه سماء كاذبة، ليس بديل عن الحبر الأسود، إنه واضح و جليّ، هل أنا واضح و جليّ؟ هل ملابس النساء الداخلية السوداء واضحة و جلية، لا أعرف، الأسود عميق و ثقيل، شهواني و معبر، أنا الأسود)

قال: كأنني أنا، لكنني كبرت بما فيه الكفاية.

ورقة ثانية مجذوذة الأطراف:

(الخمر، هل أفادك الخمر يا سيد بيسوا؟ هل كان عدلاً أن تقايض كبدك بكأس من النسيان؟ هل ثوب الطمأنينة واسع حتى هذا الحد، من فروة رأسك حتى أخمص قدميك؟)

دب الرعب في نبضات ساكنة: متى عرفت بيسوا بالضبط؟ لماذا يتشابه الغرباء دائماً؟ ومثل اللحم الذي يتشكل في بدن الإنسان تتشكل مفرداته كذلك، اللغة ليست معرفة وحسب إنها جزء من هيكل التكوين كلون البشرة وبصمة الأصابع، وحين تراقب لغتك جيداً تعرف بالضبط إلى أين وصلت.

fb/mashro3pdf

ورقة ثالثة وحزينة: (ستبقى لأن الغبار خالد، لا يعرف الغبار أكثر من مواقيت الهبوب، بموت الأمل يموت الحزن أيضاً، أغبياء، وأنت لن تحب الأغبياء أبداً).

هذه الأوراق من أين جاءت؟ حقائق جرت أم نبوءات لدم كان يحدق في الغيب؟ هاأنذا في تلة الذئب مزارع صغير، لكن هذه القصاصة قديمة، قديمة:

(أن تزرع يعني أن تلتصق بالأرض أكثر وأكثر، ولأنها أمك الأولى، لأنك أيضاً ما عدت تطيق مزيداً من اليتم! أووه يا أمي).

(لست سيئاً إلى هذا الحد، إنما لا أحد يستظل بشجرة عارية). نعم، نعم. (صغيرة و جميلة، تصدق أنني أحب الشذى فتطير). صغيرة كانت خالدة، صغيرة على أن تموت، و بلهاء لكي تصدقني.

(عارياً أو مسلحاً، في الظلام، غير جوهري). هل هذا صحيح؟ ما شأني أنا؟

(ما أعطانيه أحبابي الحقيقيون، وهبته لأحبابي الحقيقيين، ما فرطت في الحساب من شيء، ولم أعرف الادخار في حياتي قط).

كأنه أنا، عاود الشك والريبة بين كومة الأوراق، قام من جلسته على الأرض وانحدر صوب الفسيح من وادي الرمال، وقف يشتم رائحة الهواء، تلفت حواليه وعاد إلـى روحـه المنسدلة كليل بلا نهاية: إذا كان العذاب قديم وهو كذلك بالفعل، ما جدوى النبش في الجراح؟ أسرع، أسرع يا ولدي الخطو، لا تقرأ شيئاً مما كان، دع قليلاً من الطاقة لبلوغ النهايات، أسرع، أسرع.

fb/mashro3pdf

-١٣-

كانت الأرض في ذلك الزمان شبه عاصية ومتوحدة، صفراء وحارة، ليس غير أشجار الخروع بأوراقها الخضراء الكبيرة والثمار ذات الشوك الطري تتعلق في أغصانها الرخوة، لا ظلال هناك تأوي من حر الشمس أو مأوي لبشر، فيما كان التل الطيني تعلوه شجرتا أثل وارفتين غامرتين كبقعة رمادية كبيرة، وفي فصل القيظ، حين تجف الثمار على الأغصان يتم جمعها في أجولة من خيش ونشرها في جرن دائري على مساحة صلبة من الأرض حتى تقوم الشمس بمزيد من الكي ولا يبقى غير البذرة المزركشة، تُجمع ويتم بيعها بسعر رخيص، إنهم يعصرونه هناك، زيت الخروع ذو فوائد عديدة هكذا قالوا، لكن في كل مرة يهم الشيخ فيها بمغادرة المكان لأمر ما فأنه لا ينسى أن يقول: حذار أن تذهب البهيمة لتأكل من أوراق الخروع أو ثماره، هذا قاتل للحيوان ذي الظفر، ومرة أخرى يكرر الأمر: إياك أن تذهب إلى هناك، هل تفهم؟ ويشير بيده إلى حيث التل الطيني وشجرتا الأثل في أقصى ركن من الأرض الجرداء، وبعد أن يذهب بقليل تعود للطفولة حريتها، قال الراعي: نريد حطباً يابساً لإنضاج غذائنا، لنذهب إلى التلة ونعود به من هناك قبل أن يعود الشيخ، لا لوم على الصغار حين يفعلون ما يروق لهم، وهناك في مواجهة التل وشجرات الأثل يحملون معهم فؤوساً صغيرة و حادة، يدقونها أسفل الشجرتين ليستخرجوا كتلاً صغيرة من الحطب اليابس، مرة ومرتين، وثلاثة،

fb/mashro3pdf

فجأة يقبض الراعي على الولد الصغير في صدره ويكف عن الحركة، بدا وكأنه تجمد في هذا الوضع، همس للولد: لا تتحرك، هو الذئب، بين مكان أقدامهما والرأس الأحمر الذي خرج مؤخراً من جحر أسفل الشجرات أمتار قليلة، قال الراعي: لو نتحرك خطوة واحدة انتهينا، تسمرا في التراب والعرق الناضح من جُهد ورعب، فيما تجمعت كل الحواس لديهما في عيون تكاد تجف من الروع، كان أحمراً جميلاً،شاحباً وراسخاً في مكانه بلا وجل،عينان كفوهتي بندقية، صلبة وحادة، نافذة ومستقيمة، من أين يتشح بكل تلك الجسارة؟ صوب رأسه في الجهات الأربع، لحظة كالبرق، ثم استدار هادئاً صاعداً درب الكثبان الرملية العاليـة، متمهلاً وواثقاً، وهما لم يتحركا بعد، غارقان في انتظار قرار السيد الأحمر، فجأةً دوّى صهيل شق السكون،عاد الشيخ ولم يجد الصبي حيث أمر، اقتفى أثره على الرمل الساكن، توجس منه القلب وتتبع الخطو الصغير، امتطى الحمراء عارية وانطلق بمحاذاة الأثر، وكلما غمز أقدامه في جنبيها أزت بصهيل العارف أن في الأمر شيئاً، حين التفتا باتجاه الصوت كانت الحمراء تنهب الأرض بحوافرها وتقترب، فيما كان السيد الأحمر قد عقد العزم على الإسراع بالرحيل، وقف الصبي مُعَّلقا بين يدي الشيخ الذي انتزعه من الأرض وجذبه إلى ظهر المهر، حدق في امتداد الكثيب، كان السيد الأحمر قد صعد الذروة الأخيرة، ومال إلى حيث كل امرئ على وجه البسيطة يعرف مأواه.

fb/mashro3pdf

إن ما يكتب في ذاكرة خضراء لا يُمحى، حتى الأرض الصفراء الخشنة تطالها يد الزمن، سنوات من الفيض وتقرر الحكومة مشروعاً لتقسيم هذه الأرض البور، مغمورة بالماء والأمل، يحصل الشيخ على مساحة صغيرة منها، رابطاً بين ما كان وما سيكون، فقط لا ينسى أن يضم إلى هذه المساحة التل الطيني وشجرتي الأثل الغامرتين.

fb/mashro3pdf

إن لم يأت النصر من عند الله فهو آتٍ من الشرق

ـ من ناحية الأناضول ـ قال الحموش و هو ينظر إلى سماء لا تكف عن الأزيز، فيما كانت تتدفق على السكك الطويلة أرتال السيارات الصفراء وجنود بلا حصر، يتحلق الناس في دوائر صغيرة حول صوت أجش عميق يبشر بالنصر والكرامة، كلمات كبيرة تكاد تصنع لهؤلاء الفقراء أجنحة يحلقون بها في سماء فقرهم المتوارث، إنها الحرب إذن، وفي لحم الزمان الطري يكتب الأطفال رسائل للجنود البواسل في أرض اليمن، يحفظون كآيات الذكر أغنيات الثورة وتعليمات الميثاق البليغ، هل يمكن أن يكذب الحلم أيضاً؟

تكبر شجرات الزيتون في التلة حتى لتكاد تطال قامة الرجل، روائح الزعتر تفوح من الأفواه والملابس، هذه بلاد من الحجر الصوان والشمس اللافحة، بين صباح يهل ومساء يرحل يفيق النائمون من رغد الحلم على اسم آخر، وجيش آخر، ولغة أخرى تتمطى في شوارع البلدة، قيل أن ما حدث كان خطأ صغيراً، مجرد حُلم تهاوى، لكن حركة الأرض والناس مقرونة بتلك الأخطاء التي لا تفسر! ها هنا، قالت الأم: لا تركض في الشوارع هكذا، ألا تعرف ما جرى؟ في الحقيقة لا، لم يعرف بالضبط، ولن يعرف قبل أمد من الزمن، صار يفر خلف الشيخ في أقطار الأرض التي صارت محتلة، تحوط الأخطار بكل الخطوات حتى ولو كانت بريئة، يبدأ النزوح

fb/mashro3pdf

في اتجاه الغرب، قال الولد: لماذا؟ ومتى يعودون إذن؟ جاوبه الشيخ: ربما شهران أو ثلاثة، إنهم يتذكرون من سابق التاريخ المترع بتلك الأخطاء الصغيرة.

وفيما كانت فرس السيوي الحمراء تجول المزارع بلا لجام وعارية، تأخذ كفايتها من الطعام لينفق وقتاً طويلاً بعد ذلك للأحتيال للإمساك بها، قالوا أن عمر ابن هنيه وُجد قتيلاً بالأمس على جسر الوادي، قيل أن ابن الحمدان قد ألصقته الرصاصات الغادرة على جدار بيته الطيني، في كل يوم رواية من هذا النوع، جفلت الأم من قفزات الولد الذي لا يكف عن الركض، وفي الأودية الشرقية من صحراء البلدة كان الشيخ يجمع بذور البطيخ ويربي ماشية وفيرة، قال له: ابق معي، هنا أكثر أماناً من الشوارع، وفي ظهيرة حمراء أحاطت بعريش الشيخ عربة جنود هبط منها رجال غرباء، تساءل: كيف يصلون إلى هذه المناطق النائية؟ كانوا يبحثون عن أسلحة وجنود مختبئين، وقبل أن يقوموا بحفر الأرض المحيطة بعريش الشيخ، ناول الشيخ صُرة المال للصبي الذي دسها بين القميص واللحم، انفلت وراء الجمع باتجاه الناقة التي كانت مقيدة خارج حيز العريش وأسفل صندوق طعامها دس الصرة وعاد ليقف وراء الشيخ، لم يجد الغرباء جنوداً أو أسلحة، قالوا: سنعود بين وقت وآخر، كانت الصحراء مستباحة، وقبل ذلك كان الموت قد أرسى أركانه في الجزيرة الشاغرة، وحين غادروا المكان ذهب الصبي وعاد بالصرة التي تحتوي على مال الشيخ وقدمها إليه، تفحصه الشيخ

fb/mashro3pdf

بعيني خبير: تعرف يا ولدي، أنت ذئب والله، وفي غروب الشمس من ذلك النهار كان قد وصل إلى منزله بالبلدة، أعطى الأمانة للأم التي لم تهتم كثيراً إلا بالسؤال: حزين أبوك، كيف طاوعه قلبه على إرسالك في هذا الليل ووسط هذه الظروف؟ والله لا يرحم أحداً، كبيراً أو صغيراً، في صدر الأم تنفس روائح الخبز والسِعّد، قال: أتعرفين يا أمي ماذا قال لي؟ قال: أنت ذئب، صرخت الأم: لا، أنت ولدي وحسب، لن تعود إليه، قد يقتلك هذا الرجل!

وفيما بعد كانت أربعة أشهر زمناً كافياً ليصدق الشيخ هواجس الأم المرتعبة: لابد أن يسافر هذا الولد، ألا تخاف عليه؟ قال: تعلمين أني لا أطيق فراقه، قالت: مستقبله يا شيخ، يعود للدراسة هناك، قال: ما نفع الدراسة وما حاجتنا إليها؟ قالت: هما شهران أو ثلاثة كما تقول، تزول الغمة إن شاء الله، ويكون في مأمن هناك، التفت الشيخ للصبي، قال: تسافر يا ولدي؟ أجاب الولد بلا معرفة: كما تشاء، وفي صباح ثلاثاء قديم من أكتوبر شائخ ربطت الأم في منديل أبيض صغير عشرون جنيهاً كاملة، أوصله الشيخ إلى ميدان السفر وقبل أن يصعد مع غرباء كثيرين درجات السيارة الكبيرة ضمه الشيخ إلى صدره فغب الصبي رائحة الأرض والمودة، انفلت سريعاً من الصدر الشامخ غير سعيد وغير حزين، ربما ما كان ليعرف لهذه الأشياء من معنى، وقبل أن يغيب في رماد العرق وغموض الوحدة الناشئة أدار عنقه الصغير حيث كان الشيخ لم يزل واقفاً مستنداً إلى عصاه الحمراء الداكنة، شرب الصبي المشهد

fb/mashro3pdf

كاملاً، تجمع في لحظة كالدهر، خمسة عشر عاماً أو أقل قليلاً، وغادر بها مدعوماً بتفاصيل لا تحصى، وعشرين جنيهاً كاملة في منديل أبيض صغير لم يفارقه سنوات وسنوات، ونبؤه طيبة بأنه سيعود قبل أن يتسنى له إنفاق العشرين جنيه، وصوتاً يشق زحام الساحة الغاصة بالناس: لا تنس يا ولدي، أنت ذئب، لكن سيظل عمراً طويلاً يسأل فيما بعد: هل يمكن للذئاب أن تنسى؟

fb/mashro3pdf

كل شيء يتغير فيما عدا الزمن يبقى صبياً غضاً، ربما لأنه بلا ذاكرة، لأنه يحترف النسيان، وفيما عداه فإن كل شيء ستدركه الشيخوخة، التي هي في الأصل أصابع الزمن، الزمن الذي يبدو كسفينة بلانهاية، لا تذوب ولا تغرق، لا يضيرها من هبط أومن صعد، من بقى أو من رحل، تبدأ من هنا، من هناك، من أي نقطة على الأرض (وكل ما في الوجود محض نقاط متناثرة) حتى تصل إلى الكف القابضة على أصل الخيط: الله، هناك فقط ينتهي الزمن لأن الله العظيم لا يرضى أن يقترن بشيء حتى ولو كان هذا الطويل المُلقى تحت كرسيه الخالد، نحن نكره الزمن لأنه يناقضنا، فنحن نمضي فيما هو باق، هو ينسى ونحن لا نستطيع، نحن نشيخ ونذبل فيما هو لا زمن آخر يدركه، المهم أنك ستنام الليلة ها هنا، أليس كذلك؟ هذا أمر مفروغ منه.

محطة القطار تبدو فارغة، يا بني لا محطة هنا ولا قطار، أنت تهوّل الأمر، ربما من قسوة الوحدة، ما عليك سوى أن تضع رأسك وتذهب في النوم، حاول، لن تخسر شيئا. أخسر؟ قد أخسر السبات العميق! تصوّر لو أنك في حالة يقظة دائمة! هذا هو الجنون، ريح تعصف بالأبواب، هى الريح فلماذا القلق؟ لكن الأغنام في حظيرتها لا تكف عن الثغاء، كلاب تمزق أوتارها من النباح، طيور تملأ سواد الليل بأصواتها المتناقضة، هذه بوادر كابوس ثقيل، لكن كيف وأنت جالس تتجرع نبيذ الفقراء (شايك الأحمر) لا، الريح، الريح،

fb/mashro3pdf

تباً للريح ماذا أفعل؟ متشحاً برداء صوفي ثقيل وغطاء رأس أسود حتى أذنيه، يقف متثاقلاً، سيغلق الأبواب جيداً لكن ماذا بوسعه أن يفعل لصوت الريح؟ قبالة الباب من الداخل يقبض على مزلاج الباب الداخلي، يشم رائحة موغلة في القدم، لا يمكن وصف الروائح بدقة، شيء من الرمل النافذ، وشذى الأثل المحروق وفيما هو يجذب الباب ليعاود إغلاقه بإحكام، رآه ممدداً على الدرجة الثالثة من العتبات الطويلة، باسطاً يديه العاريتين، يا الله: تمتم في رعب، ما هذا بالضبط؟ لم يفتح الباب بكاملة بعد، لم يعاود إغلاقه كما كان يسعي، في هذا الليل العاري، العاري حتى من غطاء رحيم، من نجمة كبيرة تضئ غموض اللحظة، أدائما يلقي المرء هذه اللحظات وحيداً؟ تجحظ عيناه مجدداً، ربما كانت الهلاوس، آه، حتى من قبل أن تراه وأنت تظن ما لا وجود له، لكنه هو هو، رمادياً شاحباً، هزيلاً وصامتاً، شعر خفيف يتناثر فوق قبة الرأس وحول العنق الصلب، فيما القدمين أجردتان، ممسوح جلدهما من اللون والشعر، إنه هو، هو بلا ريب، حتى الذئاب يدركها الزمن! كل شئ تغير، هذا يقين، فقط عيناه نار ذائبة في أعماق قاصية جداً. رفع الذئب عينيه باتجاه الباب الذي فتح تواً، حدق في الماثل وراء الباب بدهشة ساكنة، هز عنقه باستكانة كأنه يقول: ألا تزال خائفاً؟ أجاب الصافي دونما صوت: لا، الخوف لا، حتى إنك لا تغري بالخوف الآن، أشار برأسه إلى الدرجة الخاوية من العتبة: هنا؟ أجلس في هذا الريح العاصف؟ لما لا تدخل أنت؟ انتصب على

fb/mashro3pdf

قوائمه وديعاً واثقاً، تطاول بجسده هادئاً وقوراً ودلف من الباب إلى داخل البهو، وحين صادف أول فراش ملقي على الأرض من سجاد قديم تمدد فوقه، هكذا أفضل، لازالت عيناه تسيل على وجه حاد وصارم، هل يمكن للذئاب أن تبكي؟ قال وهو يربت على الظهر الناحل: هون عليك يا أخي، عاود هز رأسه وقال: هبطت التلة مرتين في ذلك الزمن البائد، ما وجدت شيئاً يستحق. أجاب الصافي: كنت مهاجراً. أجاب السيد الأحمر: وأنا أيضاً تجولت كثيراً في الأرض. تساءل الصافي: وما الذي عاد بك الليلة إلى هنا؟ قال الأحمر: أنا لا أعرف، ربما لا أحد يعرف لماذا يذهب إلى هناك أو يجئ إلى هنا، فقط تجذبني الرائحة فأمضي.

قال الصافي: لقد تغيرت كثيراً؟ نعم، كل شئ يتغير، لكنني رغم الأهوال التي رأيت، صوت الرصاص الذي ينام في أذني، المطاردة، الليل، فقد القرين، الجحور اللينة الدافئة، القبيلة والعنفوان، مراتع الغزلان والينابيع، كل شئ، غير أنني لست بحزين، نحن لا نعرف الحزن القاصم، علينا أن نكون دائماً على أهبة، حتى أنت أيضاً تغيرت. أجاب الصافي باسماً: أنا؟ أنا مثلك يا رفيق، عدت إلى التلة مدفوعاً بالرائحة، وعليَّ أيضا أن أكون على أهبة، ماذا تبقي لنا؟ تساءل. أجاب السيد الأحمر واثقاً: الهواء، يجب أن نتنفس ما هو مخصص لنا من الهواء، تبقى لنا شيئاً من وبر الزمن علينا أن نتدثر به، أن نمضي في هدوء وسلام، ذلك ما عجزنا طوال حياتنا عن الوصول إليه، ها نحن نلقاه هنا في التلة، غير أنني عائد قبل

fb/mashro3pdf

انبلاج الصبح. هتف الصافي محتجاً: لماذا بربك عليك أن تعود؟ كن شريكي ها هنا، التلة تسعنا معاً. أجاب الأحمر: لا، لي نقطة لا أحيد عنها، ثم الناس يا رفيق ليس عندهم للذئاب سوى الرصاص. قال الصافي: سأصنع لك مخبئاً لا يراه ولا يعرفه أحد، ستكون في مأمن ونكون معاً. قال الأحمر: لا أريد أن أموت مختبئاً، هذا ظلم لا يطاق، في الريح والخلاء ذلك أفضل بكثير، أجف تحت الشمس حتى أصير حجر صوان. ابق معي، أرجوك: قال الصافي. بل أبق مع نفسك: قال الأحمر، وأنا مثلك مع نفسي، نحن لا نقترن بغير ذواتنا، لن نطيق أثواباً بديلة، ولن يطيقنا الآخرون، وحين دلف الصافي إلى داخل حجرات المنزل ليحضر قليلاً من الطعام والماء للضيف، تلفت السيد الأحمر في أرجاء البيت، لم يكن هناك أحد، نهض خفيفاً وسحب خشب الباب بيده اليمنى وصار على مشارف العراء القديم، كانت الماشية لم تزل في رعب الرائحة الماثلة، مد عنقه باتجاه الأصوات المرتعبة، و قال: لا تخافي، سئمت من الصيد والقنص، صار الهواء يشبعني، ثم أنني في دار صديق، لا تخافي. عاد الصافي بعد برهة قليلة من الوقت، وجد المكان خالياً دافئاً، والرائحة الحمراء المعجونة بالرمل النافر، وشذى الأثل المحروق تعبق في المكان المحاصر بالفراغ والوحدة، فيما سكنت الأصوات الزاعقة هنا وهناك، وعاد الليل واسعاً يلقي بعباءته السوداء على جميع الكائنات، تلفت الصافي فلم يجد غير رقاً بالياً من جلد عتيق، كان مطويا بعناية و مدسوسا تحت الفراش الذي كان

fb/mashro3pdf

الأحمر يتربع عليه، فتح الرق بحذر: يا الله، أهذا ما تركته لي يا صديق، حتى أنت تكتب الشعر!

fb/mashro3pdf

(من قصائد الذئب)

آه نعم، أنا الذئب ابن الذئب
عدت إلى نفسي سريعا، لا فائدة من التنكر
سأهجم حين أجوع، و أهجع عند الرضا
لن يفارقني حذري قط، و لن أغمض عيني أبداً
لتأتي القطعان أو تذهب، لا شأن لي بالأسباب
القانون هو القانون، و لا عذر لغافل
لن تصير الغزالة أختي، و لا الفيل أخي
و إذا مضينا معاً، فكل يعرف وجهته
لي وجري، و للطير وكره، و للأسد عرينه
المدى مستقيم، العلاقة واضحة، و لكل ميراثه
النجوم تلمع في السماء، العشب يزين الأرض
أضاجع و أنسى، أمر كالهواء خفيفاً و سريعاً
أفعل ما تشاء رغبتي، و أبتلع اللحظة كاملة
لا مرارة عندي للذكريات، و لا أعرف ما الخوف
أفسد حين أنظر خارج مداري
و لا أعلق دمي في عنق أخر
أنا مصيري و حسب
أنا الذئب، آه، و القانون هو القانون
و لن أنسى.

fb/mashro3pdf

إن الجمر الناتج من حطب الزيتون جيد: قال الشهال وهو يتحلق حول الموقد الغاص بالجمرات. إنها شجرة مباركة: أجاب الصافي. كان المساء وحيداً حتى ظن الصافي أن العالم على وشك الانتهاء: هل تعرف يا شهال ماذا قال الشيوخ الكبار؟ رد الشهال: أنت مأزوم هذه الليلة. أجابه الصافي: قل ما شئت لكنني سأقول ما أريد، أنظر أنت معي، هنا في تلة الذئب، إنني أحاول أن أتطهر، أعيد صياغة ما بقي لي من أيام، يحتاج الأمر إلى بعض الصلابة، لا بأس، سأخلع كل ما زرع الآباء، شاخت الأشجار يا أخي، صارت الأرض كالحة، وأنا أنظر إليها أكاد أبكي، لا تنسى، أنت في غمرات الحب تصرخ، ما أشهي صراخ الحب، سأخلع عمري القديم، أحرقه، أقلب القاع على الأطراف، أحطم الجذوع العتيدة لتغدو الأرض عذراء بيضاء، سأكتب فيها ما شئت من جديد، الناس تنسى، الأرض لا، سأرسم مرة أخرى خارطة الأيام، سأزرع حبي وشهواتي شجراً عامراً بالطفولة والحياة، سأسمي صفاً منها باسم الشيخ، وصفاً أخر باسم الأم المباركة، أما باقي الصفوف يا شهال فأسميها خالدة. خالدة. خالدة، ولن أطبع اسمي حتى على واحدة منها، أنا لا أترك اسمي في العادة إلا مرغماً، وبعد فوات الأوان، بعد زمن لا أعرف متى يأتي أو يحل، تري من سيقف مكاني هنا؟ في تلة الذئب، من سيعرف ما جري؟ من سيقول: كان هنا ذئب عجوز، أمتلك الكل، وفقد الكل، لا ثأر له أو خصومة مع أحد، ركض كثيراً حتى

fb/mashro3pdf

أدرك الجائزة الكبرى فإذا بها لا شئ! لم يغضب، عرف الأشياء على طريقته، ومضي خفيفاً بلا حقائب، السفر، السفر ألم يكن حلم العمر القديم؟ سافر ولم يسافر، رأى ولم ير، خالدة، الشيخ، الأرض، ايه يا شهال، كأنني شربت خمر الدنيا بأسرها ومازلت في عذاب الوعي أجول. خالدة خالدة، وماذا تسمي الأخريات إذن: سأل الشهال. أتظنه الحب؟ لا، هي اللحظة وحسب، اللحظة لا ترسخ فيّ يا شهال، إنه العبور السريع، القفز فوق الأشواك، تصور: أنا لا أتذوق الماء عذباً كان أو غير سائغ، القليل جداً يكفيني. قال الشهال: والذي تفعله معهن ماذا تسميه؟ تقصد ذلك الشيء: قال الصافي، إنه بعيد عن هذا الأمر، بعيد جداً يا سيد رغم أن الحب رافد من روافده، لكن المذاق، المعني، ما يظل مشتعلاً حتى وأنت في آتون المحرقة، لا، لا يا شهال، إنه بعيد وحسب.

(لو هتفت ألف مرة للحب، هل تصير عاشقا؟ الحب أن تموت).

يائساً أجاب الشهال: لا فائدة منك، و لا من أشعارك. رد الصافي: بل لا فائدة من شيء، وواصل التحديق في فراغات الغياب الخالدة.

fb/mashro3pdf

-١٧-

كيف كان سيكون مذاق الحياة لو لم تكن القهوة والتبغ؟ ماضياً في عصر أحد الأيام ليفترش ظلاً على حافة السياج الغربي للتلة: آه هنا. رقد إلى الأرض اللينة، واضطجع على يسراه، من هنا كان يمضي بعصاه، وهناك كانت تهبط العجوز، وخلف تلك البرتقالة قبّل خالدة من دهور سحيقة، متى يكف الوخز يا الله؟ متى يصير اليوم كافياً للحياة؟ بلا احتياج للأمس ولا حلم في الغد، لو يفاجئني النعاس، لكن كيف وغبار خفيف يمهد الدرب الشرقي لحركة طارئة، ربما كان عابر طريق، يولي وجهه للناحية الأخرى، لا شئ، كان الظل يقترب أسوداً نحيفاً يمضي على وتيرة واحدة، إنه في خط مستقيم وسيصل حتماً، الآن لم يبق إلا خطوات ويكون في مواجهته: من يكون هذا البدوي الضامر؟ ألا يشبه ذلك الرجل الشيخ العرار؟ وحين وقف قبالته وألقي السلام رد عليه التحية، جلس الرجل صامتاً، كأنك سلمان ابن الشيخ العرار: قال الصافي، تساءل باندهاش عميق، بفرحة بعيدة واهية، والرجل النحيف لما يزل صامتاً، لا يبل ظمأه بجواب أو حتى نظرة مودة، فجأة قبض الرجل على حفنة من تراب الأرض بين أصابعه، فركها بنعومة ويسر، فتح أصابعه النحيلة الجافة فتسرب الرمل من بينها، رمل أصفر ممزوج بالعذابات والرضا، رفع رأسه الساكن قليلاً فالتهمت عيناه ظل الصافي البارك أمامه مستنداً على جذع الشجرة، هيه يا أخي: أخيراً نطق الرجل، هيه يا أخي، استفهام قصير وحار، عاود

fb/mashro3pdf

السلمان صمته والتحديق في الرمل، بادله الصافي ذلك السكون العميق. أتدري: قال الرجل، فاجتمع الصافي على نفسه ينتظر المزيد: لقد أمرني أبي أن آتي إلى هنا وأراك وها أنا قد جئت.
قال الصافي مسحوقاً: أبيك يا سلمان؟ ألم؟ ثم دخل في متاهة الحيرة الواسعة.
أجاب الرجل: أعرف أنك تعرف أن أبي في الناحية الأخرى من الحياة، لكن عندنا لا فرق بين هنا وهناك، وحين يريد أن يأتي فهو يأتي، وحين يقول فهو يقول، القلب فقط يُصدّق أو لا، نحن لا نعرف مدار الارتياب، قال لي أن أراك وحسب ولقد رأيتك يا أخي، وهو يعرف ذلك أيضاً. ما معنى هذا يا سلمان: توسل الصافي الجواب، ألم يوصك بشيء لي، ألم يحملك رسالة؟ أي شئ؟ لقد كان يعرفني أكثر مني، كان ملاذاً يا سلمان، أتعرف؟ أشار الرجل بيده أن يكف: بل لا ملاذ لك، قال لي: أنه يدنو من مشارف العراء، وأنك لا تتبع إلا نفسك. نفسي؟ قال الصافي ساخراً: نفسي التي أتبعها عذاب مقيم والعراء هو العراء يا سلمان. رفع الرجل سبابته وقال: لم لا تبكِ مثلما كنت تفعل من قبل؟ لا حيلة لي: أجاب الصافي، جفت الينابيع، غير أن قلبي لا يكف عن البكاء، أبوك يعرف ما أقول. وأنا أعرف يا أخي: أجاب السلمان، نحن لا نضل السبيل، وحين يكتمل خروجك منها يبتدئ ولوجك فيها، لكن الصبر بعيد، والفائزون سكرى، ماذا بقي عندك غير التوق؟ انزعه، انزعه يا ولدي واسترح. ران الصمت على المكان، حدق الصافي في فراغ السديم

fb/mashro3pdf

وبدا كأنه يحادث نفسه الغارقة: هذا الصديد لا يكف عن الرشح، هذا الكائن حجر عثرة في الدرب، يقتلني الاشمئزاز حين تحيض، أكاد أقئ من كثرة ثقوبها، من تهدلها كالشجر الفاسد على أرصفة الشوارع، من رائحة التمرغ في كل الأحضان، سوسنة عاهرة، حصاة في الحلق، ضيقة ومحدودة، زوبعة تحطم الهدوء والسكينة، التوق؟ التوق يا سلمان له مطامح أخرى لا أعثر عليها أبداً. أبداً.

بل واهم أنت: قاطعه الرجل، ما كان يا ولدي لن يكون، لم لا تصدق؟ أعرف. أعرف يا سلمان، وأكابر الحقيقة لا أدري لماذا، قلت لأبيك من قبل أن في أعماقي فساد قديم. هه: برم الرجل، سيكتمل جمالك في تمام العمى! آه، العمى يا شيخ لم يبق سواه، لكنني أري. أكثر من كل الكائنات أري، تعذبني عيوني، عميت عن كثير من الأشياء، عميت عن الوقت، لكن هذه الملعونة، تبدو وكأنها أخر التسليات في دكان الحياة، فمتى ينغلق الباب يا شيخ؟ متى يكف ريح الوهم عن الهبوب؟ قال الرجل ساهماً: حين يأتي الأوان ستمتد إليك أيادي الأحباب فلا تري سواهم. لكنني خائف يا شيخ، ليس من شئ وليس على شيء، فقط خائف يا أخي، مسكون بالرعب، يا الله متى يزهر في قاع أسايّ يقينك؟ تمتد يد الرجل إلى الرأس المرتعد، يسكن الفوران في الدائرة النافرة، يهمس الرجل: ومتى كان يخاف الغرقى؟ أنت غريق لكنك عما قريب تطفو ولا تعرف الخوف. يعود الصافي ليكرر: التوق؟ سأقبض على عنق التوق قدر طاقتي. يقول الرجل مواسياً: و هن سيرحلن

fb/mashro3pdf

عنك، النساء لا تحب المقابر، هون عليك، ستمر، خذ قهوة يا شيخ، مره ومره ومرات، مُره صافيه، تدور في حلقي فأتسلى، رائحة الأرض والعمر في القهوة يا شيخ، لكن الرجل يهز أصبعه الطويل أن هذا يكفي، يمد السلمان يده إلى الصدر المفتوح قبالته، تجول اليد على منابت الصدر العاري عند ملتقي الضفتين، دق بأصبعه اليمنى دقات حتى ظن الصافي أن الأصبع يغوص في تربة لينة ويعصر عروقه اليابسة، بطيئاً يسحب الرجل يده، يعود ليمسح الرأس بأصابعه الخمس، سأعود، سأعود عند تمام الأمر: قال وبدا كأنه على وشك النهوض.متى يا سيدي؟ تساءل الصافي في لهفة. من يعرف يا أخي؟ أجاب السلمان: لكنني سأعود. بدت التلة والرجل يغادرها ساحة من الصمت المبارك، بدت الدروب كلها غير عابئة بشيء غير تتبع الغبار الأخضر الذي بدا بتكاثف في أثر خطوات الرجل الذاهب إلى اللاشيء،

وفي الطريق إلى جوف التلة تحلقت الغيوم على الرأس المنهك، نظر إلى أعلى، كانت النجوم على وشك الهبوط، أخذ لسان الليل يلهج باللحن، فيما غيمات أعلى صارت تستدير على هيئة قرص موزّع على فئات صغيرة، ورق أبيض ملفوف على هيئة أصابع الحلوى صار يتساقط ويلامس الأرض، كل ورقة حين تهوى تتفتح زهرة، فيما حروف بارزة تستوي على صفحات البرعم الغض، صار يميل في كل خطوة ليلتقط الأوراق، حدّق في الكلمات العجيبة، هل يضحك أم يبكي؟ صندوق الحظ هذا أم أوراق اليانصيب؟

fb/mashro3pdf

رومانسي موغل في الواقعية، واقعي على شفا الحلم، وجد آيات للشفاء، أخرى ضد القلق، حكمة من بوذا، مثل شعبي، ما هذا؟ قال وواصل الإنكباب على العمل، كانت الأوراق بعدد الخطوات، أخر خطوة قبل أن يلج الدار، هناك كانت الورقة الأخيرة، أمسك الورقة بين يديه وتوقف: أفتحها الآن أم أتركها هكذا؟ ماذا سيكون هناك؟ الأفضل أن تدسها في جيبك لوقت لاحق، ذلك سيترك لك زمناً ومساحة للظن، كفاك حقائق سخيفة، دلف إلى البهو الزجاجي على مشارف التلة، نظر إلى الأشجار المتراصة أمامه،كانت جميعها تنظر إلى الأرض بخجل، ساكنة وجلي، قال: غريب هذا الشيء. خرج مسرعاً ووقف أمام البيت، استدار من مكانه باتجاه زوايا الأرض الأربع، كان السكون يطغى بشكل مفاجئ، رفع عينيه إلى السماء، كان البدر يبدو قريباً حتى أنك لتستطيع أصابته بحجر، ربما تحت وطأة الضوء الباهر تغمض الأشجار عيونها، راق له التفسير الناعم، ابتسم وعاود النظر إلى السماء التي كانت تتمدد مجدداً على هيئة طرق مرصوفة، دروب من الحصى الأحمر، في ذيل الدرب يتصاعد دخان رمادي مائل للزرقة، الله الله: ردد لنفسه، ستقوم القيامة الآن أو ربما أصابك مس من خطاياك القديمة، أنت الذي تداعت قواك فنالك الوهم المريض، يا الله، خيمة زرقاء ساطعة أرخت بأطرافها على الأرض الهامـدة، فيما هو واقف في المنتصف لا يجد حتى متسعاً من الأرض ليجلس عليه، أهكذا، أهكذا تكون النهاية؟ لا، لن تكون هكذا أبداً، إذ أن نبوءة واحدة من العشرات التي

fb/mashro3pdf

قيلت من قبل لم تذكر هذا الوصف الغريب، أووه يا للحمق، هذا ليس أكثر من أثر العرار في فرارة البعيد، لكنهم لا يتركون أثراً في العادة، أنت أيضاً لن تترك أثراً، ستلاحقك الأساطير والأكاذيب حتى وأنت عديم النفع، وعما قليل سيهبط الليل، الليل الذي يسوي بين الأشياء، ليل الهذيان والشرود، الريح الذئبة والذكريات العنيدة، ربما يهبط من هذا الليل حلم وارف يجمع بين الأولين والآخرين، لا أعرف كيف، لكن في الحلم ما الذي يمنع من حدوث ذلك؟ وقبل أن يعود إلى البهو الزجاجي مرة أخرى دس يده في جيبه: آه الورقة، الورقة الأخيرة، افتح، افتح يا رجل، من أي شئ تخاف؟ إنها كلمات كباقي الكلمات، مجرد حروف صغيرة سوداء، يقرأ ما هو مسطور على ثنايا الأوراق: مقدمة.

ماذا تكون هذه المقدمة؟ أرسالة تكون؟ أم أنها تصلح لأن تكون شاهد قبر، يا الله، ما الذي يجري هنا؟

اقرأ، اقرأ يا رجل.

fb/mashro3pdf

مقدمة

الآن ستبتـدئ الرواية! لا بأس، كان عليّ أن أتقيأ هذا الحامض لأصفو، أنا صاف تماماً، سأتكلم من هنا، ربما من هناك، لكن في كل الأحوال من أخر نقطة على الأرض، هذه النقطة التي تعني لا شيء، مثلي تماماً لا شئ، مثلكم أيضاً.

ليس لدي في الحقيقة (التي لا أعرفها ولن أعرفها) طموح لشيء، حتى ولو في إدراككم لهذا المعني البسيط، منعزل على قدر الطاقة، هذا مفيد وضروري، لم تُكتب العزلة إلا على بعض الأشخاص الموعودين ولسبب ما غالباً ما تنتج هذه العزلـة أشيـاء غريبـة، كل ما هو خارج الإطار غريب، والغريب حقاً أن جميع العجلات الدائرة في هذا السيرك إنما هي ناتج قانون وضعه واحد من أولئك المنعزلين، غير أنني لا أعرف لماذا لم أشارك ولو لمرة واحدة في صياغة أي من القوانين، إنني رجل غير سعيد، هل هذا يكفي؟ كما أنني أسير داخل حالة حزني بانسيابية مدهشة، الحزن الذي بدا لي كأم رؤم لم يفتر حنانها قط، مرحى يا أمي.

أنا في حالة عشق مستحيل: لماذا هو مستحيل يا رب؟ لأنه من المفيد في مثل حالتك أن يكون كذلك. آمين. فقدت كل مؤشرات القلق، كذلك مشاعر الخوف أو ما شابه، هذا يعني أنني عارٍ حتى العظم فالقلق لا يسكن إلا الأرواح التواقة، والخوف لا يعرف الإقامة في صدور العراة، لم يعد هناك في الأرض حلم جديد، وكذلك في السماء: الكنوز قديمة.

fb/mashro3pdf

أنا أحب بالطريقة التي لا تصل إلى شيء، عرفت هذا وليس في مقدوري أن أتغير، أو حتى أغير هذه الطريقة الميتة، لم تكن حبيبتي جميلة حتى أصل إلى هذا الجنون، لم تكن أكثر من حبيبتي! لا أتذكر أن أحداً أحبني سواها، أو نطق أسمي صحيحاً مثلها، لم يقبلني البشر إلا بشروطهم، هي فقط قبلتني بشروطي، في الحقيقة بدون شروط.

حبيبتي الخالدة في الغياب لن تعود ثانية، وأنا لن أصنع أخرى.

ما قلت وفعلت من قبل لن أعود لقوله و فعله مرة أخرى، لن أكرر موتي أو حياتي، ما الفائدة! ضد التكرار، ضد الكفر، ضد الإيمان، ضدي أنا، لا يعلم السر إلا خالقه، هذا واضح جداً، لكأنني كون مستقل يحيا داخل مساحة من الجلد والعظم، وفي اللحظة الواحدة أسير مع الجميع داخل نفسي، ذهبت بعيداً وعدت إلى هنا، هو الحلم يتغير كثيراً عما شاهدت في شوارع الحياة، والمرارة التي تسيل رغماً عن إرادتي

(لا إرادة لي في الأصل) هي ناتج الماء الذي إرتويته من كل المشارب، وقبل أن أنسى فأنني لست نادماً على خطأ كان أو صواب، على قول أو فعل، على امتلاك أو ترك، فما فعلته طوال الطريق كان أنا بالضبط، ولو عدت آلاف المرات لفعلت الشيء ذاته، ففي الحقيقة نحن لا نفعل شيئاً، الوقت قصير للغاية غير أنه كاف وأكثر لتأمل معالم القدم على الرمل، ومثلما كل شيء في الواقع ينقصه شيء من الحلم ليكتمل، فالحلم أيضاً ينقصه شيء

fb/mashro3pdf

في الواقع ليكتمل، في تلك المسافة من النقص تركض اللغة، تتوالد غزلاناً ولبؤات، قصوراً أو سجوناً، حدائقاً ومنافي، إن كل ما علي الأرض بدا لي ناتج عملية ضرب عقيمة! نسل شائه من توق مستحيل.

فلترحل الأرض إذن في دورانها الكئيب حول نفسها أو حول ما شاءت من مجرات لا أعرفها ولا أريد، أين أنا بالضبط وأين هو؟ نحن لم نلتق من قبل (من الصعب جداً أن نلتقي) غير أننا لم نفترق لحظة! في كل من لاقيت كنت أنا هو أنا، وكان الآخر هو الآخر، في الليل نتعانق تحت السقف الأسود، ونعود أطفالاً بلا شرور أو أقنعة، النهار فقط هو الساحة الشائكة، على ساحة النهار أكون قدر المستطاع أبعد من أيادي البشر قليلاً، لم أرغب قط في أن أعود صلصالاً مرة أخرى، إذ تكفي مرة واحدة، ولسبب قد يطول الخوض فيه فأنني بت على مشارف الرضا العميق.

الخسارة الفادحة هي أنني لا أجد المعاونة الكافية من جمهور الساخطين حولي إذ ما زالوا يحلمون، مازال الأمل لديهم حياً فيما غاصت قناعتي حتى أشرفت على النبع: لا شيء. عرفت هكذا أن الجحيم والفردوس ها هنا، فلماذا نذهب بعيداً؟ وفي مسألة الاختفاء (الموت) فلا سبب للرعب والخوف، فمن حيث أتيت تعود، وماكنته هنا فلسوف تكونه هناك، أو ماكنته هناك كتابة فأنـت صائـر إليه هنا فعلاً، ما الفرق؟ ليس أكثر من الدور الممنوح لك! والغيمة التـي مرت فـوق الرأس كانت ثقيلة ورطبة، جاحد

fb/mashro3pdf

من ينكر مذاق الثدي.
لكنك لن تظل طفلاً إلى الأبد، الله، الله وحده يحتفظ بهذه الخاصية المعجزة.
وعلي أن أتذكـر أنه لمن المؤسف حقاً أن يعود بإمكاني الاعتذار الآن لكثير من البشر، الأشياء، الأماكن، في ذلك الزمن البعيد الذي تقريباً هو ذات هذا الزمن فعلت ما يوجب الاعتذار الآن، فكم مرة ألقيت الحصوات في عين الماء الصافي؟ كم مرة صرحت بأن الشمس ما هي إلا حبة طماطم كبيرة، وكم مرة كنت الريح التي رفعت الثوب عـن ندبـة عميقة أو عورة مستورة، لماذا كنت دائماً على الطرف الأخر من النهر؟ ربما كان ذلك نوع من الدفاع المبكر عن النفس الهشة، ربما كان نوعاً من الصراخ كي يلتفت العابرون إلي على عجل، كنت فظاً وجاهلاً غير أنني الآن أعول على فضيلة النسيان، لأجل تلك الحماقات نأيت، احترفت الصمت، لزمت المنافي كدار وسكن، ومن هناك رأيت أكثر، حتى أنني أستطيع أن أحصر البشرية دون خطأ في العدد، النوع، الشكل.... الخ.. الخ.
هكذا تؤمن: بين بسالة الدفاع وجرأة الهجوم تضيع الحياة! وحين يتحقق الهدف المنشود تكون قد انتهيت،لا قيمة تبقي إلا الفراغ، وحشاً ضارياً لكنه الأصل، الوجود حركة عارضة، والغياب البديع هو الحق.
أنا لست ملتزماً بالمواقيت لأن الوقت أبداً لم يكن ملتزماً معي،

fb/mashro3pdf

لهذا أتجول في تلافيف الأزمنة بحرية قصوى، أحيا الغد بمعرفة أصيلة، أجتر الماضي كحياة جارية، وليس من فرق إلا هاهنا، ففي القطيع تذوب، غير أنك لا تذوب تماماً، بعض الحصوات يمجها البحر الكبير وهي فيه راقدة، لا فكاك، غريب هذا، لكن من يملك القدرة على إلغاءها؟ حصاة بلا اسم ولا وزن ولا تاريخ هي تاج البحر السخيف!

قررت أن أحيا جيداً مادامت حصتي في الهواء ليست في حوزة أحد من البشر.

حبيبتي، أين وعدك الدؤوب لي بالحب؟ من أين لك بكل هذه الطاقة لطمس عيوني وجوارحي؟ كيف تهنئين باستسلامي المطلق لغيابك؟

هذا أوان ليل طازج، بخار أخضر يلف التلة الغارقة في السكون، عصافير سوداء نبيلة، موج شديد الزرقة بهامات بيضاء يشرئب على سياج الحديقة، زهر رمادي يتقافز فوق أغصان الأشجار، الذئب، الذئب يصعد الدرب بثقة وامتلاء.

سأكتب مقدمة مختصرة وفي رأسي أفكار غائمة، لا بد من التركيز على حدث ما ثم الغوص فيه إلى مالا نهاية وفجأة يتوقف كل شئ، هذا ما حدث دائماً، وهذا أيضاً ما لم يحدث قط، لتكن شذرات بلا رابط، الحياة نفسها تبدو هكذا، ولتكن حريصاً تماماً أن لا تتلفظ بلفظة الحزن ولا تتطرق إلى كلمة السعادة.

عن طبيب غامض سأكتب الرواية، عن فنان صغير ربما، وفي

fb/mashro3pdf

كل الأحوال ستكون سيرة لشيء ما من التفاصيل المخجلة والخيال الذي يضرب العجز على مؤخرته، يروق لي أن أكف الآن عن التداعي وأن أعيد الأوراق الكثيرة التي وجدتها إلى مكانها الصحيح، هناك، لقد أنفقت وقتاً لا بأس به وفي النهاية سأعرف أن الأمانة تقتضي أن يأخذ كل واحد منا أغراضه، أكرر: لا شئ، لا شئ، لقد جاء الولد بصرخته وعبر الوادي الفسيح، لا شئ، لا شئ، كانت المسألة أنه لا يطيق البقاء هنا ولا يستطيع الرحيل إلى هناك فلجأ إلى الفلسفة ـ ترويض الأمور، جعلها صغيرة مثل الحصاة حتى يسهل ابتلاعها ـ ، وعلى طول الطريق لم يعدم وسائل التسلية، ويل للذين يأخذون الأمور بجدية مطلقة، سيربح العالم ويخسرون جنونهم، ومن منطقة ما تستطيع أن تري الجريمة العادلة، فقط تحرك قليلاً، ومادام ذلك الشيء موجوداً فلا نفع من شئ، ضد هذا الشيء سأكتب رواية، لن تكون النهاية واقعية بالطبع لكنني سأحاول ولن أنجح مقدماً، لن أحشر كثيراً من البشر في روايتي المقبلة، يكفي واحد، اثنان، على الأكثر ثلاثة أشخاص، البشرية تقدمت كثيراً في كل المجالات لكنها ظلت البشرية التعسة، أنظر إلى أي أحد تلقاه، فقط أنظر جيداً، دقق النظر تجد البشرية كاملة: لا شيء، ضد الأمل سأكتب روايتي وسيزجون بي إلى خانة السوداويين الثقلاء، التغير يطال كل شيء وهذه الصفة الكاذبة سيتكفل بها الزمن، نحن لم نتعلم شيئاً وإلا لماذا نقع في ذات الأخطاء دائماً؟ هذا هو الإنسان وسيظل،

fb/mashro3pdf

يريد كل شئ فيما هو لا يقدر على أي شيء!
أفكر، سأكتب رواية لا تكف فيه الضحكات، لا يموت فيها أحد، ولا يعرف شخوصها الندم أبداً.

***تمت*......**

fb/mashro3pdf

ملامح

تصميم الغلاف: ريهام ناجي

fb/mashro3pdf